ثورة الحسين عليه السلام

ظروفها الاجتماعيّة

وآثارها الإنسانيّة

تأليف

سماحة آية الله الشيخ مُحَمَّد مهدي شمس الدين

وثّق أُصوله وحقّقه وعلّق عليه

الأُستاذ سامي الغريري الغرّاوي

مؤسسة دار الكتاب الإسلامي

بسم الله الرحمن الرحيم

ثورة الحسين عليه السلام

ظروفها الاجتماعيّة

وآثارها الإنسانيّة

تأليف

سماحة آية الله الشيخ مُحمَّد مهدي شمس الدين

وثّق أُصوله وحقّقه وعلّق عليه

الأُستاذ سامي الغريري الغرّاوي

مؤسسة دار الكتاب الإسلامي

فهرس الموضوعات

مقدّمة الناشر ٩

مقدّمة الطبعة الرابعة ١١

المقدّمة ١٧

ملامح من ثورة الحسين عليه السلام ٢١

الفصل الأوّل: الظروف السياسيّة والاجتماعيّة ٢٩

الحكم الأُموي كما صوّره خليفة أُموي ٣١

تمهيد ٣٣

أ - منطق السّقيفة ٣٤

ب - مبدأ عمر في العطاء ٣٦

ج - الشورى ٣٩

سياسية عثمان الماليّة والإداريّة ٤٣

موقف عثمان من معارضيه ٤٩

نتائج سياسة عثمان ٥٥

موقف الإمام علي عليه السلام من الحكم بعد عثمان ٥٩

إصلاحات الإمام عليه السلام وموقف المسلمين منها ٦٣

سياسة معاوية الإرهاب والتجويع ٧٣

إحياء النزعة القبلية واستغلالها ٩١

التحذير باسم الدين وشلّ الروح الثوريّة ١٠٩

آثار سياسة معاوية في المجتمع الإسلامي ١٢٥

موقف الحسن والحسين عليهما السلام من السياسة الأُمويّة ١٣١

الفصل الثاني: دوافع الثورة وأسبابها ١٣٥
لماذا لم يثر الحسين عليه السلام في عهد معاوية ١٣٧
الوضع النفسي والاجتماعي ١٤٠
شخصيّة معاوية ١٥٣
العهد والميثاق ١٥٩
شخصيّة يزيد ١٦٣
موقف الحسين عليه السلام من يزيد في حياة معاوية ١٦٥
موقف الحسين عليه السلام من البيعة ليزيد ١٦٧
بواعث الثورة عند الحسين عليه السلام ١٧٣
بواعث الثورة لدى الرأي العام ١٧٩
بواعث الثورة لدى الثائرين ١٨٢
الفصل الثالث: آثار الثورة في الحياة الإسلاميّة ١٨٥
تمهيد ١٨٧
تحطيم الإطار الديني ١٩٧
الشعور بالإثم ٢١١
الأخلاق الجديدة ٢١٩
انبعاث الروح النضاليّة ٢٣٥
ثورة التوّابين ٢٣٩
ثورة المدينة ٢٤٥
ثورة المختار الثقفي ٢٤٩
ثورة مطرف بن المغيرة ٢٥٣

ثورة ابن الأشعث ٢٥٥
ثورة زيد بن علي بن الحسين عليه السلام ٢٥٩
ثورة أبي السرايا ٢٦٣
ماذا أفادت الأُمّة من انبعاث الروح النضاليّة؟ ٢٦٦
خاتمة.. ٢٦٩
الفهارس الفنيّة العامّة.. ٢٧٣
فهرس الآيات ٢٧٥
فهرس الأحاديث ٢٧٧
فهرس المصادر المطبوعة والمخطوطة ٢٨١

مقدّمة الناشر

الحمد لله والصّلاة والسّلام على خير خلق الله أجمعين إمام المرسلين وخاتم النبيين سيدنا مُحَمَّد النبي الأمين وعلى آله الطيبين الطاهرين، القائل في حديثه الشريف: « مَنْ يرد الله به خيراً يُفَقِّهْهُ في الدين »[١].

الحمد لله أفاض على قلوب مَنْ يشاء من عباده فتفجّرت ينابيع الحكمة في أقوالهم وأفعالهم، وسالت أودية العلم بقدرها بأقلامهم ومدادهم، فملأت الدنيا علماً ونوراً، وصدقاً ويقيناً، واستبان للناس على ألسنتهم مكنون شريعة الله تعالى أصولاً وفروعاً، فسبحانه حين قال: ﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاّ أُولُو الأَلْبَابِ ﴾[٢].

وبعد، فهذا الكتاب الذي بين يدي القارئ الكريم، الموسوم بـ (ثورة الحسين ظروفها الاجتماعيّة وآثارها الإنسانية) من عُصارة أفكار العلاّمة الشيخ محمد مهدي شمس الدين (قدس سرّه)، كتبه عندما كان يدرس ويدرّس في النجف الأشرف، وهو من الفريق الأوّل، أي خريجو المدارس العالية والمستنيرون والمثقّفون، وأعلام الهداية الذين

---

(١) انظر: صحيح البخاري ١/٣٩ ح٧١، صحيح مسلم ٢/٧١٨ ح١٠٣٧.

(٢) سورة البقرة/٢٦٩.

حبّب الله إليهم الإيمان وزيّنه في قلوبهم، وكرّه إليهم الكفر والفسوق والعصيان، أُولئك هم الراشدون من أعلام النجف الأشرف الذين لا يشتهون سوى الحقّ طلبة، ولا يبغون آيات الله عوجاً، وممّن يلتقطون الحكمة أنّى وجدوها.

وقد تُرجم هذا الكتاب إلى لغات عديدة نظراً لأهميّة الموضوع؛ لأنّه مختصّ بظروف ثورة الإمام الحسين عليه السلام التي لا تُحصى ولا تُحصر، ولا تنقضي بمقال، وكلّ همّة عنها تسْتَقصر؛ لأنّها مرتبطة بالحبّ والاستشهاد الحسيني، وعلامة المحبّة أن تُوثر مطلوب محبوبك، بل حقّ العبادة أن يُقال: لا تشهد لك مطلوباً مع مطلوبه، فحبّ الله متوقف على حبّ رسوله، وحبّ رسوله صلى الله عليه وآله متوقف على حبّ آل بيته الكرام.

ولو أفردنا لثورته عليه السلام، لأفنينا في ذلك الطوامير، والدفاتر العراض؛ ففريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قد تجلّى بثورة الإمام الحسين عليه السلام حين خاطب أهل الكوفة قائلاً: « وإنّي لم أخرج بطراً ولا أشراً، ولا مفسداً ولا ظالماً... وإنّما خرجت أطلب الصلاح في أمّة جدّي محمّد؛ آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر »(١).

وعلّق الدكتور أسعد علي على هذا قائلاً: « فالخروج يعني تجاوز القول إلى الفعل، وعبّر عن هذا التجاوز التنفيذي بفعل وصل فيه فاعله، وبصيغة التقرير الذي يؤكّد ما حصل فعلاً »(٢).

وقد تطابق على إيجاب هذه الفريضة الكتاب، والسنّة، والإجماع، والعقل، ولسنا بصدد بيان ذلك(٣).

وبما أنّ مؤسسة دار الكتاب الإسلامي عُنيت بنشر التراث؛ لذا تنشر هذا السفر الجليل لرفد المكتبة الإسلاميّة والجامعات العلمية؛ لكي تستضاء بنوره.

---

(١) انظر: الفتوح - لابن أعثم ٣٤/٥، مناقب آل أبي طالب ٢٤١/٣.

(٢) انظر: أنصار الحسين - لمحمد مهدي شمس الدين/٣٩.

(٣) انظر: الإمام المجتهد يحيى بن حمزة وآراؤه الكلامية/٣١٧ وما بعدها.

مقدّمة الطبعة الرابعة

يُشرّفني ويُسعدني أن أقدّم إلى القرّاء الكرام الطبعة الرابعة من هذا الكتاب (ثورة الحسين ظروفها الاجتماعيّة وآثارها الإنسانيّة) بعد أن نفدت الطبعة الثالثة، وقد تلقّى القرّاء على اختلافهم هذا الكتاب لقاءً كريماً في كلّ إطلالة عليهم من خلال طبعاته الثلاث.

ولعل السّر في ذلك ما قاله عن هذا الكتاب من العلماء والمثقفين الذين نحترم علمهم وحيدتهم: « أنّه أفضل ما كُتب عن ثورة الحسين على الإطلاق ».

والحقّ أنّ ما كُتب عن ثورة الحسين عليه السلام - سوى هذا الكتاب - قد عالج تلك الثورة العظيمة وفقاً لأحد منهجين:

١ - منهج السّرد التاريخي المحض مع التركيز على عنصر المأساة فيها، وتعمد إبراز جانب الإثارة العاطفية منها.

وهذا منهج قديم في الكتابة عن هذه الثورة وغيرها، وهو استمرار لمنهج كُتّاب (المقتل) الذين كانوا يؤرّخون لبعض الثورات وحركات التمرّد في الإسلام من خلال التأريخ للأبطال البارزين في تلك الثورات وحركات التمرّد، أمثال (مقتل عثمان)، و (مقتل حجر بن

عدي)، و (مقتل عبد الله بن الزبير).

وهذا النوع من الكتابة يعتبر في رأينا إحدى الحلقات التمهيديّة التي مرّت بها كتابة التأريخ عند المسلمين، تُضاف إلى الحلقات الأخرى؛ تدوين الحديث، ونشوء فئة من المحدّثين والأخباريين (أصحاب الأخبار)، وكُتّاب السيرة النبويّة[1].

هذه الحلقات التي أدّت في النهاية إلى كتابة التأريخ الإسلامي وفقاً لمنهج « الحوليّات » عند مُحَمّد بن جرير الطبري وغيره.

٢ - المنهج الجمالي التأريخي.

وكُتّاب هذا المنهج يسلّطون الأضواء على الفضائل أو الرذائل الشخصيّة لأطراف الصراع، فيفيضون في الحديث عن ما يتمتّع به طرفا الصراع من نبل أو خسّة، ويقدّم التأريخ الشخصي للشخصيّات شواهد جمّة على هذه المسلكية الأخلاقية، ويتوسّعون في الحديث عمّا يُميّز أحداث الثورة من رفعة في ميزان الأخلاق لدى فريق، أو إسفاف وحقارة في سلّم القيم لدى الفريق الآخر، هذا مع عناية بارزة بسرد أو تحليل الأصول الشخصيّة للخلاف العائلي بين الهاشميين والأُمويّين في الجاهليّة وفي صدر الإسلام.

وإذا كان المنهج الأول استمراراً للمنهج القديم لكتّاب (المقتل) فإنّ هذا المنهج الثاني يُمثّل جانب الحداثة - كما يفهمها بعض المؤرّخين وكتّاب السيرة

---

(١) لاحظ كتابنا، أنصار الحسين - دار الفكر - بيروت سنة ١٩٧٥ م، فقد فصّلنا فيه الحديث عن هذا الموضوع الذي وفّقنا إلى اكتشافه، ونأمل أن يتوفر بعض الباحثين عليه لدراسته، ونقّدر أنّ دراسة معمّقة ومستوعبة لهذا الموضوع قد تؤدّي إلى تغيير النظرية السائدة حول نشوء الكتابة التأريخيّة عند المسلمين، والتي تعتمد على أفكار فرانز روزنتال. لاحظ كتابه (علم التأريخ عند المسلمين)، منه رَحمه الله.

المحدّثين - وهو منهج يستفيد كثيراً من الأساليب التي حفلت بها الثقافة الأوربية في هذا الحقل؛ إنّ من حيث التخطيط والأسلوب والزوايا التي ينظر منها الباحث إلى موضعه، أو من حيث الانتفاع بما يوفّره علم الاجتماع وعلم النفس، والدراسات الجمالية والأخلاقية لهذا النوع من البحث التأريخي من فرص التوسّع والتنوّع.

* * *

وقد كان المنهج الأول - في الماضي - يخدم أهدافاً تربوية وسياسية، وبالإضافة إلى الهدف الثقافي المحض الذي نقدّر أنّه لم يكن يحظى من كُتّاب المقتل القدماء بعناية ذات شأن؛ أمّا لدى المحدّثين من كُتّاب المقتل والسيرة الحسينيّة، فإنّ هذا المنهج يخدم أهدافاً ثقافية وتربوية فقط، بعد أن توارى الهدف السياسي منذ زمن طويل.

أمّا المنهج الثاني فإنّه يخدم أهدافاً ثقافية بالدرجة الأولى، وأهدافاً تربوية إلى حدّ ما دون أن يكون له فيما نقدّر أي مضمون سياسي، لكنّه يعاني في الوقت نفسه من عيب كبير؛ إذ إنّه يُعطي انطباعاً قوياً بأنّ الثورة الحسينيّة ثمرة لخلاف عائلي وشخصي أضرمته المطامع السياسيّة، وغذّته - على مهل - طوال عقود كثيرة من السنين أحداث الصراع القبلي حول زعامة قريش ومكة.

وهذا انطباع خاطئ بلا شك؛ فإنّ حوافز الصراع الذي بلغ ذروته بالثورة الحسينيّة كانت من الجانب الحسيني ذات محتوى سياسي اجتماعي يستمد توجيهه العقيدي ومنهجيته التشريعية من الإسلام، وكانت من الجانب الأموي - جانب النظام - ذات محتوى سياسي اجتماعي يستمد توجيهه

المبدئي، وخطّ سيره من القيم القبائلية الجاهليّة من جهة، ومن طرائق الحكم البيزنطي من جهة ثانية، مع إسباغ صفة إسلاميّة على الممارسات التي يقوم بها النظام.

* * *

ولكنّ هذين المنهجين - مع الاعتراف بكلّ فضائلهما - يفشلان في تحقيق هدف معاصر له أهمية بالغة في تحقيق التكامل الحضاري، والوعي السياسي لدى الإنسان المسلم بوجه خاص، حيث إنّ الباحث لا يستطيع - وفقاً لهذا أو ذاك منهما - أن يفهم ويقدّم الثورة الحسينيّة إلى الإنسان الحديث على ضوء المعطيات المعاصرة في المسألة الاجتماعيّة، ولا يستطيع أن يكشف عناصر الديمومة والاستمرار في الثورة.

هذه العناصر التي تجعل من الثورة شيئاً ذا صلة بالحاضر الحيّ، قادراً على إغناء الحاضر، وتزويده بعناصر من الفكر والرويّة تجعل النضال في حقل المسألة الاجتماعيّة يجمع - إلى جانب الحداثة - الأصالة الضرورية للحفاظ على سلامة الشخصيّة الإنسانيّة من التشويه، أو الذوبان في غمرة المتغيّرات المتسارعة لحضارة ماديّة غير إنسانيّة، هي الحضارة الماديّة الحديثة.

إنّ النقص الذي يُعاني منه هذان المنهجان يتلافاه - فيما نعتقد - المنهج الذي وضع هذا الكتاب وفقاً له؛ فقد عالج ثورة الحسين من زوايا جديدة، وكشف عن أبعاد جديدة، وأعماق بكر فيها جعلتها - من خلال التفسير الذي قدّم هذا الكتاب - ذات مضمون يتّسق مع التطلّعات التي يحملها الإنسان المعاصر إلى مجتمع تسوده العدالة، وتحكم علاقاته الروح الإنسانيّة وكرامة الإنسان؛

وبذلك نأى بها عن أن تكون مجرّد مأساة سببها ظلم البشر، أو مظهراً لصراع عائلي وشخصي على السلطة والنفوذ، ولم يُهمل في الوقت نفسه جانب المأساة منها، والعوامل الشخصيّة فيها.

هذه العوامل التي لوّنت السلوك الثوري لهذا الفريق، والسلوك القمعي لذاك الفريق دون الاعتراف بأنّ هذه العوامل هي السبب الكامن وراء الثورة الحسينيّة، حيث إنّ هذا السبب يكمن في الإيديولوجيا التي وجّهت طرفي الصراع نحو الاختيارات المبدئية التي قادت كلاً منهما إلى الاختيار الأخير الذي تمثل في الثورة الحسينيّة.

ويبدو أنّ هذا الكتاب للسبب الذي ذكرنا قد لبّى حاجة حقيقية لدى المثقّفين بوجه عام، والمعنيين بدراسة التأريخ الثوري للإسلام بوجه خاص. والله تعالى أسأل أن يجعل هذا العمل مباركاً ونافعاً، والحمد لله ربّ العالمين.

بيروت ١٣٩٧/٣/٢ هـ - ١٩٧٧/٢/٢٠ م

محمّد مهدي شمس الدين

المقدّمة

إنّ أكثر ما استأثر باهتمام الناس من ثورة الإمام الحسين عليه السلام هو جانب القصّة فيها ما اشتمل عليه من مظاهر البطولة النادرة، والسمو الإنساني المعجز لدى الثائرين وقائدهم العظيم، المتمثل في التضحية بكلّ عزيز من النفس والولد، والمال والدعة، والأمن في سبيل المبدأ والصالح العام، مع الضعف والقلّة، واليأس من النصر العسكري.

وما اشتمل عليه من مظاهر الجبن والخسّة والانحطاط الإنساني لدى السلطة الحاكمة، وممثلها وأدواتها في تنفيذ جريمتها الوحشية بملاحقة الثائرين واستئصالهم بصورة لم يشهد لها التأريخ مثيلاً.

وما اشتمل عليه من الأمثلة الفريدة على الحبّ، حبّ الثائرين لجلاّديهم، وإشفاقهم عليهم من السلطة الجائرة التي تستخدمهم، وتغرر بهم، وتدفعهم إلى حرب القوى التي تريد لهم الخير والصلاح، وحبّ الثائرين بعضهم لبعض بحيث يدفع كلاً منهم إلى طلب الموت قبل صاحبه؛ لئلا يرى صاحبه مقتولاً قبله.

يُقابل ذلك أبشع مظاهر الحقد والبغضاء لدى الحاكمين وأعوانهم، المتمثلة في حرمان الثائرين وأطفالهم حتى من الماء، وفي قتل الأطفال والنساء، إلى غير ذلك ممّا تعرضه قصّة هذه الثورة من أنبل ما في الإنسان في الفكر

والقول والعمل لدى الثائرين، وأحطّ ما فيه من غرائز لدى الحاكمين وأعوانهم، وما نتج من تقابل هذه النماذج المتضادة من المثل، والمبادئ، والعواطف، من مأساة دامية لا تزال تثير الأسى في قلب كلّ مَنْ سمعها أو قرأها.

وقد بلغ من قوّة تأثير الجانب القصصي المأساوي من هذه الثورة، بما له من دلالات مثيرة، أنّه فرض نفسه على معظم مَنْ كتب عنها - إن لم يكن كلّهم - فقصروا دراساتهم على هذا الجانب دون غيره.

ولكنّ الجانب القصصي - على ما له من مزايا تربوية وتوجيهية - ليس كلّ ثورة الحسين عليه السلام ؛ فإنّ أحداث هذه الثورة، وكلّ ثورة، ليست معلّقة في الفراغ، وإنّما هي الجزء الظاهر من عملية تأريخيّة واسعة النطاق.

فلكلّ ثورة جذور في نظام ومؤسسات المجتمع الذي اندلعت فيه، ولكلّ ثورة ظروف سياسية واجتماعية معينة، ولكلّ ثورة - وإن كانت فاشلة عسكرياً - آثار ونتائج، ولا يمكن أن تُفهم الثورة على وجهها ما لم تُدرس من جميع جوانبها؛ مقدّماتها ونتائجها، وهو ما هدفت إليه في هذا الكتاب؛ فقد حاولت فيه أن أُحلّل ثورة الحسين عليه السلام بدراسة ظروفها التي أحاطت بها، والملابسات التي أدّت إليها، والآثار التي نجمت عنها في الحياة الإسلاميّة.

وهو حلقة من سلسلة كتب آمل أن يوفّقني الله لإنجازها عن الثورات في التأريخ الإسلامي.

* * *

وأعتقد أنّ الثورات في التأريخ الإسلامي لم تحظ بالعناية التي تستحقها من المؤرّخين والباحثين؛ القدماء منهم والمتأخرين، بل انصبت عنايتهم على تأريخ السلطة الحاكمة التي تسبغ على نفسها صفة الشرعية.

أمّا الثورات - وهي

تُمثل الجانب الآخر من قصّة الحكم في الإسلام - فقد عولجت بصورة جانبية، وبروح معادية في كثير من الحالات.

وربّما كان السبب في ذلك هو أنّ المؤرّخ القديم كان - في الأعمّ الأغلب - يكتب ما يكتب مقيّداً بتوجيه، أو رغبة الحاكم الذي يعيش في ظلّه، وينفق عليه.

وقد يتعدّى توجيه الحاكم للمؤرّخ عصره الذي يعيش فيه إلى الأحداث والشخصيات الفكرية والسياسية الماضية التي لم تفقد تأثيرها على الوضع السياسي والاجتماعي في عصر المؤرّخ.

ويبدو أنّ المؤرّخين المحدّثين قيّدوا أنفسهم بالمنهج الذي اتّبعه القدماء في هذا الموضوع، أو ربّما كان الذعر الذي يثيره الحديث عن الثورة في مجتمع مستقر سبباً لدى بعضهم في تجنّب الحديث عن الثورات والثائرين، لاسيّما وأنّنا لم نبلغ بعد مرحلة من النضج الفكري نفرّق فيها بين السياسة والعلم، أو مرتبة من الأمانة تبعدنا عن أن نُكرّس البحث العلمي لأغراض السياسة.

ولكن - مهما تكن المبرّرات - فإنّ إهمال البحث الجاد المستوعب للثورات في التأريخ الإسلامي يجعل الصورة التأريخيّة مشوّهة وناقصة؛ لأنّ الثورة - كما قلت آنفاً - هي الوجه الآخر من الصورة التأريخيّة للمجتمع الإسلامي، ولا يمكن تكوين فكرة صادقة عن أوضاع المسلمين القديمة ما لم نحط بالصورة من وجهيها.

وآمل أن يوفقني الله سبحانه وتعالى لإنجاز سلسلة كتب عن الثورات في التأريخ الإسلامي تكشف عن ألوان من كفاح المسلمين - عبر التأريخ - في سبيل تحسين أوضاعهم على هُدى من الشريعة الإسلاميّة.

وعسى أن أكون قد وفّقت في هذا الكتاب - وهو أوّل ما يُنشر من حلقات هذه السلسلة - إلى الصواب في استنتاجاتي وأحكامي. والله وراء القصد.

مُحَمَّد مهدي شمس الدين

ملامح من ثورة الحسين عليه السلام[1]

الثورة الصحيحة هي الاحتجاج النهائي الحاسم على الواقع المعاش، فبعد أن تخفق جميع الوسائل الأخرى في تطوير الواقع تصبح الثورة قدراً حتمياً لا بدّ منه.

والقائمون بالثورة الصحيحة هم دائماً أصحّ أجزاء الأمّة، هم الطّليعة، هم النُّخبة التي لم يأسرها الواقع المعاش، وإنّما بقيت في مستوى أعلى منه وإن كانت تدركه، وتُعبه وترصده، وتنفعل به، وتتعذّب بسببه.

تُصبح الثورة قدر هذه النُّخبة ومصيرها المحتوم حيث تُخفق جميع وسائل الإصلاح الأخرى، وإلاّ فإنّ هذه النُّخبة تفقد مبررات وجودها إذا لم تثر، ولا يُمكن أن يُقال عنها أنّها نُخبة، أنّها تكون نُخبة حين يكون لها دور تأريخي، وحين تقوم بهذا الدور.

ولا بدّ أن تُبشر بأخلاق جديدة إذا حدثت في مجتمع ليس له تُراث ديني وإنساني يضمن لأفراده - لو اتّبع - حياة إنسانيّة متكاملة، أو تُحيي المبادئ والقيم التي هجرها المجتمع، أو حرّفها إذا كان للمجتمع مثل هذا التراث، كما هو

---

(١) نُشرت هذه المقالة في مجلة الأضواء الإسلاميّة التي كانت تصدر في النجف الأشرف، في العدد الثاني من السنة الأولى في ١ محرم ١٣٨٠ - ٢٦ حزيران ١٩٦٠م، منه رحمه الله.

الحال في المجتمع الإسلامي الذي كانت سياسة الأُمويّين المجافية للإسلام تحمله على هجر القيم الإسلاميّة، واستلهام الأخلاق الجاهليّة في الحياة، وتوفّر هذا الهدف في الثورة الصحيحة من جملة مقوّمات وجودها؛ لأنّ العلاقات الإنسانيّة في الواقع علاقات منحطّة وفاسدة، وموقف الإنسان من الحياة موقف متخاذل، أو موسوم بالانحطاط والانهيار، ولذلك انتهى الواقع إلى حدّ من السوء بحيث غدت الثورة علاجه الوحيد.

وإذاً فالدعوة إلى نموذج من الأخلاق أسمى ممّا يمارسه المجتمع ضرورة لازمة؛ لأنّه لا بدّ أن تتغيّر نظرة الإنسان إلى نفسه، وإلى الآخرين وإلى الحياة؛ ليمكن إصلاح المجتمع.

ولقد قدّم الحسين عليه السلام وأصحابه الأخلاق الإسلاميّة العالية بكامل صفاتها ونقائها، ولم يُقدّموا إلى المجتمع الإسلامي هذا اللون من الأخلاق بألسنتهم، وإنّما كتبوه بدمائهم، بحياتهم...

* * *

لقد اعتاد الرجل العادي إذ ذاك أن يرى الزعيم القبلي، أو الزعيم الديني يبيع ضميره بالمال، وبعرض الحياة الدنيا. لقد اعتاد أن يرى الجباه تعنو خضوعاً وخشوعاً لطاغية حقير؛ لمجرّد أنّه يملك أن يحرم من العطاء.

لقد خضع الزعماء الدينيون والسياسيون ليزيد على علمهم بحقارته وانحطاطه، وخضعوا لعبيد الله بن زياد على علمهم بأصله الحقير، ومنبته الوضيع، وخضعوا لغير هذا وذلك من الطغاة؛ لأنّ هؤلاء الطغاة يملكون الجاه، والمال، والنفوذ، ولأنّ التقرّب منهم، والتودّد إليهم كفيل بأن يجعلهم ذوي نفوذ في المجتمع، وأن يسبغ عليهم النعمة والرفاه وهناءة العيش.

وكان هؤلاء الزعماء يرتكبون كلّ شيء في سبيل نيل هذه الحظوة، كانوا يخونون مجتمعهم، فيتمالؤون مع هؤلاء الطغاة على إذلال هذا

المجتمع وسحقه وحرمانه، وكانوا يخونون ضمائرهم، فيبتدعون من ألوان الكذب ما يدعم هذه العروش، وكانوا يخونون دينهم الذي يأمرهم بتحطيم الطغاة بدل عبادتهم.

كان الرجل العادي في المجتمع الإسلامي آنذاك يعرف هذا اللون من الرجال، ويعرف لوناً آخر منهم، وهم أُولئك الزهاد الدجّالون الذين يتظاهرون بالزهد رياءً ونفاقاً، حتّى إذا تقرّبوا من الطغاة كانوا لهم أعواناً وأنصاراً.

إنّهم هذا الصنف الذي وصفه الإمام علي عليه السلام بقوله: « ومنهم مَنْ يطلب الدنيا بعمل الآخرة، ولا يطلب الآخرة بعمل الدنيا، قد طامن من شخصه، وقارب من خطوه، وشمّر من ثوبه، وزخرف من نفسه للأمانة، واتّخذ ستر الله ذريعة إلى المعصية »[١].

هؤلاء هم الزعماء الذي كان الرجل العادي يعرفهم وقد اعتادهم وألِفَهم، بحيث غدا يرى عملهم هذا طبيعياً لا يثير التساؤل؛ ولذلك فقد كان غريباً جدّاً على كثير من المسلمين آنذاك أن يروا إنساناً يخيّر بين حياة رافهة فيها الغنى، وفيها المتعة، وفيها النفوذ والطاعة، ولكن فيها إلى جانب ذلك كلّه الخضوع لطاغية، والإسهام معه في طغيانه، والمساومة على المبدأ والخيانة له.

وبين الموت عطشاً، مع قتل الصفوة الخلّص من أصحابه، وأولاده وإخوته، وأهل بيته جميعاً أمامه، وحيث تنظر إليهم عينه في ساعاتهم الأخيرة وهم يلوبون ظمأ، وهم يكافحون بضراوة وإصرار عدوّاً هائلاً يريد لهم الموت، أو هذا اللون من الحياة، ثمّ يرى مصارعهم واحداً بعد واحد، وأنّه ليعلم

(١) انظر: نهج البلاغة/الخطبة ٣٢.

أي مصير فاجع محزن ينتظر آله ونساءه من بعده؛ سبي، وتشريد، ونقل من بلد إلى بلد، وحرمان... يعلم ذلك كلّه ثمّ يختار هذا اللون الرهيب من الموت على هذا اللون الرغيد من الحياة.

لقد كان غريباً جدّاً على هؤلاء يروا إنساناً كهذا... لقد اعتادوا على زعماء يمرّغون بجباههم في التراب خوفاً من مصير أهون من هذا بكثير أمثال عمر بن سعد، والأشعث بن قيس[1] ونظائرهما. تعوّدوا على هؤلاء فكان غريباً عليهم أن يُشاهدوا هذا النموذج العملاق من الإنسان، هذا النموذج الذي تعالى ويتعالى حتّى ليكاد القائل أن يقول: ما هذا بشر...[2].

ولقد هزّ هذا اللون من الأخلاق... هذا اللون من السلوك الضّمير المسلم هزّاً مُتداركاً، وأيقظه من سُباته المرضي الطويل؛ ليُشاهد صفحة جديدة مشرقة يكتبها الإنسان بدمه في سبيل الشّرف والمبدأ، والحياة العارية من الذلّ والعبودية.

ولقد كشف له عن زيف الحياة التي يحياها، وعن زيف الزّعماء - أصناف اللّحم - الذين يعبدهم، وشق له طريقاً جديداً في العمل، وقدّم له أسلوباً جديداً في ممارسة الحياة، فيه قسوة، وفيه حرمان، ولكنّه طريق مضيء لا طريق غيره جدير بالإنسان.

ولقد غدا هذا اللون المشرق من الأخلاق، وهذا النموذج الباهر من السلوك خطراً رهيباً على حاكم يُجافي روح الإسلام في حكمه.

إنّ ضمائر الزعماء قليلاً

---

(١) الأشعث بن قيس الكندي: وفد مع قومه إلى النبي صلى الله عليه وآله سنة عشر من الهجرة، وارتدّ بعد النبي فأُسر وجيء به إلى المدينة، فقال لأبي بكر: استبقني لحربك وزوّجني أختك. ففعل، وشهد مع علي صفّين، وألزم علياً بالتحكيم. مات بعد سنة أربعين بالكوفة. (انظر، المعارف - لابن قتيبة/١٦٨، أُسد الغابة ١/٩٨، الفتوح - لابن أعثم ٢/٣٦٧، شرح النهج - لابن أبي الحديد ٢/٣٠ - ٣٣).

(٢) اقتباساً من قوله تعالى: (مَا هَذَا بَشَراً إِنْ هَذَا إِلاّ مَلَكٌ كَرِيمٌ)، يوسف/٣١.

ما تتأثّر بهذه المُثل المضيئة، ولكنّ الذي يتأثّر هي الأمّة، وهذا هو ما كان يريده الحسين عليه السلام.

لقد كان يريد شقّ الطريق للأمّة المُستعبدة لتُناضل عن إنسانيتها. وفي جميع مراحل الثورة، مُنذ بدايتها في المدينة حتّى ختامها الدّامي في كربلاء نلمح التصميم على هذا النمط العالي من السلوك.

ها هو الحسين عليه السلام يقول لأخيه محمّد بن الحنفيّة[١]، وهما بعد في المدينة: « يا أخي، والله لو لم يكن في الدنيا ملجأ ولا مأوى، لما بايعت يزيد بن معاوية »[٢].

وها هو يتمثّل بأبيات يزيد بن مفرغ الحميري

لا ذُعِرتُ السّوامَ في فلقِ الصّبـ ـحِ مُغيراً ولا دُعِيتُ يزيدا

يوم أُعطي على المهانةِ ضيماً والمنايا تَرصَدنني أن أحيدا[٤]

[٣] حين انسلّ من المدينة في جنح الليل إلى مكة:

---

(١) محمّد بن الحنفيّة: هو محمّد بن علي بن أبي طالب عليهما السلام، ابن الحنفيّة خولة بنت جعفر بن قيس بن مسلمة بن عبيد بن ثعلبة بن يربوع بن حنفية من جذم بن بكر بن وائل، سُبيت ثمّ أخذها علي عليه السلام، واختلفوا في كيفية سبيها.

روى ابن أبي الحديد في شرح النهج ٨١/١ من شرحه عن أنساب البلاذري أن بني أسد غارت على بني حنيفة في أيّام أبي بكر فسبوها منهم، وقدموا بها المدينة فباعوها من علي عليه السلام، وبلغ قومها خبرها فأتوا علياً وأخبروه بموضعها منهم، فأعتقها، ومهرها وتزوّجها فولدت محمّداً فكنّاه أبا القاسم.

وقيل: إنّ خالداً قاتل أهلها في حرب الردّة، وسباها ودفعها أبو بكر إلى علي عليه السلام. (انظر المعارف - لابن قتيبة/٢١٦).

(٢) انظر، الفتوح - لابن أعثم ٢٣/٥، مقتل الحسين - للخوارزمي ١٨٨/١.

(٣) هو أبو عثمان يزيد بن زياد بن ربيعة بن مفرغ الحميري؛ لُقّب جدّه مفرغاً لأنّه راهن على سقاء لبن أن يشربه كلّه، فشربه حتّى فرغ، فلُقّب به. وكان ابن مفرغ شاعراً، بل من فحول الشعراء، هجا معاذ بن زياد، وعبيد الله بن زياد، وقد نكلا به وحبساه، ولولا قومه وعشيرته التي كانوا مع يزيد بن معاوية لقتلاه. انظر: سير أعلام النبلاء ٥٢٢/٣.

(٤) انظر: تأريخ الطبري ٢٥٣/٤، الكامل في التاريخ ٢٦٥/٣، تأريخ مدينة دمشق ٢٠٤/١٤.

وها هو يُجيب الحر بن يزيد الرياحي[١] حين قال له: أذكرك الله في نفسك؛ فإنّي أشهد لئن قاتلت لتُقتلن، ولئن قُوتلت لتهلكن. فقال له الحسين عليه السلام: « أبالموت تخوّفني؟ وهل يعدو بكم الخطب أن تقتلوني؟ ما أدري ما أقول لك! ولكن أقول كما قال أخو الأوس لابن عمّه - ولقيه وهو يريد نصرة رسول الله صلى الله عليه وآله - فقال له: أين تذهب فإنّك مقتول؟ فقال:

سأمضي وما بالموتِ عارٌ على الفتى ... إذا ما نوى خيراً وجاهدَ مسلما
وواسى رجالاً صالحينَ بنفسه ... وخالفَ مثبوراً وفارقَ مجرما
فإن عشتُ لم أندم وإن متُّ لم أُلم ... كفى بكَ ذُلاً أن تعيشَ وتُرغما »[٢]

وها هو - وقد أُحيط به، وقيل له: انزل على حكم بني عمّك - يقول: « لا والله، لا أُعطيكم بيدي إعطاء الذليل، ولا أُقرّ إقرار العبيد. عباد الله، إنّي عُذت بربّي وربّكم أن تُرجمون، أعوذ بربّي وربّكم من كلّ مُتكبّر لا يُؤمن بيوم الحساب.

ألا وإنّ الدّعي ابن الدّعي قد ركز بين اثنتين؛ بين السّلة والذلّة، وهيهات منّا الذلّة، يأبى الله لنا ذلك ورسوله والمؤمنون، وجدود طابت، وحجور طهرت، وأنوف حمية، ونفوس أبيّة لا تُؤثر طاعة اللئام على مصارع الكرام »[٣].

---

(١) هو الحرّ بن يزيد بن ناجية بن قطب بن عتاب بن هرمي بن رِياح بن يربوع بن حنظلة بن مالك بن زيد بن منّاة بن تميم التميمي اليربوعي اليامي، وكان شريفاً في قومه جاهليّة وإسلاماً... انظر ترجمته في إبصار العين في أنصار الحسين/١١٥، طبعة النجف الأشرف، جمهرة أنساب العرب - لابن حزم/٢١٥.

(٢) انظر: تأريخ الطبري ٤/٣٠٥، الكامل في التاريخ ٣/٢٧٠.

(٣) انظر: تأريخ الطبري ٥/٤٢٥ - ٤٢٦، طبعة سنة ١٩٦٤ م، الكامل في التاريخ ٣/٢٨٧ - ٢٨٨.

كلّ هذا يكشف عن طبيعة السلوك الذي اختطّه الحسين عليه السلام لنفسه ولمنْ معه في كربلاء، وألهب به الرّوح الإسلاميّة بعد ذلك، وبثّ فيها قوّة جديدة.

* * *

لقد عرفت كيف كان الزعماء الدينيون والسياسيون يُمارسون حياتهم، وهذا يرسم لك صورة عن نوع الحياة التي كان يُمارسها الإنسان العادي إذ ذاك.

لقد كان همّ الرجل العادي هو حياته الخاصة، يعمل لها، ويكدح في سبيلها، ولا يُفكّر إلاّ فيها، فإذا اتّسع أُفقه كانت القبيلة محل اهتمامه. أمّا المجتمع وآلامه، المجمع الكبير فلم يكن ليستأثر من الرجل العادي بأي اهتمام.

كانت القضايا العامّة بعيدة عن اهتمامه، لقد كان العمل فيها وظيفة زُعمائه الدينيين والسياسيين، يُفكّرون ويرسمون خُطّة العمل، وعليه أن يسير فقط، فلم تكن للرّجل العادي مشاركة جدّية إيجابية في قضايا المجتمع العامّة.

وكان يهتم غاية الاهتمام بعطائه، فيُحافظ عليه، ويُطيع توجيهات زُعمائه خشية أن يُمحى اسمه من العطاء، ويسكت عن نقد ما يراه جوراً بسبب ذلك، وكان يهتمّ بمفاخر قبيلته، ومثالب غيرها من القبائل، ويروي الأشعار في هذا وذاك. وهذا مُخطّط لحياة الرجل العادي إذ ذاك.

أمّا أصحاب الحسين عليه السلام فقد كان لهم شأن آخر؛ لقد كانت العُصبة التي رافقت الحسين عليه السلام وشاركته في مصيره رجالاً عاديين، لكلّ منهم بيت وزوجة، وأطفال وصداقات، ولكلّ منهم عطاء من بيت المال، وكان كثير منهم لا يزال في ميعة الصبا، في حياته مُتّسع للاستمتاع بالحُبّ وطيّبات الحياة، ولكنّهم جميعاً خرجوا عن ذلك كلّه، وواجهوا مُجتمعهم بعزمهم

على الموت مع الحسين عليه السلام ... لقد ثاروا على مُجتمعهم القبلي، وعلى مُجتمعهم الكبير في سبيل مبدأ آمنوا به، وصمّموا على الموت في سبيله.

* * *

ولقد عملت هذه الأخلاق عملها في إكساب الحياة الإسلاميّة سِمَة كانت قد فقدتها قبل ثورة الحسين عليه السلام بوقت طويل، ذلك هو الدور الذي غدا الرجل العادي يقوم به في الحياة العامّة بعد أن تأثّر وجدانه بسلوك الثائرين في كربلاء.

قد بدأ الحكام المجافون للإسلام يحسبون حساباً لهؤلاء الرجال العاديين، وبدأ المجتمع الإسلامي يشهد من حين لآخر ثورات عارمة يقوم بها الرجال العاديون على الحاكمين الظالمين وأعوانهم؛ لبُعدهم عن الإسلام، وعدم استجابتهم لأوامر الله ونواهيه في سلوكهم.

ثورات كانت رُوح كربلاء تلهب أكثر القائمين بها، وتدفعهم إلى الاستماتة في سبيل ما يرونه حقّاً. ولقد تحطّمت دولة أُميّة بهذه الثورات، وقامت دولة العبّاسيين بوحي من الأفكار التي كانت تُبشر بها هذه الثورات.

ولما تبيّن للناس أنّ العبّاسيين كمَنْ سبقهم لم يسكنوا بل ثاروا... واستمرت الثورات التي تقودها رُوح كربلاء بدون انقطاع ضدّ كلّ ظلم وطُغيان وفساد.

ولئن تغيّرت أساليب الصراع اليوم فإنّ روح كربلاء هي التي يجب أن تقود خُطى المسلمين في كفاحهم للمبادئ المعادية للإسلام، وهي الكفيلة بأن تقودهم - في النهاية - إلى النصر إن تمسّكوا بها واستلهموها، وكانوا لباعثيها - أهل البيت عليهم السلام - أتباعاً.

الفصل الأوّل

الظروف السياسيّة والاجتماعيّة

فَـــدَعْ عنـــكَ ادِّكـــارَكَ آلَ ســـعدى ... فـــنحنُ الأكثـــرونَ حصـــىً ومـــالا
ونحـــنُ المـــالكونَ النـــاسَ قســـرا ... نســـومُهمُ المذلّـــةَ والنّكـــالا
ونـــوردُهم حيـــاضَ الخســـفِ ذُلاً ... ومـــا نألـــوهُمُ إلاّ خبـــالا[1]

الوليد بن يزيد الأموي

بُويع بالخلافة يوم الأربعاء ٦/ربيع الثاني/سنة ١٢٥ هـ - ٧٤٣ م، وقُتل بالبَخراء (قرية من قرى دمشق) يوم الخميس ٢٨/جمادى الثانية/سنة ١٢٦ هـ - ٧٤٤ م.

---

(١) انظر: الأخبار الطوال - الدينوري/٣٤٨، تأريخ دمشق ٦٨/٢١٧، تأريخ الطبري ٥/٥٤١.

تمهيد

لعلّ أصعب ما يواجه الباحث المؤرّخ هو أن يضع خطّاً حاسماً يفصل بين مرحلتين تأريخيتين لمجتمع ما؛ فإنّ تحوّل المجتمع من حالة إلى أُخرى بطيء وتدريجي، ولذلك فمن العسير تعيين وحدة زمنية والقول بأنّها خاتمة عهد وبداية عهد جديد.

وهذه هي الصعوبة التي نواجهها هنا حين نبغي وضع تحديد زماني دقيق للمرحلة التأريخيّة التي بدأت الأمّة المسلمة تشهد فيها الانحراف الصريح عن مبادئ الإسلام، ولكنّنا نستطيع أن نشهد هذا التحوّل واضحاً منذ بداية النصف الثاني من عهد عثمان.

ومن الطبيعي إذاً أن تكون قد أعدّت ومهّدت سبيل الظهور لهذا التيّار الجديد في المجتمع أحداث وأشكال جديدة في التنظيم نشأ - هذا التيار - من تفاعلها مع ذهنية الفئات التي كانت تحكم المجتمع الإسلامي آنذاك وتقوده.

وعلينا - لكي تستوفي هذه الدراسة شروط البحث الموضوعي - ألاّ نكتفي بالظواهر فقط، بل نمضي في البحث عن جذور هذه الظواهر في تصرّفات الجماعات والرجال الذين صاغوا تأريخ هذه الفترة، مُنبّهين إلى أنّنا هنا إنّما

نبحث عن طبيعة الأحداث وآليتها، ومدى مساهمتها في التّعجيل بظهور هذا التّيار الجديد في الحياة الإسلاميّة، دون أن نعني بإصدار حكم أخلاقي على الرجال الذين صنعوا تأريخ هذه الفترة، أو الأعمال التي كوّنت هذا التأريخ، بل نهدف من بحثنا إلى اكتشاف الظروف الاجتماعيّة والإنسانيّة التي مهّدت لثورة الحسين عليه السلام ؛ لاعتقادنا بأنّ هذه الثورة كغيرها من الأحداث الاجتماعيّة الهامّة لم تكن وليدة اندفاعات وقتيّة، وإنّما كانت نتاجاً للظروف الاجتماعيّة التي سبقتها.

وإذا استعرضنا جملة الأحداث التي كان لها تأثير في التّمهيد للتّطورات الكبرى في عهد عثمان وجدناها كثيرة، ولعلّ أهمّها ثلاثة:

* **منطق السّقيفة.**
* **مبدأ عمر في العطاء.**
* **حادثة الشورى.**

ونظراً لِما لهذه الأحداث من أهميّة بالغة في تكوين هذه الفترة فإنّنا نخصّ كلّ واحد منها بشيء من الحديث.

أ - منطق السّقيفة

لا يسع الباحث أن يُنكر أنّ وفاة النبي صلى الله عليه وآله قد كشفت عن أنّ الرّوح القبلية كانت لا تزال مُتمكّنة في نفوس كثير من المسلمين، فقد عبّرت هذه الرّوح عن نفسها في أعمال الرجال الذين ظهروا على الصعيد السياسي في المدينة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله بساعات، وتحكّمت في توجيه سير الأحداث التي توالت بسرعة مذهلة.

ففي سقيفة بني سعادة اجتمع الأنصار يتداولون - بمعزل عن سائر

المسلمين - في مسألة الحكم بعد النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، ويرون أنّه من حقّهم، بينما تكتّل ضدّهم فريق من القرشيين يُنازعهم هذا الأمر، مع العلم بأنّ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ لم يُفارقهم إلاّ بعد أن عهد بالحكم من بعده إلى علي بن أبي طالب عَلَيْهِ السَّلَامُ الذي لم يشترك في أحداث السّقيفة؛ بسبب انشغاله مع الهاشميّين وبعض الأنصار بجثمان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ الذي كان لم يُدفن بعد.

ولكنّ تيّار الأحداث الجارف، وتسابق الكُتل السياسيّة إلى اغتنام فرصة الذّهول الذي أصاب أكثر المسلمين لوفاة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ من أجل الوصول إلى الحكم، حمل الجميع على تناسي عهد النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ إلى علي بن أبي طالب عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وقد تولّى عمر في خلافته تبرير هذا الموقف في عدّة أحاديث له مع عبد الله بن عباس[١].

وإذا فحصنا المنطق الذي استُخدم في الجدل الذي دار آنذاك بين المهاجرين والأنصار نجد أنّ الرّوح القبلية ظاهرة فيه ظهوراً بيّناً؛ فقد أثار كلام أبي بكر الأحقاد والإحن الكامنة بين الأوس والخزرج، وأغرى بينهما؛ حيث تحدّث عمّا بين الحيين من القتلى، وعن الجُراح التي لا تُداوى، بينما نرى أنّ الحبّاب بن المنذر - خطيب الأنصار - قد تكلّم بنفس جاهلي صرف حين تحدّث إلى الأنصار يُهيجهم ويشدّ من عزائمهم.

ولم يخرج لسان المهاجرين عن هذه الرّوح حين قال: « مَنْ يُنازعنا سلطان مُحَّد وميراثه ونحن أولياؤه وعشيرته إلاّ مُدلٍ بباطل، أو متجانفٍ لإثم، أو مُتورّط في هلكة! »[٢].

---

(١) انظر: تأريخ الطبري ٣١/٥، الكامل - لابن الأثير ٣١/٣، شرح نهج البلاغة « بتحقيق مُحَّد أبو الفضل إبراهيم » ٥٧/٢ و ٩/١٢، ٢٠ - ٢١، ٧٨، ٨٢، وفي تاريخ اليعقوبي: « وكان المهاجرون والأنصار لا يشكّون في علي عَلَيْهِ السَّلَامُ ». وقريب منه في شرح نهج البلاغة ٨٣/٢، ولاحظ للمؤلف: « نظام الحكم والإدارة في الإسلام »، منه رَحِمَهُ اللهُ.

(٢) انظر: تأريخ الطبري ٤٥٧/٢، شرح النهج - لابن أبي الحديد ٩/٦، الإمامة والسياسة ٢٥/١.

وقد سارت الأحداث في الاتّجاه الذي رسمه أبو بكر؛ فانقسم الأنصار بتأثير الرّوح القبلية التي تأججت، وانخذل سعد بن عبادة الخزرجي - مُرشحهم للخلاقة - حيث بادرت الأوس فبايعت أبا بكر[1].

هذه الرّوح القبلية التي عبّرت عن نفسها يوم السّقيفة فتحت على المسلمين باباً من أبواب الفتنة؛ فقد خرجت قريش من هذه التّجربة وهي ترى أنّ الحكم حقّ من حقوقها، وأنّ الخلافة وراثة آلت إليها بحكم كون نبيّ المسلمين منها، ممّا سبّب أسوأ الآثار في فهم القرشيين لمهمّة الحكم في الإسلام، وستظهر هذه الآثار واضحة في عهد عثمان.

ب - مبدأ عمر في العطاء

سوّى النبي ﷺ بين المسلمين في العطاء، فلم يُفضّل أحداً منهم على أحد، وجرى على مبدأ التّسوية في العطاء أبو بكر مدّة خلافته، أمّا عمر فقد جرى - حين فرض العطاء في سنة عشرين للهجرة - على مبدأ التّفضيل؛ « ففضّل السابقين على غيرهم، وفضّل المهاجرين من

(١) ممّا لا يخلو من مغزى أنّ عمر حين فرض العطاء على مبدئه في تفضيل بعض المسلمين على بعض، فضّل الأوس على الخزرج في ذلك. راجع فتوح البلدان/٤٣٧. وقد احتجّ سعد بن عبادة على توجيه الأحداث السياسيّة بهذا الشكل، فلعنه عمر وأبو بكر جهاراً، وبرءا منه، وأخرجاه من المدينة إلى الشام حيث قُتل هناك. وكان ممّا قال فيه عمر: (اقتلوا سعداً، قتل الله سعداً، اقتلوه فإنّه منافق)، منه رحمه الله.

ابن أبي الحديد شرح نهج البلاغة ١٧/٢، ٢١، الطبقات - لابن سعد ٣/ق١٤٥/٢، تأريخ ابن عساكر ٩٠/٦، كنز العمال ١٣٤/٣، السيرة الحلبيّة ٣٩٧/٣.

قريش على غيرهم من المهاجرين، وفضّل المهاجرين كافّة على الأنصار كافّة، وفضّل العرب على العجم، وفضّل الصريح على المولى »[1]، وفضّل مضر على ربيعة، ففرض لمضر في ثلاثمئة، ولربيعة في مئتين[2]، وفضّل الأوس على الخزرج[3].

وقد ولّد هذا المبدأ فيما بعد أسوأ الآثار في الحياة الإسلاميّة؛ حيث إنّه وضع أساس تكوّن الطبقات في المجتمع الإسلامي، وجعل المزية الدينية من سُبل التفوّق المادي، وزَوّد الإرستقراطية القرشية التي مكّنت لنفسها من جديد بتمكّن أبي بكر من الحكم بمبرر جديد للاستعلاء والتحكّم بمقدّرات المسلمين، فجميع اعتبارات التفضيل تجعل القرشيين أفضل في العطاء من غير القرشيين[4]، وهذا يعني أنّ قريشاً هي أفضل النّاس؛ لأنّها قريش، وكفى بهذا مبرراً للتحكيم والاستعلاء.

---

(١) انظر: الفتوح ٣٨٣/١٩، ٣٨٥، المبسوط - للسرخسي ١٣٢/٢٧، البحر الرائق ٢٠٠/٥، حاشية ردّ المحتار ٤٠٣/٤، المغني - لابن قدامة ٣٠٩/٧، نيل الأوطار ٢٣٥/٨، تهذيب الأحكام ١٤٦/٦، الغارات ٧٧/١، أخبار عمر بن الخطاب - للطنطاوي/١٢٢، فتوح البلدان - للبلاذري/٤٣٥، الفخري - للطنطقي/٦٠، الطبقات الكبرى ٢٣٣/٣، الخراج - لأبي يوسف/٥١، الكامل - لابن الأثير ٢٤٧/٢، شرح نهج البلاغة - لابن أبي الحديد ١١١/٨، ٢١٤/١٢، تأريخ الطبري ٦١٤/٣، الأحكام السلطانية/١٧٧، الأموال - لأبي عبيدة/٢٢٦، فتح الباري ٦/١٢، المصنّف - لابن أبي شيبة ٥٨٠/٨ ح١٤، فيض القدير ٦١٨/١، تفسير القرطبي ١٤ م ٢٣٩، الأحكام - لابن حزم ٧٩٨/٦، المستصفى - للغزالي/٢٨٧، الأحكام - للآمدي ٢٨٧/٣، ٤١/٤، أُسد الغابة ٧١/٤، الإصابة ٢٠٢/١.

(٢) انظر: تأريخ اليعقوبي ١٠٦/٢.

(٣) انظر: فتوح البلدان/٤٣٧.

(٤) فَهُم عرب، وقريشيون، ومضريون، ومهاجرون.

وقد كوّن هذا المبدأ سبباً جديداً من أسباب الصراع القبلي بين ربيعة ومضر، وبين الأوس والخزرج بما تضمّن من تفضيل سائر مضر على سائر ربيعة، وتفضيل الأوس على الخزرج.

ونظن أن هذا المبدأ قد أرسى أوّل أساس من أسس الصراع العنصري بين المسلمين العرب وغيرهم من المسلمين بما جرى عليه عمر من تفضيل العرب على العجم، والصّريح على المولى.

وكأنّ عمر قد أدرك في آخر أيّامه الأخطار السياسيّة والاجتماعيّة التي يؤدّي إليها مبدؤه هذا، ولعلّه رأى بعض الآثار الضّارة التي خلّفها هذا المبدأ في حياة المسلمين، ومنها هذه الظاهرة التي دلّت على تسرّب روح التحزّب والانقسام إلى مجتمع المدينة، والتي لاحظها عمر وحذّر منها بقوله: « بلغني أنّكم تتّخذون مجالس، لا يجلس اثنان معاً حتّى يُقال: من صحابة فلان، من جلساء فلان، حتّى تُحُوميت المجالس. وأيم الله إنّ هذا لسريع في دينكم، سريع في شرفكم، سريع في ذات بينكم... »[1].

ولذلك أعلن عزمه على الرجوع إلى المبدأ النبويّ في العطاء، فقال: « إنّي كنت تألّفت الناس بما صنعت في تفضيل بعض على بعض، وإن عشت هذه السّنَة ساويت بين الناس فلم أفضّل أحمر على أسود، ولا عربياً على أعجمي، وصنعت كما صنع رسول الله وأبو بكر »[2].

---

(١) انظر: تأريخ الطبري ٢٨١/٣ في أحداث سنة ثلاث وعشرين.

(٢) انظر: تأريخ اليعقوبي ١٠٧/٢، شرح نهج البلاغة (بتحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم) ١٣١/٢ - ١٣٢، ابن الطنطقي في الفخري/٧٣.

ولكنّ عمر قُتل قبل أن يرجع عن هذا المبدأ، فجاء عهد عثمان وسار عليه، فظهرت آثاره الضّارة في الحياة الإسلاميّة، وكان من أهم العوامل التي مهّدت للفتنة بين المسلمين.

ج - الشورى

وإذا كان التفضيل في العطاء قد خلق شعوراً بالامتياز والتفرّد لدى قريش فإنّ الشّورى التي اقترحها عمر قد أثارت في نفوس كثير من الأشخاص البارزين في قريش آنذاك، وفي نفوس قبائلهم وأنصارهم مطامح سياسية ما كانوا ليحلموا بها؛ فقد جعل عمر الشّورى في ستة نفر من قريش، وكلّهم مرشّح للخلافة.

وها نحن نُثبت هنا نصّاً يصوّر لنا توزيع القوى السياسيّة أمام الحدث الذي يوشك أن يقع، وهو بيعة خليفة جديد للمسلمين بعد عمر بن الخطّاب من بين هؤلاء المرشّحين، «... فخرج عبد الرحمن - ابن عوف - فمكث ثلاثة أيّام يُشاور الناس ثمّ رجع، واجتمع الناس وكثروا على الباب، لا يشكّون أنّه يبايع علي بن أبي طالب (عليه السلام)[1]، وكان هوى قريش كافّة - ما عدا بني هاشم - في عثمان، وهوى طائفة من الأنصار مع علي عليه السلام، وهوى طائفة أخرى مع عثمان، وهي أقل

(١) وليس هنا شيء جديد بالنسبة إلى موقف الناس من علي عليه السلام، فهذا هو موقفهم منه منذ السقيفة؛ ففي تأريخ اليعقوبي ٨٣/٢: « وكان المهاجرين والأنصار لا يشكّون في علي »، منه رحمه الله.

الطائفتين »[1].

فالناس يريدون علياً عليه السلام ؛ لأنّهم يخشون سلطان بني أُميّة، أمّا قريش فهي تخشى علياً وعدله واستقامته، ولعلّ كثيرين منهم كانوا على علم ببعض آرائه في المال والاجتماع والولايات، وأمّا الأنصار فكثرتهم مع علي عليه السلام ، وقلّتهم مع عثمان، وهذا طبيعي؛ بسبب خوفهم من تسلّط قريش على جميع مقدّرات الدولة.

وقد سيطر منطق السّقيفة القبلي على بني أُميّة في الجدل الذي دار في مسجد النبي صلى الله عليه وآله في المدينة، والذي سبق البيعة لعثمان وبدا واضحاً أنّ قريشاً اعتبرت الخلافة مؤسسة من مؤسساتها، وشأناً من شؤونها الخاصّة، وليس لأيّ من المسلمين أن يتقدّم في الخلافة برأي يتنافى ورغباتها.

هذا عبد الله بن أبي ربيعة بن المغيرة المخزومي يقول للمقداد بن عمرو: « يابن الحليف العسيف، ومتى كان مثلك يجترئ على الدخول في أمر قريش »[2].

وقال عبد الله بن سعد بن أبي سرح الأُموي: « أيّها الملأ، إنّ أردتم ألاّ تختلف قريش فيما بينها فبايعوا عثمان »[3].

أمّا عمار بن ياسر قال: « إنّ أردتم ألاّ يختلف المسلمون فيما بينهم فبايعوا

---

(١) انظر: شرح نهج البلاغة - لابن أبي الحديد ٩/٥٢.

(٢) انظر: المصدر السابق، تأريخ الطبري ٤/٢٣٢ - ٢٣٣.

(٣) انظر: المصدران السابقان.

علياً »[1].

فقد آلت الشّورى إذاً في النتيجة إلى استيلاء الأُمويّين - في شخص عثمان - على الحكم، ولكنّها خلقت مواقف مختلفة من هذه النتيجة، حيث بدأ التفكير في الخلافة يتسرّب إلى نفوس هؤلاء المرشّحين من رجال الشّورى، وغدا كلّ واحد منهم يرجوها لنفسه بعد أن رشّحه لها عمر، وطمح إلى الخلافة رجال غير رجال الشّورى من قريش؛ لأنّهم رأوا أنّ بعض مَنْ رشّحهم عمر لا يفضلونهم في شيء، بل ربّما امتازوا عليهم في أشياء كثيرة.

وكان لنظام الشّورى أسوأ الأثر في نفسيّات الأنصار، هؤلاء الذين وعدوا في السّقيفة أن يكونوا وزراء وشركاء في الحكم، وإذا بهم يُحرمون من كلّ شيء حتّى من حقّ المشورة.

أضف إلى هذا: إنّ النتيجة التي آلت إليها لم تكن مُرضية لهم؛ فقد رأوا في انتصار الأُمويِّين انتصار لأعدائهم القدماء من مشركي مكّة.

وقد عبّر علي بن أبي طالب عليه السلام عن عدم رضاه عن هذه النتيجة، وتسليمه بالأمر الواقع قائلاً: « لقد علمتم أنّي أحقّ الناس بها من غيري، ووالله لأُسلمنّ ما سلمت أمور المسلمين، ولم يكن فيها جوز إلاّ عليّ خاصّة »[2].

بينما أخذ الطّامحون إلى الخلافة يجمعون الأنصار حولهم في الخفاء، ويستعينون على ذلك بأموالهم وقبائلهم، وإنشاء علاقات المصاهرة مع القبائل الأخرى، حتّى إذا تقدّم العمر بخلافة عثمان ظهرت هذه الأحزاب إلى العلن،

---

(١) انظر: المصدران السابقان.

(٢) انظر: نهج البلاغة/الخطبة ٧٣.

تعمل في سبيل هدفها الفريد.

وكانت عاقبة الشّورى أنّها سبّبت نُشوء هذه الأحزاب القائمة على الولاء لأشخاص مُعيّنين ذوي أهداف شخصيّة في الوصول إلى الحكم، مستغلّة أسباب الشّكوى والاستياء من عثمان وبطانته وولاته على الأمصار.

وقد روى ابن عبد ربّه حديثاً لمعاوية بن أبي سفيان اعترف فيه بأنّه: « لم يُشتّت بين المسلمين ولا فرّق أهواءهم إلاّ الشّورى التي جعلها عمر في ستة نفر... لم يكن رجل منهم رجاها لنفسه، ورجاها له قومه، وتطلّعت إلى ذلك نفسه »[1].

هذه هي الأحداث التي نرى أنّها تتّصل اتصالاً وثيقاً بالفتنة التي أصابت المسلمين في عهد عثمان، فقد تفاعلت هذه الأحداث فيما بينها، وتفاعلت مجتمعة مع أسلوب عثمان في سياسة المال، والإدارة، والاجتماع، فكان من ذلك جميعاً الانحراف الصريح عن مبادئ الإسلام الذي وصل بالمأساة إلى قمّتها فدفع بالمسلمين إلى الثورة، وانتهى بهم إلى شرّ ما كانوا يحذرون.

---

(١) انظر: العقد الفريد - بتحقيق محمّد سعيد العريان ٥/٣١ - ٣٢.

وسار عثمان حين ولي الخلافة على سياسة في المال لم يعهدها المسلمون ممّن تقدّمه، ولم يألفوها؛ فقد راح يغدق الهبات الضخمة على آله وذويه وغيرهم من أعيان قريش، وعلى بعض أعضاء الشّورى بصورة خاصّة.

ولو كانت هذه الهبات من أمواله الخاصّة لما أثارت اعتراض أحد، ولكنّها كانت من بيت المال الذي يشترك فيه المسلمون جميعاً. وقد سار عمّال عثمان في أنحاء الخلافة سيرته في المدينة، فانكفؤوا على بيوت الأموال المحلية ينفقونها على آلهم وأنصارهم والمقرّبين إليهم[١].

وقام عثمان بإجراء مالي فتح به للطّبقة الثريّة التي كان يخصّها بهباته وعطاياه أبواباً من النشاط المالي، وأتاح لهم فرص التّمكين لنفسها وتنمية ثرواتها، وذلك حين اقترح أن ينقل الناس فيهم من الأرض إلى حيث أقاموا؛ فلمَنْ كان له أرض في العراق، أو في الشام، أو في مصر أن يبيعها ممّن له أرض بالحجاز، أو غيره من بلاد العرب.

وقد سارع الأثرياء إلى الاستفادة من هذا الإجراء، فاشتروا بأموالهم المكدّسة أرضين في البلاد المفتوحة، وبادلوا

---

(١) انظر: مروج الذهب ٣٤١/٢، أنساب الأشراف ٢٥/٥ - ٢٨، ٤٨، ٥٤، وغيرهما.

بأرضهم الحجاز أرضين في البلاد المفتوحة، وجلبوا لها الرقيق والأحرار يعملون فيها ويستثمرونها، وبذلك نمت هذه الثروات نمواً عظيماً، وازدادت هذه الطّبقة الطّامحة إلى الحكم والطّامحة إلى السيادة قوّة إلى قوّتها.

وقد ذكر المسعودي وغيره بعض الأمثلة على هذه الثروات الضّخمة في ذلك الوقت، « فقد بلغت ثورة الزبير خمسين ألف دينار، وألف فرس، وألف عبد، وضياعاً وخططاً في البصرة، والكوفة، ومضر، والإسكندرية.

وكانت غلّة طلحة بن عبيد الله من العراق كلّ يوم ألف دينار، وقيل أكثر، وبناحية الشّراة أكثر ممّا ذكرنا. وكان على مربط عبد الرحمن بن عوف مئة فرس، وله ألف بعير، وعشرة آلاف شاة، وبلغ ربع ثمن ماله بعد وفاته أربعة وثمانين ألفاً.

وحين مات زيد بن ثابت خلّف من الذهب والفضة ما كان يُكسر بالفؤوس غير ما خلّف من الأموال والضياع بقيمة مئة ألف دينار. ومات يعلى بن مُنبه وخلّف خمسمئة ألف دينار، وديوناً، وعقارات وغير ذلك ما قيمته ثلاثمئة ألف دينار.

أمّا عثمان نفسه فكان له يوم قُتل عند خازنه مئة وخمسون ألف دينار، ومليون درهم، وقيمة ضياعه بوادي القرى، وحنين وغيرهما مئة ألف دينار، وخلّف خيلاً كثيراً وإبلاً ».

ثمّ قال المسعودي بعد ذلك: « وهذا باب يتّسع ذكره، ويكثر وصفه فيمَنْ تملّك الأموال في أيّامه »[1].

وقد جدّت إلى جانب هذه الطّبقة الثريّة طبقة أُخرى فقيرة، لم تملك أرضاً ولا مالاً، وليس لها عطاءات ضخمة، تلك هي طبقة الجنود المقاتلين وأهلهم وذراريهم.

وقد تكوّنت هذه الطبقة باستئثار عثمان وعمّاله بالفيء والغنائم لأنفسهم والمقرّبين منهم، وحرمان المقاتلين منها؛ مدّعين أنّ الفيء لله وليس للمحارب إلاّ أجر قليل يُدفع إليه[2].

أمّا السّواد، سواد العراق، فهو - على حدّ تعبير سعيد بن العاص والي عثمان على الكوفة - « إنّما السّواد بُستان لقريش تأخذ منه ما شاءت، وتترك منه ما شاءت »[3].

وأمّا أموال بيت المال فقد قال عثمان نفسه عنها: « لنأخُذنّ حاجتنا من هذا الفيء وإن رغمت أُنوف أقوام »[4].

---

(١) انظر: مروج الذهب ١/٣٤، ٢/٣٤١ - ٣٤٣، الطبقات الكبرى ٣/٧٨، ١٣٦، تأريخ الأمم والملوك ٥/١٣٤.

(٢) انظر تاريخ الإسلام - حسن إبراهيم حسن ١/٣٥٨.

(٣) انظر: تأريخ الطبري ٣/٣٦٥، الكامل في التأريخ ٣/١٣٧، تأريخ مدينة دمشق ٢١/١١٤، الطبقات الكبرى ٥/٣٢، شرح نهج البلاغة - لابن أبي الحديد ٣/١٢٩، مروج الذهب ٢/٣٤٦.

(٤) انظر شرح نهج البلاغة بتحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم ٣/٤٩.

ومضت الأيّام، والأحداث تزيد الهُوّة اتّساعاً بين هاتين الطبقتين؛ فبينما تزداد الطّبقة الإرستقراطية الثريّة ثراء وتسلّطاً، وتُمعن في اللهو والبطالة والعبث بحيث يُشارك بعض أولاد الخليفة نفسه في اللهو الحرام والمجون[1]، تُزداد الطّبقة الأُخرى فقراً وإحساساً بهذا الفقر.

ولم يكن المسلمون بحاجة إلى وقت طويل ليتبيّن لهم أنّهم حين بايعوا عثمان قد سلّموا السّلطان الفعلي على المسلمين إلى آله وذوي قرابته من بني أُميّة وآل أبي معيط؛ فقد اتّضح في وقت مبكّر أنّ عثمان ليس إلاّ واجهة يكمن خلفها الأمويّون. وسرعان ما عزّزت الأحداث هذا؛ وذلك إنّ عثمان أسند إلى آله وذويه الولايات الكبرى في دولة الخلافة، وهي: البصرة والكوفة، والشام ومصر.

وهذه الولايات الكبرى الأربع هي الولايات ذات المنزلة العظيمة في الحرب والاقتصاد والاجتماع. فهي مركز الثروة المالية، والزراعية لدولة الخلافة منها تُحمل الأموال والأقوات، وهي مركز تجمّع الجيوش الإسلاميّة الوافدة من شتى بقاع الدولة، وهي مركز عمليات الفتح الكبرى التي كانت إذ ذاك لا تزال في أوجها، وما عدا هذه الولايات فذو شأن ثانوي لا يُؤبه له، ولا يُلتفت إليه.

لقد ولّى عثمان على البصرة ابن خاله عبد الله بن عامر بن كريز، وعمره خمس وعشرون سنة، وولّى على الكوفة أخاه الوليد بن عقبة بن أبي معيط، ثمّ عزله تحت ضغط الرأي العام بعد أن ثبت عليه شرب الخمر والتهتّك، وولّى مكانه سعيد بن العاص، وكان معاوية عاملاً لعمر على دمشق والأردن فضمّ إليه عثمان ولاية حمص، وفلسطين، والجزيرة، وبذلك مدّ له في أسباب السّلطان إلى أبعد

---

(١) « قُتل عثمان وابنه الوليد - وكان صاحب شراب وفتوّة ومجون - وهو مُخلَق الوجه، سكران، عليه مصبغات واسعة ». انظر: مروج الذهب ٣٤١/٢، المعارف - لابن قتيبة/٢٠٢ (دار الكتب/١٩٦٠).

مدى مُستطاع، وولّى مصر أخاه من الرضاعة عبد الله بن سعد بن أبي سرح.

كان هؤلاء الولاة جميعاً من قرابة عثمان، ولم يكن سلوكهم الديني أو الإداري أو هما معاً في أمصارهم ومع رعيتهم مُرضياً ومقبولاً؛ فقد كانوا جميعاً من قريش، وكانوا في تصرّفاتهم لا يخفون قبليتهم وتعصّبهم على غير قريش من قبائل العرب؛ ففي الكوفة تجبّر سعيد بن العاص وتعصّب لقريش، وقال: « إنّما السّواد بُستان لقريش تأخذ منه ما شاءت، وتترك منه ما شاءت »[١].

فلمّا اعترضه المسلمون من غير قريش نفاهم إلى الشام، وإذا بمعاوية يناظرهم في فضل قريش وتقدّمها على سائر المسلمين، فلمّا أنكروا عليه ذلك نفاهم إلى الجزيرة - وأميرها من قبل معاوية عبد الله بن خالد بن الوليد المخزومي - فأذلّهم، وأظهر لهم سيادة قريش بامتهانه لهم، وتحقيره لشأنهم، وحطّه من مقامهم.

وفي مصر قسا عبد الله بن سعد في جباية الخراج، فظلم وأسرف في الظلم، ثمّ أظهر من العصبيّة لقريش ما أثار غير قريش من العرب المسلمين ودفعهم إلى أن يشكوه إلى عثمان، فلمّا كتب إليه عثمان يأمره بالإقلاع عمّا هو عليه عدا على الشهود فعاقبهم، وضرب رجلاً منهم حتّى قتله.

ولم يكن ولاة عثمان هؤلاء من ذوي السابقة في الدين والجهاد في الإسلام، وإنّما كانوا متّهمين في دينهم، بل كان فيهم من أمره في الفسق ورِقّة الدين معروف مشهور.

كان فيهم عبد الله بن سعد الذي بالغ في إيذاء النبي ﷺ والسُّخر منه، وبالغ في الهُزء بالقرآن حتّى نزل القرآن بكفره، والوليد بن عقبة ممّن أمره في

(١) انظر: تأريخ الطبري ٣/٣٦٥، الكامل في التأريخ ٣/١٢٧، تأريخ مدينة دمشق ٢١/١١٤، الطبقات الكبرى ٥/٣٢، شرح نهج البلاغة - لابن أبي الحديد ٣/١٢٩، مروج الذهب ٢/٣٤٦.

الفُسق معروف مشهور، وقد نزل فيه قرآن يُعلن فسقه.

وكان المسلمون - أعيانهم وعامّتهم - يُراجعون عثمان في شأن هؤلاء الولاة من أقاربه، ويطلبون منه عزلهم فلا يعزلهم، ولا يسمع فيهم أيّة شكوى إلاّ كارهاً.

هذه السياسة التي سلكها عثمان في الولايات أثارت عليه وعلى عهده موجة عامّة من السّخط بين المسلمين؛ لِما رأوه فيه من عصبية قبلية يمارسها هو وولاته من قريش.

وأثارت عليه سخط المسلمين والمعاهدين من غير العرب؛ لِما عوملوا به من امتهان وقسوة من قبل ولاته وعمّاله، وأثارت عليه سخط الصحابة؛ لأنّه ولّى أمور المسلمين وأموالهم وأبشارهم هؤلاء الغُلمة القرشيين الذين لا يحترمون الدين ولا يأبهون له، والذين يظلمون دون أن يَردوا من قِبل عثمان.

وأثارت عليه سخط الأنصار؛ لأنّهم حُرموا من الولايات بعد أن وعُدوا بأن يكونوا شركاء في الحكم، ولم ينس الأنصار يوماً أنّ سيوفهم وقتلاهم وأموالهم هي التي بوّأت قريشاً هذه المنزلة.

وأثارت سخط شباب قريش والطامحين إلى الحكم من أعضاء الشورى؛ لأنّهم أُهملوا ولم ينالوا ولاية من هذه الولايات.

موقف عثمان من معارضيه

ولقد كان سُلوك عثمان إزاء مُعارضي سياسته في المال والإدارة من كبار الصحابة سبباً في مُضاعفة النّقمة عليه في قريش وفي عامّة المسلمين، وعاملاً مهمّاً من عوامل تعقيد الأزمة التي عاناها عثمان وعاناها المسلمون في عهد عثمان؛ فقد عارض سياسة عثمان في المال والإدارة عبد الله بن مسعود الهذلي حليف بني زهرة، وكان خازناً لبيت المال، فاعترضه عثمان بقوله: « إنّما أنت خازن لنا ».

ثمّ اشتدّت معارضة ابن مسعود فأمر عثمان بضربه حتّى كسر بعض أضلاعه[1]، وعارضه أبو ذرّ الغفاري فنفاه إلى الشام[2]، فلم يكُفّ عن المعارضة، بل

---

(١) أبو عبد الرحمن، وكان إسلامه قبل إسلام عمر بن الخطاب بزمان، وشهد بيعة الرضوان، وكان على قضاء الكوفة. انظر: المعارف - لابن قتيبة/٢٤٩، أُسد الغابة ٣/٣٨٤، سيرة ابن هشام ١/٣١٤، السيرة النبوية ٢/٨٢، مستدرك الحاكم ٣/٣٣٧، ٣٤٥، تأريخ الطبري ٥/٨٠، ٩٤، مسند أحمد ٥/١٥٥، ١٦٦، ٦/٤٥٧، كنز العمال ٦/٢٩، ١٧٠، العقد الفريد ٣/٩١، تأريخ أبي الفداء ١/١٦٨، الإصابة ٣/٦١٩، الطبقات - لابن سعد ٥/٨، أنساب الأشراف ٥/٢٨.

(٢) أبو ذرّ الغفاري: هو جندب بن السكن، ولقبه برير، وقيل: اسمه بُريد بن جنادة، وقيل: اسمه جندب بن جنادة وهو من غفار قبيلة من كنانة، وهو: غفار بن مُليل بن حمزة بن بكى بن عبد مناة بن كنانة بن خُزيمة.

قدم على رسول الله ﷺ وأسلم، ورجع إلى بلاد قومه فأقام، ثم رجع إلى رسول الله ﷺ، ولكنّ عثمان نفاه إلى الربذة، وليس له عقب. كان رابع أربعة سبقوا إلى الإسلام. انظر الطبقات الكبرى - لابن سعد ٤ ق١/١٦١، مسند أحمد ٢/١٦٣، ١٧٥، ٢٢٣، ٥/١٤٧، ١٥٥، ١٥٩، ١٦٥ - ١٦٦، ١٧٢، ١٧٤، ٣٥١، ٣٥٦، ٦/٤٤٢، المستدرك ٣/٣٤٢، صحيح البخاري - مناقب أبي ذرّ، صحيح البخاري وصحيح مسلم في باب المناقب، سنن ابن ماجة - الباب الأوّل من المقدّمة، مسند الطيالسي ح٤٥٨، التقريب ٢/٤٢٠. روى عنه أصحاب الصحاح (٢٨١) حديثاً.

أمدته أساليب معاوية في الناس بمادة جديدة، فأخذ ينتقد أساليب معاوية في إنفاق الأموال العامّة، وصادف كلامه هوى في نفوس رعية معاوية، فكتب بشأنه إلى عثمان، فأرسل إليه عثمان: « أرسل إليّ جندباً - وهذا اسم أبي ذرّ - على أغلظ مركب وأوعره ».

فوصل أبو ذرّ إلى المدينة وقد تآكل لحم فخذيه من عنف السير، ولكنّه لم يكُفّ عن المعارضة أيضاً، فنفاه عثمان إلى الربذة، ولبث فيها حتّى مات غريباً وحيداً سنة ٣٢ هـ[١].

وعارضه عمّار بن ياسر حليف بني مخزوم، فشتمه عثمان وضربه حتّى غُشي عليه سائر النهار، ولكنّ هذا العنف لم يثنِ عماراً فاستمر في معارضته، فشتمه عثمان وأمر به فطرح على الأرض، ووطئه برجليه وهما في الخف حتّى أصابه الفتق[٢].

---

(١) انظر: المصابيح - لأحمد بن إبراهيم/٢٨٨.

(٢) انظر: المصدر نفسه، العقد الفريد ٧٧/٣، ٩١، السيرة النبوية ٨٢/٢، الطبعة الثانية مصر، شرح النهج ٦٦/١، ٢٣٣، مستدرك الحاكم ٣٣٧/٣، ٣٤٥، ابن الأثير ٦٥/٣، ٧٣، تأريخ الطبري ٨٠/٥، ٩٤، مسند أحمد ١٥٥/٥، ١٦٦، ٤٥٧/٦،كنز العمال ١٧٠/٦، المعارف - لابن قتيبة/٨٤، ابن كثير ٤٥٢/٧، تأريخ أبي الفداء ١٦٨/١، الإصابة ٦١٩/٣، سنن البيهقي ٦١/٨، الطبقات - لابن سعد ٨/٥، أنساب الأشراف ٢٨/٥، مرآة الجنان ٨٥/١، كلّ هذه المصادر وغيرها نقلت لنا هذه المساوئ العثمانية بشكل مفصّل، فمَنْ أراد المزيد فليراجع.

وعارضه غير هؤلاء من الصحابة من المهاجرين والأنصار في الأحداث التي كان يقدم عليها، والسياسة التي كان ينتهجها، فلم يسمع منهم ولم يستجيب لهم.

وقد كانت هذه المعارضة تشيع في المسلمين فينتظرون من عثمان أن يستجيب لها؛ لأنّها كانت معارضة قائمة على إدراك حاجات المجتمع، وكانت تعبيراً عن عدم رضا المسلمين عن السياسة التي كانوا يُساسون بها، ولكنّهم بدل ذلك كانوا يرون ويسمعون أنّ عثمان وآله قد نكّلوا بالمعارضين هذا التنكيل الشديد، ومسّوهم بهذا الأذى البالغ، ولم يستجيبوا إلى شيء ممّا دعوا إليه.

وقد أثار موقفه هذا سخط عامّة المسلمين؛ فهؤلاء المعارضون من أعلام الصحابة وأركان الدعوة، يمتهنهم عثمان ويضطهدهم لدعائهم إيّاه إلى الإصلاح في الوقت الذي يسمع فيه من مروان بن الحكم وأشباهه من بني أُميّة وأنصارهم من مسلمة الفتح الطلقاء، الذين ليس لهم سابقة ولا مكانة في الإسلام.

وهؤلاء المعارضون كانوا يعبّرون بمعارضتهم هذه عن إرادة جميع المسلمين الذي آذتهم سياسة عثمان في كراماتهم وأرزاقهم، ولم يُفسّر المسلمون موقف عثمان من المعارضين إلاّ بأنّه عازم على المضي في سياسته دون الالتفات إلى أيّ نُصح أو تحذير.

وإلى جانب هذه المعارضة الصادقة المخلصة، الهادفة إلى خير المسلمين

جميعاً كانت توجد معارضة أخرى مدفوعة بأسباب مُغايرة، وتستهدف نتائج مُغايرة.

وقد رأى زعماء هذه المعارضة في فساد الأوضاع العامّة، وشيوع التذمّر والنقد فرصة يستغلّونها لاستعجال نهاية عهد عثمان التي تُمكّنهم من الوصول إلى مآربهم، فأخذوا يُساهمون في نشر رُوح التذمّر وتعميقها.

وقد مكّن عثمان بسياسته الإدارية لهذه الطائفة من معارضيه أسباب القوّة والنفوذ؛ وذلك حين أطلق لها أن تُنمي ثرواتها إلى أبعد مدى بإجرائه الذي قدّمنا الحديث عنه في الأراضي، وتكوين الإقطاعات الضّخمة، وحين أطلق لها أن تُغادر المدينة إلى البلاد المفتوحة؛ حيث راح أفرادها يستكثرون لأنفسهم من الأموال، ويستكثرون من الأتباع، ويُمنّون أنفسهم بالوصول إلى الخلافة، ويمنّيهم بذلك أتباعهم وقبائلهم.

وقد أشار الطبري في أحداث سنة خمس وثلاثين إلى هذه الحقيقة فقال: «كان عمر بن الخطّاب قد حجر على أعلام قريش من المهاجرين الخروج في البلدان إلاّ بإذن وأجل[١].

فلمّا ولي عثمان لم يأخذهم بالذي كان يأخذهم به عمر، فانساحوا في البلاد، فلمّا رأوها ورأوا الدنيا ورآهم الناس انقطع مَنْ لم يكن له طول ولا مزية في الإسلام فكان مغموراً في الناس، وصاروا أوزاعاً إليهم، وأمّلوهم وتقدّموا في ذلك، فقالوا يملكون فنكون قد عرفناهم، وتقدّمنا في التقرّب والانقطاع إليهم، فكان ذلك أوّل وهن دخل على

(١) قال عمر لما استأذنه الزبير بن العوام في الغزو « ها إنّي ممسك بثياب هذا الشعب أن يتفرّق أصحاب محمّد في الناس فيُضلّوهم » انظر: شرح نهج البلاغة ٢٠/٢٠. منه رحمه الله.

الإسلام، وأوّل فتنة كانت في العامّة ليس إلاّ ذلك »[1].

وقال في موضع آخر: «... فلمّا ولي عثمان خلى عنهم، فاضطربوا في البلاد، وانقطع إليهم الناس... »[2].

---

(١) انظر: تأريخ الطبري ١٣٤/٥.

(٢) انظر: تأريخ الطبري ١٣٤/٥.

نتائج سياسة عثمان

فإذا لاحظنا أنّ عثمان فتح باب الهجرة أمام قريش فانساحوا في البلاد يستصلحون الأموال، ويُكوّنون الثروات، ويجمعون حولهم الأنصار بالمال، والأصهار إلى قبائل العرب، وبسمعتهم الدينية التي جاءتهم من صحبتهم للنبي ﷺ ، وسبقهم إلى الإسلام، وجهادهم في سبيله.

وإنّ سلوك عمّال عثمان على الأمصار الكبرى، وسلوك عثمان نفسه في المدينة مع ناصحيه والمشفقين عليه، وعلى الناس من سلوكه، كان يُقدّم للمسلمين أسباب التذمّر والشكوى، وأنّ هؤلاء الصحابة من قريش كانوا يرون هذا ويسمعونه ويشاركون فيه، فإذا أضفنا إلى ذلك ما خلّفه تدبير الشّورى لدى هؤلاء من طموح إلى الخلافة، وسعي في سبيلها... إذا لاحظنا هذا كلّه اتّسقت لأعيننا الخطوط البارزة، والعوامل الأساسية في ثورة المسلمين على عثمان وعلى عهده.

طبقة ارستقراطية دينية كوّنتها السقيفة بما بعثت من مركز قريش، غدت - بالإضافة إلى ارستقراطيتها الدينية - تتمتّع بثروات طائلة بسبب مبدأ التفضيل في العطاء، وسياسة عثمان في المال، والأرض، والهجرة، وقد كوّن مبدأ الشّورى في نفوس كثير من أفرادها الطموح إلى الحكم ممّا دفعهم إلى استغلال كلّ الظروف

المواتية للوصول إلى هذا الهدف، يُقابل هذه الطبقة طبقة المحاربين والمسلمين الجُدد المحرومة من كافة الامتيازات، والتي كانت أسباب تذمّرها مُتوفّرة.

لقد كانت جماهير المحاربين هي مادة الثورة، أمّا وقودها فهو تصرّفات عثمان وولاته وآل بيته، وأمّا الذي أجّجها فهم أصحاب المصلحة فيها. هم هؤلاء الزعماء الذين أوتوا من الطموح ما جعل الخلافة هدفهم، ومن المال والمنزلة الدينية ما مكّنهم من جمع الأنصار حولهم، ومن سوء الأوضاع ما سهّل عليهم أن يعدّوا الناس بخير ممّا هم فيه.

* * *

وقد تمخّضت هذه الملابسات والظروف السيئة عن حركة عامّة، إن فقدت النظام بالمعنى الحزبي الدقيق، فإنّها لم تفقد وحدة الأفكار الدافعة، والأهداف المشتركة.

وقد سلك عثمان وبطانته من الأُمويِّين والمنتفعين تجاه هذه الحركة سلوكاً بعيداً عن الحكمة والعدل؛ فبدلاً من أن تُجاب مطالب الثوّار رُدوا بعنف، واستُهين بهم، وجوبهوا بسياسة قاسية هي هذه السياسة التي تمخّض عنها مؤتمر عثمان مع عمّاله على الأمصار، والتي قدّم لنا الطبري صورة عنها: «... فقال له عبد الله بن عامر: رأيي يا أمير المؤمنين أن تأمرهم بجهاد يشغلهم عنك، وأن تُجمرهم في المغازي حتّى يذلّوا لك، فلا يكون همّة أحدهم إلاّ نفسه، وما هو فيه من دُبرة دابته، وقمّل فروه...

فردّ عثمان عمّاله على أعمالهم،

وأمرهم بالتّضييق على مَنْ قبلهم، وأمرهم بتجمير[1] الناس في البعوث، وعزم على تحريم[2] أُعطياتهم؛ ليطيعوه ويحتاجوا إليه »[3].

ولكنّ هذه الإجراءات العنيفة زادت نار المقاومة اشتعالاً، بدل أن تُخفّف من شدّتها؛ فقد رأى هؤلاء المحاربون الفقراء أنّهم خُدعوا، فتكتّلوا من الكوفة والبصرة، ومصر والحجاز، ومن هنا وهناك للقيام بمسعى جماعي لإرغام عثمان على تغيير بطانته التي اعتبروها مسؤولة عن كثير من المآسي، وتبديل عمّاله الذي أساؤوا السيرة، وجاروا على الرعية... وتغيير سياسته المالية.

وبينما كان علي بن أبي طالب عليه السلام يُسفر بين الثوار وبين الخليفة، فيُهدئ من ثورة أُولئك، وينبّه عثمان وينصحه بالاستقامة والعدل، نرى أنّ الآخرين من الطامحين إلى الخلافة ينتهزون فرصة ثورة الجماهير للوصول إلى هدفهم، فيؤجّجون الثورة، ويزيدون النّقمة اشتعالاً، ويبذلون الأموال الطائلة في تمويل الثورة، واصطناع قادتها، وتسليح أفرادها.

وبلغت المأساة قمّتها بمقتل عثمان.

---

(١) جمر الناس: جمعهم. وجمر الجيش: حبسهم في أرض العدو ولم يقفهم (قاموس). انظر: لسان العرب ١٤٦/٤. يريد عثمان من عمّاله أن يجمعوا الناس في البعوث العسكرية الطويلة الأمد، لا يردّوهم إلى أوطانهم.

(٢) حرم: منع.

(٣) انظر: تأريخ الطبري ٣٧٣/٣ - ٣٧٤.

موقف الإمام علي عليه السلام من الحكم بعد عثمان

وجاء الناس إلى الإمام علي عليه السلام يطلبون منه أن يلي الحكم، ولكنّه أبى عليهم ذلك؛ لا لأنّه لم يأنس من نفسه القوّة على ولاية الحكم وتحمّل تبعاته، فقد كان عليه السلام على تمام الأُهبة لذلك، كان قد خبر المجتمع الإسلامي من أقطاره، وخالط مُختلف طبقاته، وراقب حياتها عن كثب، ونفذ إلى أعماقها، وتعرّف على الوجدان الطبقي الذي يشدّها ويجمعها.

وقد مكّنه من ذلك كلّه المركز الذي كان يتمتّع به من النبي صلى الله عليه وآله ، فهو وزيره ونجيّه، وأمين سرّه، وقائد جيوشه، ومنفّذ خططه، ومعلن بلاغاته... هذه المنزلة الفريدة التي لم يتمتّع بها أحد من الصحابة أعدّته إعداداً تامّاً لمهمّة الحكم.

وقد كان النبي صلى الله عليه وآله يبتغي من وراء إناطة هذه المهام كلّها به إعداده للمنصب الإسلامي الأوّل ليصل إليه وهو على أتمّ ما يكون أهلية واستعداداً.

ولقد غدا من نافلة القول أن يُقال: إنّه هو الخليفة الذي كان يجب أن يلي حكومة النبي صلى الله عليه وآله في المجتمع الإسلامي، وإذا لم يقدر له أن يصل إلى الحكم بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله فإنّه لم ينقطع عن الحياة العامّة، بل ساهم فيها مساهمة خصبة؛ فقد كان أبو بكر، ثمّ عمر، ومن بعدهما

عثمان لا يسعهم الاستغناء عن آرائه في القضاء والسياسة والحرب، وخاصّة في خلافة عثمان؛ فقد كان على أتمّ الصّلة بالتيّارات التي تمخُر المجتمع الإسلامي، ولكنّ عثمان لم ينتفع كثيراً بالتوجيه الذي كان الإمام يُقدّمه؛ لأنّ بطانته المعروفة كانت تأبى عليه ذلك.

ولقد رأى أنّ المجتمع الإسلامي قد تردّى في هوّة من الفوارق الاجتماعيّة والاقتصادية التي زادت عمقاً وحدّة، بسبب السياسة غير الحكيمة التي اتّبعها ولاة عثمان مدّة خلافته، ورأى أنّ التوجيهات الدينية العظيمة التي عمل النبي صلى الله عليه وآله طيلة حياته على إرساء أصولها في المجتمع الإسلامي الناشئ قد فقدت فاعليتها في توجيه حياة الناس.

وإنّما صار الناس إلى واقعهم هذا؛ لأنّهم فقدوا الثقة بالقوّة الحاكمة التي تُهيمن عليهم، فراحوا يسعون إلى إقرار حقوقهم وصيانتهم بأنفسهم، وهكذا انقطعت الصلة بينهم وبين الرموز المعنوية التي يجب أن تقود حياتهم.

والسبيل إلى تلافي هذا الفساد هو إشعار الناس أنّ حكماً صحيحاً يهيمن عليهم لتعود إلى الناس ثقتهم الزائلة بحكّامهم، ولكنّ هذا لم يكن سهلاً قريب الجنى، فثمّة طبقات ناشئة لا تُسيغ مثل هذا؛ ولذلك فهي حريّة بأن تقف في وجه كلّ منهج إصلاحي ومحاولة تطهيرية.

وإذاً فقد كان علي عليه السلام يُدرك - نتيجة لوعيه العميق للظروف الاجتماعيّة والنفسية التي كانت نجاح المجتمع الإسلامي في ذلك الحين - أنّ المدّ الثوري الذي انتهى بالأمور إلى ما انتهت إليه بالنسبة إلى عثمان يقتضي عملاً ثورياً يتناول دعائم المجتمع الإسلامي من النواحي الاقتصادية والاجتماعيّة والسياسية.

ولما كانت البيعة عقداً حقيقياً يستتبع مسؤوليات وواجبات وحقوقا

لكلّ من الراعي والرعية[1]؛ لذلك امتنع من الاستجابة الفورية لضغط الجماهير والصحابة عليه بشأن قبول بيعتهم له بالخلافة.

فقد أراد أن يضعهم أمام اختبار يكشف به مدى استعدادهم لتحمّل أسلوب الثورة في العمل؛ لئلاّ يروا فيما بعد أنّه استغفلهم، واستغلّ اندفاعهم الثوري حين يكشفون صعوبة الشروط التي يجب أن يُناضلوا الفساد الذي ثاروا عليه في ظلّها.

من أجل هذا قال لهم: « دَعُونِي وَالْتَمِسُوا غَيْرِي؛ فَإِنَّا مُسْتَقْبِلُونَ أَمْراً لَهُ وُجُوهٌ وَأَلْوَانٌ، لا تَقُومُ لَهُ الْقُلُوبُ، وَلا تَثْبُتُ عَلَيْهِ الْعُقُولُ، وإِنَّ الآفَاقَ قَدْ أَغَامَتْ، وَالْمَحَجَّةَ قَدْ تَنَكَّرَتْ. وَاعْلَمُوا أَنِّي إِنْ أَجَبْتُكُمْ رَكِبْتُ بِكُمْ مَا أَعْلَمُ، وَلَمْ أُصْغِ إِلَى قَوْلِ الْقَائِلِ وَعَتْبِ الْعَاتِبِ، وَإِنْ تَرَكْتُمُونِي فَأَنَا كَأَحَدِكُمْ، وَلَعَلِّي أَسْمَعُكُمْ وَأَطْوَعُكُمْ لِمَنْ وَلَّيْتُمُوهُ أَمْرَكُمْ، وَأَنَا لَكُمْ وَزِيراً خَيْرٌ لَكُمْ مِنِّي أَمِيراً »[2]. ولكنّ الناس أبَو عليه إلاّ أن يلي الحكم، فاستجاب لهم.

وما أن بويع حتّى عالنهم بسياسته التي قرّر أن يتّبعها من أجل تحقيق الأهداف التي قبل الحكم لأجلها. ولم تكن هذه السياسة شيئاً مرتجلاً اصطنعه

---

(١) وقد حدّد الإمام علي عليه السلام هذه الحقوق في مناسبة قاسية من مناسبات حياته، وذلك بعد صفين، في خطبة له: « أيّها الناس، إنّ لي عليكم حقّاً، ولكم عليّ حقّ؛ فأمّا حقّكم عليّ فالنصيحة لكم، وتوفير فيئكم عليكم، وتعليمكم كيلا تجهلوا، وتأديبكم كيما تعلموا. وأمّا حقّي عليكم، فالوفاء بالبيعة، والنصيحة في المشهد والمغيب، والإجابة حين أدعوكم، والطاعة حين آمركم ».

انظر: نهج البلاغة/الخطبة ٣٤، فالحقوق متبادلة بين الراعي والرعية، وهذا التبادل طبيعي يرتبط بشخصيّة الاثنين تماماً كما أنّه شرعي؛ لأنّ واضع الشريعة هو خالق الطبيعة.

(٢) انظر: نهج البلاغة/الخطبة ٩٢.

لنفسه يوم ولي الخلافة، وإنّما كانت منهجاً مدروساً، ومنتزعاً من الواقع الذي كان يعانيه المجتمع الإسلامي آنذاك، ومعدّة للسّير بهذا المجتمع إلى الأمام، ومُهيّأة لتنيل هذا المجتمع المطامح التي كان يحلم بها ويصبو إليها.

إصلاحات الإمام عليه السلام وموقف المسلمين منها

وقد تناولت إصلاحات الإمام الثورة ثلاثة ميادين: **الإدارة، والحقوق، والمال**؛ ففيما يرجع إلى سياسة الإدارة أصرّ على عزل ولاة عثمان على الأمصار، هؤلاء الولاة الذين كانوا من الأسباب الهامّة في الثورة على عثمان؛ لظلمهم وبغيهم، وعدم درايتهم بالسياسة وأصول الحكم.

وقد كلّمه المغيرة بن شعبة في شأن ولاة عثمان، فأشار عليه بأن يُثبت هؤلاء على أعمالهم، ولكنّه أبى عليه ذلك وعزلهم، وكلّمه طلحة والزبير في شأن الولاية على الكوفة والبصرة فردّهما ردّاً رفيقاً، وولّى رجالاً من أهل الدين، والعفّة والحزم، فولّى على البصرة عثمان بن حُنيف[1]، وعلى الشام سهل بن حُنيف، وعلى مصر قيس بن

(١) هو عثمان بن حُنيف بن واهب بن الحكيم الأنصاري الأُويسي، أبو عمرو، وأبو عبد الله. شهد أحداً وما بعدها. استعمله عمر بن الخطاب على مساحة العراق، واستعمله علي عليه السلام على البصرة. انظر =

سعد بن عبادة، وثبّت أبا موسى الأشعري على الكوفة، وهذه هي الأمصار الكبرى في دولة الخلافة حينذاك.

وقد أصاب هذا الإجراء قريشاً بضربة قاصمة في كبريائها، وسلطانها ونفوذها؛ لأنّ هؤلاء جميعاً من غير قريش. وقد قال في شأن ولاة عثمان ومَنْ لفّ لفّهم: «... وَلَكِنَّنِي آسَى أَنْ يَلِيَ أَمْرَ هَذِهِ الأُمَّةِ سُفَهَاؤُهَا وَفُجَّارُهَا، فَيَتَّخِذُوا مَالَ اللهِ دُوَلاً، وعِبَادَهُ خَوَلاً، وَالصَّالِحِينَ حَرْباً، وَالْفَاسِقِينَ حِزْباً؛ فَإِنَّ مِنْهُمُ الَّذِي قَدْ شَرِبَ فِيكُمُ الْحَرَامَ، وَجُلِدَ حَدّاً فِي الإِسْلامِ، وَإِنَّ مِنْهُمْ مَنْ لَمْ يُسْلِمْ حَتَّى رُضِخَتْ لَهُ عَلَى الإِسْلامِ الرَّضَائِخُ »[1].

* * *

= التاريخ الكبير ٢٠٩/١، الجرح والتعديل ١٤٦/٦، الاستيعاب ٨٩/٣، الإصابة ٤٥٩/٢، تهذيب التهذيب ١٠٣/٧، أُسد الغابة ٣٧١/٣، تايخ الطبري ٤٦٥/٣، وكانت فتنة الجمل الأصغر في البصرة لخمس بقين من ربيع الثاني سنة (٣٦ هـ) قبل وصول الإمام علي عليه السلام إليها، وكان عاملها عثمان بن حُنيف الأنصاري الذي أسره جيش أمّ المؤمنين وطلحة والزبير، والذي قُتل مَنْ في المسجد (٤٠) رجلاً من شيعة الإمام علي عليه السلام ، وقُتل أيضاً (٧٠) آخرين في مكان آخر.

وكان عثمان من الصحابة الأجلاء، وأرادوا قتله لكنّهم خافوا من أن يثأر له أخوه سهل والأنصار جميعاً؛ فعمدوا على نتف لحيته وشاربه، وحاجبيه وشعر رأسه، وضربوه ضرباً مُبرحاً، وطردوه من البصرة.

وقاتلهم بعد ذلك حكيم بن جبلة مع جماعة من بني عبد القيس ومن ربيعة، فاقتتلوا معهم حتّى استشهد منهم جماعة، ومنهم الأشرف بن حكيم، وأخوه الرّعل، وفُتحت البصرة كما ذكر صاحب أُسد الغابة ٣٨/٢، وشرح نهج البلاغة - لابن أبي الحديد ٤٨١/٢ طبعة بيروت أُفست، وأنساب الأشراف - للبلاذري ٢٢٨/٢، ومروج الذهب - للمسعودي ٣٥٨/٢، كتاب الجمل - للشيخ المفيد، طبعة الحيدرية، كتاب أحاديث عائشة أمّ المؤمنين - للعلامة العسكري ١٢١/١ - ٢٠٠، طبعة الحيدرية في طهران، و١٧٢ - ٢٧٠ طبعة ٥ مطبعة صدر نشر دار التوحيد، وتأريخ الطبري ١٧٨/٥.

(١) انظر: نهج البلاغة - الرسالة ٦٢.

وفيما يرجع إلى الحقوق نادى بأنّ المسلمين جميعاً سواء في الحقوق والواجبات في الإسلام، وقد كانت هناك فروق حقوقية جاهليّة قضى عليها الإسلام، وأُعيدت في عهود لاحقة؛ فقريش ذات الماضي العريق في السيادة على القبائل العربية عادت في عهد عثمان إلى إيمانها بتلك الفروق، فغدا أُناس ليس لهم ماضٍ مشرّف بالنسبة إلى الإسلام ونبيّه يتعالون على أعظم المسلمين جهاداً، وسابقة وبلاء لمجرّد أنّهم قرشيون.

هذه الفروق المعنوية الجاهليّة قضى عليها الإمام عليه السلام، فقال: « الذليل عندي عزيز حتّى آخذ الحقّ له، والقوي عندي ضعيف حتّى آخذ الحقّ منه »[1].

* * *

وفيما يرجع إلى سياسة المال وقف موقفاً صارماً، وكانت تواجهه فيما يتعلّق بهذه السياسة نقطتان هامّتان؛ إحداهما الثروات التي تكوّنت في أيام عثمان بأسباب غير مشروعة، والثانية أسلوب توزيع العطاء.

وقد أعلن في الخُطب الأولى التي استهل بها حكمه مصادرة جميع ما أقطعه عثمان من القطائع وما وهبه من الأموال العظيمة لطبقة الإرستوقراطيين، كما أعلن أنّه سيتّبع مبدأ المساواة في العطاء، فقال: « أيّها الناس، إنّي رجل منكم، لي ما لكم وعليّ ما عليكم، وإنّي حاملكم على منهج نبيّكم، ومنفّذ فيكم ما أمر به.

ألا وإنّ كلّ قطيعة أقطعها عثمان، وكلّ مال أعطاه من مال الله فهو مردود في بيت المال؛ فإنّ الحقّ لا يبطله شيء، ولَوْ

---

(١) انظر: نهج البلاغة - الخطبة ٣٧.

وَجَدْتُهُ قَدْ تُزُوِّجَ بِهِ النِّسَاءُ، وَمُلِكَ بِهِ الإِمَاءُ لَرَدَدْتُهُ؛ فَإِنَّ فِي الْعَدْلِ سَعَةً، وَمَنْ ضَاقَ عَلَيْهِ الْعَدْلُ فَالْجَوْرُ عَلَيْهِ أَضْيَقُ »[١].

وقال من خطاب آخر: «... ألا لا يقولنّ رجال منكم غداً غمرتهم الدنيا فاتّخذوا العقار، وفجّروا الأنهار، وركبوا الخيول الفارهة، واتّخذوا الوصائف الرُّوقة، فصار ذلك عليهم عاراً وشناراً، إذا ما منعتهم ما كانوا يخوضون فيه، وأخّرتهم إلى حقوقهم التي يعلمون، فينقمون ذلك ويستنكرون، ويقولون: حرمنا ابن أبي طالب حقوقنا.

ألا وأيّما رجل من المهاجرين والأنصار من أصحاب رسول الله ﷺ يرى أنّ الفضل له على سواه لصحبته؛ فإنّ الفضل النيّر غداً عند الله، وثوابه وأجره على الله.

وأيّما رجل استجاب لله وللرسول، فصدّق ملّتنا، ودخل في ديننا، واستقبل قبلتنا، فقد استوجب حقوق الإسلام وحدوده؛ فأنتم عباد الله، والمال مال الله، يُقسم بينكم بالسويّة، لا فضل فيه لأحد على أحد، وللمتقين عند الله غداً أحسن الجزاء، وأفضل الثواب. لم يجعل الله الدنيا للمتقين أجراً ولا ثواباً، وما عند الله خير للأبرار.

وإذا كان غد إن شاء الله فاغدوا علينا؛ فإنّ عندنا مالاً نقسمه، ولا يتخلّفنّ أحد منكم؛ عربي ولا عجميّ، كان من أهل العطاء أو لم يكن، إلاّ حضر إذا كان مسلماً حرّاً »[٢].

فلمّا كان من الغد، غدا وغدا الناس لقبض المال، فقال لعبيد الله بن أبي رافع كاتبه: « ابدأ بالمهاجرين فنادهم، وأعطِ كلّ رجل ممّن حضر

---

(١) انظر: نهج البلاغة - الخطبة ١٥.

(٢) انظر: شرح نهج البلاغة - لابن أبي الحديد ٣٧/٧.

ثلاثة دنانير، ثمّ ثنّ بالأنصار فافعل معهم مثل ذلك، ومَنْ حضر من الناس كلّهم؛ الأحمر والأسود، فاصنع به مثل ذلك »[1].

فقال سهل بن حنيف: يا أمير المؤمنين، هذا غلامي بالأمس وقد أعتقته اليوم. فقال: « نعطيه كما نُعطيك ». فأعطى كلّ واحد منهما ثلاثة دنانير[2]، ولم يفضّل أحداً على أحد. وتخلّف عن هذا القسم يومئذ طلحة، والزبير، وعبد الله بن عمر، وسعيد بن العاص، ومروان بن الحكم، ورجال من قريش وغيرها[3].

* * *

وهكذا قضى بسرعة وحسم على شرعيّة التفاوت الطبقي بما له من ذيول اقتصادية ودينية، فسوّى بين المعتقين والأحرار، والسابقين في الإسلام والمسلمين الجدد، ولم يجعل من الفضل الديني ذريعة إلى المغانم الاقتصادية، كما شلّ بإجراء آخر قوّة هذه الطبقة التي تكوّنت في عهد عثمان؛ وذلك حين صادر قطاع عثمان والأموال التي أعطاها.

وبقدر ما كانت هذه السياسة مصدر فرح وجدل للطّبقة المستضعفة الفقيرة الرازحة تحت أثقال من الظلم، كانت أيضاً صفعة لقريش ولغرورها، وخيلائها

---

(١) انظر: شرح نهج البلاغة - لابن أبي الحديد ٧/٣٨.

(٢) انظر: شرح نهج البلاغة - لابن أبي الحديد ٧/٣٩.

(٣) انظر المصدر نفسه.

واستعلائها على الناس، فمن أين لها بعد اليوم أن تحوز الأموال العظيمة دون أن تنفرج شقتان لتقولا لها: من أين لك هذا؟وكيف لها بعد اليوم أن تستعلي وتستبد، وتفرض على الناس في ظلّ الإسلام سلطانها عليهم في الجاهليّة.

ولعلّ قادة الطبقة الثرية وزعماءها فكّروا في أن يساوموا علياً على بذل طاعتهم له على أن يُغضي عمّا سلف منهم، ويأخذهم باللين والهوادة فيما يستقبلون، فأرسلوا إليه الوليد بن عقبة بن أبي معيط[1]، فجاء إليه وقال: « يا أبا الحسن، إنّك قد وترتنا جميعاً، ونحن إخوتك ونظراؤك من بني عبد مناف، ونحن نبايعك اليوم على أن تضع عنّا ما أصبناه من المال أيّام عثمان، وأن تقتل قتلته، وإنّا إن خفناك تركناك فالتحقنا بالشام ».

---

(١) هو الوليد بن عقبة، أخو الخليفة من أمّه، وقد كان من الذين أسلموا بعد فتح مكة، وكلّفه النبي صلى الله عليه وآله - كما ذكر ابن حجر وغيره - بجمع صدقات بعض الأعراب، فلمّا قرب منهم خرجوا إليه، فظنّ أنّهم يحاربونه، فرجع مخبراً النبي صلى الله عليه وآله بذلك، وكاد النبي صلى الله عليه وآله أن يرسل إليهم جيشاً لقتالهم، فأنزل الله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ)(سورة الحجرات/٦)، تفسير ابن كثير ٢٠٨/٤، الإصابة في تمييز الصحابة - لابن حجر ٦٣٧/٣.

ونزلت فيه: (أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لا يَسْتَوُونَ)(سورة السجدة/١٨)، انظر: تفسير الدرّ المنثور ١٧٧/٥، المصابيح - لأحمد بن إبراهيم/٢٨٤.

وكان يُصلّي حال إمارته وهو سكران حتّى تكلّم فيها، والتفت إلى مَنْ خلفه وقال: أزيدكم في الصلاة؟ فقالوا: لا، قد قضينا صلاتنا. انظر: الأحكام - للإمام يحيى بن الحسين ٢٦٨/٢، مسند أحمد ١٤٤/١، سنن البيهقي ٣١٨/٨، تأريخ اليعقوبي ١٤٢/٢، الكامل - لابن الأثير ٤٢/٣، الإصابة ٦٣٨/٣، السنن الكبرى - للنسائي ٢٤٨/٣، أُسد الغابة ٩١/٥، الجرح والتعديل ١٢/٩، تهذيب الكمال ١٦/٣١، المصابيح - لأحمد بن إبراهيم/٢٦٨، أنساب الأشراف - للبلاذري ٣٣/٥.

فقال عليه السلام: « أمّا ما ذكرتم من وتري إيّاكم فالحقّ وتركم؛ وأمّا وضعي عنكم ما أصبتم فليس لي أن أضع حقّ الله عنكم ولا من غيركم... »[1].

ولما أيقن زعماء هذه الطبقة أنّهم لن يُفلحوا عن طريق المساومة والتهديد، لجؤوا إلى السعي لنقض البيعة، وقد جاء مَنْ أخبر علياً بأنّهم يدعون الناس إلى رفض البيعة؛ مدفوعين إلى ذلك بالامتيازات الاقتصادية والاجتماعيّة التي فقدوها.

فخطب الناس، وكأنّه أراد بذلك أن يكشف عناصر الفتنة الجديدة، ويخرج بالمسألة من حدود الهمس والعمل في الظلام إلى الصعيد العام، ويسلّط عليه وعلى زعمائها النور، ويفضح أهدافهم، ويُطلع الأمّة على المناورة التي تريد أن تحوّل نتائج الثورة إلى مغانم شخصيّة، وتُعيد الأوضاع القديمة كما كانت، فلا تحصل الأمّة من ثورتها إلاّ على تبديل الوجوه.

وقد أكّد في هذه الخطبة عزمه على مواصلة تطبيق المنهج الذي بدأ به، فقال: « فأمّا هذا الفيء فليس لأحد على أحد فيه أثَرَة، وقد فرغ الله من قسمته، فهو مال الله، وأنتم عباد الله المسلمون، وهذا كتاب الله به أقررنا وله أسلمنا، وعهد نبيّنا بين أظهرنا، فمَنْ لم يرض به فليتولّ كيف شاء »[2].

---

(١) انظر: شرح نهج البلاغة - لابن أبي الحديد ٣٩/٧.

(٢) انظر: شرح نهج البلاغة - لابن أبي الحديد ٣٩/٧ - ٤٠.

ولكنّ الإرستقراطية الجديدة لم تقف مكتوفة اليدين، فقامت بحركة تمرّد الأولى في البصرة تحت ستار الثأر لعثمان، وما هي في واقعها إلاّ تدبير دبّره مَنْ لم يُماش الحكم الجديد أهواءهم من بني أميّة وغيرهم من المنتفعين بعهد عثمان.

وقد كان القائمون بهذه الحركة يريدون أن يعطفوا أزمّة الحكم إلى جانبهم بعد أن يئسوا من مساعدة الإمام عليه السلام لهم على ما يبتغون، ولكنّ الإمام عليه السلام قضى على الحركة في مهدها، وفرّ مَنْ بقي من أنصارها إلى الشام، حيث قامت حكومة برياسة معاوية بن أبي سفيان، انضوت إليها جميع العناصر المنتفعة بعهد عثمان، والتي رأت في الحكم الجديد خطراً عليها وعلى امتيازاتها الطبقية.

وبينما كانت حكومة الإمام عليه السلام تسير على نهج إسلامي خالص، أي أنّها كانت تحقّق للأمّة أقصى قدر مستطاع - في ظروفها السياسيّة والاقتصادية والعسكرية - من الرفاهية، والعدالة والأمن، كان معاوية يسير على نهج آخر في الحكم يقوم على شراء الضمائر بالمال، وتفضيل طائفة بحرمان طائفة أخرى، وتعطيل السبل، وتعكير الأمن، ولم يكن معاوية ليبالي في أن ينزل بدافعي الضرائب من الزرّاع، والتجّار أفدح الظلم في سبيل أن يحصل منهم على مبلغ من المال يُغذّي به أطماع حفنة من رؤساء القبائل العربية يؤلّفون جهازه العسكري المتأهّب دائماً لقمع أي حركة تحرريّة تقوم بها جماعة من الناس.

وقد كان من الطبيعي أن تقوم حركة تمرّد أخرى وراء الواجهة نفسها بزعامة معاوية، فكانت صفين، وكان التحكيم ثمّ النهروان، ثم قُتل عليه السلام بثمرة من ثمرات التحكيم بعد أن غرس في عقول الناس وقلوبهم المبادئ الإسلاميّة في الحكم وسياسة الجماعات.

ثم كانت خلافة الحسن بن علي عليه السلام ذات الشهور العاصفة، الحُبلى بالدسائس والمؤامرات عليه من قبل الانتهازيين والوصوليين، ثم اضطراره إلى التخلّي عن الحكم مؤقتاً تحت ضغط الأحداث التي لم تكن صالحة

تفادياً لحرب خاسرة تذهب فيها دماء أنصاره دون الحصول على نصر آني أو في المستقبل القريب أو البعيد.

وصار الأمر إلى معاوية بن أبي سفيان، واتّسقت له الأمور، وسيطر على العالم الإسلامي كلّه بعد أن أُخذت له البيعة على الناس في شوّال سنة إحدى وأربعين للهجرة.

وقد كانت سياسة الإمام علي عليه السلام وطريقته في ممارسة مهمّة الحكم، وفهمه لواجبات الحاكم، كانت هذه الأمور تُشكّل تحدّياً مستمراً لمعاوية وبطانته، وتهديداً لمشاريعه في التسلّط على المسلمين.

والذي زاد من خطورة هذه الأفكار على معاوية ومشاريعه أنّها لم تكن أفكاراً مجرّدة، بل طُبّقت على حياة الناس بأمانة وإخلاص عظيمين؛ لذلك عمل معاوية منذ انتهت مهزلة التحكيم على أن يحارب هذه المبادئ، وأن يطبع حياة الناس وأفكارهم بالطابع الذي يؤمن له سيطرة دائمة خالية من أيّ رقابة أو احتجاج؛ ولذلك مارس سياسة استهدف منها محق نزعة الحرية لدى الإنسان المسلم، وتحويله عن أهدافه العظيمة، ونضاله من أجلها.

ولقد كانت هذه السياسة تقوم على المبادئ التالية:

١ - الإرهاب والتجويع.

٢ - إحياء النزعة القبلية واستغلالها.

٣ - التحذير باسم الدين، وشلّ الروح الثورية.

وبهذه السياسة حاول معاوية القضاء على ما لدى الجماهير المسلمة من نزعة إنسانيّة تجعلها خطراً على كلّ حاكم يجافي مبادئ الإسلام في ممارسته لمهمّة الحكم، وبذلك أمن ثورة الجماهير ونقدها.

ولنأخذ هذه المبادئ بشيء من التفصيل.

سياسة معاوية الإرهاب والتجويع

لقد اتّبع معاوية سياسة الإرهاب، والقتل، والتجويع بالنسبة إلى الرعايا المسلمين الذين لا يتّفقون معه في الهوى السياسي، وإطلالة قصيرة على تأريخ هذه الفترة من حياة المسلمين تُثبت هذه الدعوى.

حدّث سفيان بن عوف الغامدي، وهو أحد قوّاد معاوية العسكريين، قال: « دعاني معاوية فقال: إنّي باعثك بجيش كثيف ذي أداة وجلادة، فالزم ليّ جانب الفرات حتّى تمرّ بهيت[1] فتقطعها، فإن وجدت بها جُنداً فأغر عليهم، وإلاّ فامض حتّى تُغير على الأنبار.

إنّ هذه الغارات يا سفيان على أهل العراق تُرعب قلوبهم، وتُفرح كلّ مَنْ له هوى فينا منهم، وتدعو إلينا كلّ ما خاف الدوائر، فاقتل كلّ مَنْ لقيته ممّن هو ليس على مثل رأيك، وأخرب كلّ ما مررت به من القرى، وأحرِب الأموال؛

---

(١) هي بلد على شاطئ الفرات، وسُمّيت هيت لأنّها في هوّة من الأرض. انظر: لسان العرب ١٠٧/٢، الغريب - لابن قتيبة ٤٧٧/١، و٦٣/٢.

فإنّ حرب الأموال شبيه بالقتل، وهو أوجع للقلب »[1].

ودعا معاوية بالضحّاك بن قيس الفهري[2] وأمره بالتوجّه ناحية الكوفة، وقال له: « مَنْ وجدته من الأعراب في طاعة علي فأغر عليه ».

« فأقبل الضحّاك فنهب الأموال، وقتل مَنْ لقي من الأعراب، حتّى مرّ بالثعلبية فأغار على الحاج فأخذ أمتعتهم، ثمّ أقبل فلقي عمر بن عميس بن مسعود الدّهلي، وهو ابن أخي عبد الله بن مسعود فقتله في طريق الحاج عند القطقطانية[3]، وقتل معه ناساً من أصحابه »[4].

---

(١) انظر: الغارات ٢٥/١، ٣٤٩، ٢/٣٩٥، أمالي الشيخ المفيد/١٤٦، شرح نهج البلاغة - لابن أبي الحديد، تحقيق محمّد أبو الفضل ٨٥/٢ و٨٧، وجّه معاوية سفيان بن عوف في ستة آلاف وأمره أن يقطع هيت، ويأتي الأنبار والمدائن فيوقع بأهلها، فأتى سفيان هيت فلم يجد فيها أحداً، ثمّ توجّه إلى الأنبار وفيها مسلحة تكون خمسمئة رجل، وقد تفرّقوا ولم يبقَ منهم إلاّ مئتان؛ لأنّه كان عليهم كميل. فبلغه أنّ قوماً بقرقيسيا - وقريسيا: هي بلد على نهر الخابور، قرب رحبة مالك بن طوق، على بعد ستة فراسخ، وعند مصبّ الخابور في الفرات، فهي في مثلّث بين نهر الخابور والفرات. انظر: معجم البلدان ٣٢٨/٤، مراصد الاطلاع ١٠٨/٣ - يريدون الغارة على هيت، فسار إليهم. انظر: الكامل في التاريخ ١٨٩/٣، شرح نهج البلاغة - لابن أبي الحديد، تحقيق محمّد أبو الفضل ١٤٩/١٧.

(٢) هو الضحّاك بن قيس الفهري، ولد قبل وفاة النبي صلى الله عليه وآله، له في حروب معاوية بلاء عظيم، ولاّه الكوفة سنة ٥٣ هـ، وعزله سنة ٥٧ هـ، وهو الذي دفن معاوية، وكان يزيد يوم ذاك خارج دمشق، وبايع لابن الزبير بعد معاوية بن يزيد. انظر: أُسد الغابة ٣٦/٣ - ٣٧، تهذيب ابن عساكر ٤/٧ - ٥، تأريخ الطبري ٧٨/٦، و٧/٤ ط أُخرى، شرح النهج - لابن أبي الحديد ١١١/٢ - ١١٧، وقعة صفين/١٢ و٢٠٦ و٢١٣ و٢٢٦ و٣٦٠ و٥٥٢ و٥٥٧، الفتوح - لابن أعثم ٢٢/٢، الإمامة والسياسة ٧٤/١ و٧٥ و١٢٧ و١٨٨ و١٩١ و١٩٣ و٢٢٥ و٢٤٢، و١٨/٢، و٢٢/٢٠ و١١٦ و١٦٣.

(٣) هي موضع قرب الكوفة. لسان العرب ٣٤٨/٧.

(٤) انظر: شرح نهج البلاغة - لابن أبي الحديد، تحقيق محمّد أبو الفضل ١١٦/٢.

واستدعى معاوية بُسر بن أرطأة[1]، ووجّهه إلى الحجاز واليمن، وقال له:

---

(١) هو بُسر بن أرطأة، ويقال: ابن أبي أرطأة، واسمه عمير بن عويمر بن عمران القرشي العامري، كان من شيعة معاوية، نزيل الشام مات سنة (٨٦ هـ) وهو أحد فراعنة الشام، وكان مع معاوية بصفين، فأمره أن يلقى علياً في القتال، وقال له: سمعتك تتمنّى لقاءه، فلو أظفرك الله به وصرعته حصلت على دنيا وآخرة، ولم يزل يشجّعه ويمنّيه حتّى رآه، فقصده في الحرب فالتقيا، فطعنه علي عليه السلام فصرعه، فانكشف له فكفّ عنه كما عرض له ذلك مع عمرو بن العاص.

اختلفوا في أنّ بُسراً أدرك النبي صلى الله عليه وآله وسمعه أم لا، وقالوا: إنّه لم يكن له استقامة بعد النبي صلى الله عليه وآله، وكان من أهل الردّة. وقد دعا عليه علي عليه السلام عندما بلغه أنّه يقتل الصبيان، فقال عليه السلام: « اللّهمّ اسلب دينه، ولا تخرجه من الدنيا حتّى تسلب عقله ». فأصابه ذلك وفقد عقله. وكان يهذي، فيُؤتى بسيف من خشب فيُؤتى به، ويُجعل بين يديه رقّ منفوخ، فلا يزال يضربه حتّى يسأم، وتوفي في أيام معاوية.

وقالوا: دخل المدينة فخطب الناس، وشتمهم يومئذ وتوعّدهم، وقال: شاهت الوجوه. ولما دخل ثقل عبيد الله بن العباس، وفيه ابنان له صغيران، فذبحهما بيده بمدية كانت معه، ثمّ انكفأ راجعاً إلى معاوية، فقالت له امرأة له: يا هذا، قتلت الرجال، فعلام تقتل هذين؟! والله ما كانوا يُقتلون في الجاهليّة والإسلام. والله يابن أرطأة، إنّ سلطاناً لا يقوم إلاّ بقتل الصبي الصغير، والشيخ الكبير، ونزع الرحمة، وعقوق الأرحام لسلطان سوء.

قالوا: فولهت عليهما أُمّهما، وكانت لا تعقل، ولا تصغي إلاّ لمنْ يُخبرها بقتلهما، ولا تزال تنشدهما في الموسم:

هـا مَـنْ أحـسّ بابـنيّ اللـذين همـا كالـدرّتين تشـظّى عنهمـا الصـدفُ

إلى آخر الأبيات، ولسنا بصدد بيان حياة بُسر.

انظر: الاستيعاب/٦٤ - ٦٧، وقعة صفين/٤٦٢ ط ٢ سنة ١٣٨٢ هـ، وط ٢ تحقيق عبد السلام هارون المؤسسة العربية الحديثة، ومنشورات مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي - قم المقدسة لسنة ١٤٠٤ هـ/٤٤ و١٥٧ و٣٠٥ و٤١٢ و٤٢٤ و٤٢٩ و٤٥٩ و٤٦٠ و٤٦٢ و٥٠٤ و٥٠٧، شرح النهج - لابن أبي الحديد ٣٠١/٢، الأغاني ٤٥/١٥، تهذيب ابن عساكر ٢٢٠/٣، تأريخ الطبري ٨٠/٦ و ٢٠/٤ وما بعدها ط أخرى، كتاب الغارات برواية ابن أبي الحديد ٣/٢ - ١٤، تاريخ اليعقوبي ١٤١/٢، تهذيب التهذيب ٤٣٦/١، تأريخ مدينة دمشق ٢٢٢/٣، نهاية الأرب - للقلقشندي/٣٧١، مروج الذهب بهامش ابن الأثير ٩٣/٦، الجمهرة/٢٢٨ و٣٩١، أُسد الغابة ٣٤٠/٣ و١٨٠/١، ابن الأثير ١٥٣/٣، المعارف - لابن قتيبة/١٢٢، الفتوح - لابن أعثم ٣٩/٢ وما بعدها، الإمامة والسياسة ١٢٣/١ و١٤٨ و١٥٠.

« سر حتّى تمر بالمدينة فاطرد الناس، وأخف مَنْ مررت به، وانهب أموال كلّ مَنْ أصبت له مالاً ممّن لم يكن دخل في طاعتنا، فإذا دخلت المدينة فأرهم أنّك تُريد أنفسهم، وأخبرهم أنّ لا براءة لهم عندك ولا عذر حتّى إذا ظنّوا أنّك موقع بهم فأكففّ عنهم... وأرهب الناس عنك فيما بين المدينة ومكة واجعلها شردات... »[1].

وقال له: « لا تنزل على بلد أهله على طاعة علي إلاّ بسطت عليهم لسانك حتّى يروا أنّهم لا نجاء لهم، وأنّك محيط بهم، ثمّ اكفف عنهم وادعهم إلى البيعة لي، فمَنْ أبى فاقتله، واقتل شيعة علي حيث كانوا »[2]. فسار، وأغار على المدينة ومكة، فقتل ثلاثين ألفاً عدا مَنْ أُحرق بالنار[3].

وبهذا المطلع الفاني استهلّ معاوية سياسته بعد التحكيم مع المسلمين الذين يخالفونه في الهوى السياسي. وقد بلغ في ذلك شأواً بعيداً، فقتل وأرعب، واستصفى الأموال، وعاث في الأرض فساداً.

وقد استمر على هذه السياسة بعد أن قُتل علي عليه السلام ولكنّها إذ ذاك أخذت شكلاً أكثر تنظيماً وعُنفاً وشمولاً.

---

(١) انظر: الغارات ٢/٦٠٠.

(٢) انظر: شرح نهج البلاغة « تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم» ٢/١١٦.

(٣) انظر: شرح نهج البلاغة « تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم» ٢/١٧، وتفصيل أحداث بُسر بن أرطأة في الجزء نفس ٣ - ١٨.

وقد نصّ المؤرّخون على أنّ هذا الإرهاب بلغ حدّاً جعل الرجل يُفضّل أن يُقال عنه أنّه زنديق أو كافر ولا يُقال عنه أنّه من شيعة علي[١]، وقد بلغ بهم الحال أنّهم كانوا يخافون من النطق باسمه حتّى فيما يتعلّق بأحكام الدين التي لا ترجع إلى الفضائل التي كان الأمويون يخشون شيوعها، فكانوا يقولون: « روى أبو زينب »[٢].

وقال أبو حنيفة: « إنّ بني أُميّة كانوا لا يفتون بقول علي ولا يأخذون به، وكان علي لا يذكر في ذلك باسمه. وكانت العلامة باسمه بين المشايخ أن يقولوا: قال الشيخ »[٣]. « وحضر الأُمويّون على الناس أن يسمّوا أبناءهم باسم علي »[٤].

* * *

وكتب معاوية نسخة واحدة إلى عمّاله بعد عام الجماعة: « أن برئت الذمّة ممّن روى شيئاً من فضل أبي تراب وأهل بيته، فقامت الخطباء في كلّ كورة، وعلى كلّ منبر يلعنون علياً، ويبرؤون منه، ويقعون فيه وفي أهل بيته »[٥].

---

(١) انظر: شرح نهج البلاغة « تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم » ٤٤/١١.

(٢) انظر: شرح نهج البلاغة « تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم » ٧٢/٤.

(٣) انظر: مناقب أبي حنيفة - للمكي ١١٧/١.

(٤) انظر: شرح نهج البلاغة « تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم » ١٧/١.

(٥) معاوية أوّل مَنْ لعن الإمام علياً عليه‌السلام على منابر المسلمين.

انظر، شواهد التنزيل ٤٥٩/٢، فرائد السمطين ١ ب ٣١ ح١١٧/١٥٥ ط بيروت، تأريخ مدينة دمشق ٣٤٨/٢ و٤٤٢ و٤٤٣ ح٨٥١، الطبعة الثانية ح٩٥٩، لسان الميزان ١٧٥/١، أنساب =

« وكان أشدّ الناس بلاءً حينئذ أهل الكوفة؛ لكثرة مَنْ بها من شيعة علي عليه السلام ، فاستعمل عليهم زياد بن سميّة وضمّ إليه البصرة، فكان يتتبّع الشيعة وهو بهم عارف؛ لأنّه كان منهم أيام علي عليه السلام ، فقتلهم تحت كلّ حجر ومدر وأخافهم، وقطع الأيدي والأرجل، وسمل العيون، وصلبهم على جذوع النخل، وطردهم وشرّدهم عن العراق، فلم يبقَ بها معروف منهم ».

« وكتب معاوية إلى عمّاله في جميع الآفاق: ألاّ يجيزوا لأحد من شيعة علي وأهل بيته شهادة. ثمّ كتب إلى عمّاله نسخة واحدة إلى جميع البلدان: انظروا إلى مَنْ قامت عليه البيّنة إنّه يُحبّ علياً وأهل

= الأشراف ٢/١٠٣ و ١١٣، أحمد بن حنبل ح٧٢/٤٦ ط قم، كفاية الطالب ب٦٢/٢٤٤ و٢٤٦، كنوز الحقائق/٨٢ و٩٢ و١٣١، المناقب - للخوارزمي/٦٢ و١٨٧ فصل ١٧ ح١١ فصل ٩، نور الأبصار/٧٠ و١٠١، الصواعق المحرقة/٩٦ و١٦١، ولكن زعم أنّه يروي الحديث بلفظ «... قال: ومَنْ عدوّي؟ قال: مَنْ تبرّأ منك ولعنك ».

فقد سبّ أمير المؤمنين عليه السلام وذلك من خلال حبّه - ابن حجر - لمعاوية بن أبي سفيان الذي سبّ علياً عليه السلام ، ولعنه في الأقطار الإسلاميّة وطلب التبري منه، وإن لم يكن ذلك فالضرب والشتم، والهتك والقتل للمؤمنين، وهذا مشهور ولا يحتاج إلى برهان ودليل.

وانظر، خصائص الوحي المبين/١٣١ فصل ٢١ الطبعة الأولى، الدر المنثور ٦/٧٩ و٣١٩ و٧/٣٠٥، مجمع الزوائد ٩/١٣١ و٧/١٧، وبشارة المصطفى/١٦٣، تفسير الطبري ٦/١٨٦ و١٢/٦٥٧ ط أُخرى، وذخائر العقبى/٨٨ و١٠٢، وروح المعاني ٣٠/٢٠٧ ط مصر، وتأريخ بغداد ٧/٤٢١، الأغاني ١٨/٣٩ الطبعة الأولى - بيروت، والمسترشد في إمامة أمير المؤمنين/٣٥٤، وينابيع المودّة/٦٢ و٧٤ و٢٧٠ ط إسلامبول و٧١ و٨٤ و٣٦١ و٣٦٢ ط الحيدرية و١/١٩٦ و٢٢٣ ط أسوة و٢/٣٥٧ و٤٥٢ ط أسوة، وتذكرة الخواص/١٨، وفتح القدير - للشوكاني ٥/٤٧٧، إسعاف الراغبين بهامش نور الأبصار/١٧٢، جواهر العقدين ٢/٢١٩، وفي الصواعق المحرقة/١٦١ ب١١ فصل١.

بيته فامحوه من الديوان، وأسقطوا عطاءه ورزقه. وشفع ذلك بنسخة أُخرى: مَنْ اتّهمتموه بموالاة هؤلاء القوم فنكّلوا به واهدموا داره ».

« فلم يكن البلاء أشدّ ولا أكثر منه بالعراق، ولا سيما بالكوفة، حتّى أنّ الرجل من شيعة علي عليه السلام ليأتيه مَنْ يثق به فيدخل بيته فيلقى إليه سرّه، ويخاف من خادمه ومملوكه، ولا يحدّثه حتّى يأخذ عليه الأيمان الغليظة ليكتمنّ عليه... فلم يزل الأمر كذلك حتّى مات الحسن بن علي عليهما السلام ، فازداد البلاء والفتنة، فلم يبقَ أحد من هذا القبيل إلاّ وهو خائف على دمه، أو طريد في الأرض »[١].

وأجمل ذلك الإمام محمّد بن علي بن الحسين الباقر عليه السلام ، فقال: « وقُتلت شيعتنا بكلّ بلدة، وقُطعت الأيدي والأرجل على الظنّة، وكلّ مَنْ يُذكر بحبّنا والانقطاع إلينا سُجن أو نُهب ماله، أو هدمت داره، ثمّ لم يزل البلاء يشتدّ ويزداد إلى زمان عبيد الله بن زياد قاتل الحسين عليه السلام »[٢].

* * *

وقد طبّق ولاة معاوية على العراق - مهد التشيّع لآل علي - هذه السياسة بوحشية لا توصف؛ فقد استعمل زياد سمرة بن جندب[٣] على البصرة فأسرف

(١) انظر: شرح نهج البلاغة « بتحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم » ١١/٤٤ - ٤٦.

(٢) انظر: شرح نهج البلاغة « بتحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم » ١١/٤٣ - ٤٤.

(٣) هو سمرة بن جندب بن هلال بن جريح الفزاري، استعمله ابن زياد على شرطته في البصرة =

هذا السفّاح في القتل إسرافاً لا حدود له؛ فهذا أنس بن سيرين يقول لمنْ سأله،

= والكوفة، واستعمله معاوية على ولاية البصرة ثمّ عزله، فقال: لعن الله معاوية. والله لو أطعت الله كما أطعته ما عذّبني أبداً. مات سنة (٥٨ أو ٥٩ هـ). انظر: الإصابة ٧٨/٢، أُسد الغابة ٣٥٤/٢، الجرح والتعديل ١٥٤/٤، شذرات الذهب ٦٥/١، تهذيب التهذيب ٢٣٦/٤.

وروي عن حمّاد بن سلمة، عن علي بن زيد بن خالد، قال: كنت إذا أتيت أبا هريرة سألني عن سمرة بن جندب، وإذا أتيت سمرة بن جندب سألني عن أبي هريرة، فقلت: يا أبا هريرة، ما أراك تسألني إلاّ عن سمرة، وأرى سمرة يسألني عنك؟! فقال: إذاً والله أخبرك ولا أكتمك؛ سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: « آخركم موتاً في النار ». انظر: مناقب آل أبي طالب ٩٦/١.

وعن مُحمّد بن قيس الأسدي، قال: سمعت الشعبي يقول: سمعت أبا عمر يقول: قال عمر بن الخطّاب وهو يخطب على المنبر: لعن الله سمرة بن جندب؛ كان أوّل مَنْ اتّجر في الخمر في الإسلام، ولا يحلّ من البيع إلاّ ما يحلّ أكله.

انظر: الغارات ٩٤١/٢، تأريخ الطبري/حوادث سنة ٥٣، طبعة مصر سنة ١٣٢٦ هـ، أو ص ١٦٢، وابن الأثير حوادث سنة ٥٣ أو ص ١٨٣ وحوادث سنة ٥٤ ص ١٩٦ و١٩٥/٣، الإصابة ١٥٠/٣، مجمع الزوائد ٢٩/٨، جزء أشيب - لأبي علي الحسن بن موسى الأشيب (شيخ الإمام أحمد بن حنبل)/٥٨ طبعة دار علوم الحديث، الإمارات العربية المتّحدة، الطبعة الأولى سنة ١٤١٠ هـ.

وعن أبي عدي قال: قدمت المدينة فجلست إلى أبي هريرة، فقال: ممّن أنت؟ قلت: من أهل البصرة. قال: ما فعل سمرة بن جندب؟ قلت: هو حيّ. قال: ما أحد أحبّ إليّ طول حياة منه. قلت: ولِمَ ذاك؟ قال: إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال لي وله ولحذيفة بن اليمان: « آخركم موتاً في النار ». انظر: المعرفة والتأريخ ٣٥٦/٣.

وعن أبي النضرة، عن أبي هريرة أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال لعشرة من أصحابه: « آخركم موتاً في النار »، فيهم سمرة بن جندب. قال أبو النضرة: فكان سمرة بن جندب آخرهم موتاً.

والخلاصة سمرة بن جندب باع دينه بدنياه، وآثر العاجلة على الآخرة؛ إذ ارتكب الكذب والبهتان.

انظر: المعجم الأوسط ٢٠٨/٦ و١٧٧/٧، شرح نهج البلاغة - لابن أبي الحديد ٧٨/٤، التأريخ الصغير ١٣٣/١، تهذيب الكمال ١٣٣/١٢ و٢٥٧/٣٤، سير أعلام النبلاء ١٨٤/٣، تهذيب التهذيب ٢٠٧/٤ و٢٠٠/١٢، البداية والنهاية ٢٥٣/٦، البيهقي في الدلائل ٤٥٩/٦، الشفا بتعريف حقوق المصطفى ٣٣٩/١.

هل كان سمرة قتل أحداً؟ « وهل يُحصى مَنْ قتل سمرة بن جندب؟ استخلفه زياد على البصرة وأتى الكوفة، فجاء وقد قتل ثمانية آلاف من الناس، فقال له - يعني زياداً -: هل تخاف أن تكون قتلت أحداً بريئاً؟ فردّ عليه قائلاً: لو قتلت إليهم مثلهم ما خشيت »[1].

وقال أبو سوار العدوي: « قتل سمرة من قومي في غداة سبعة وأربعين رجلاً قد جمع القرآن »[2].

واستقام سمرة في المدينة شهراً؛ فهدم دور أهلها، وجعل يستعرض الناس فلا يُقال له عن أحد إنّه شرك في دم عثمان إلاّ قتله[3]، وسبى نساء همدان - وهمدان من شيعة علي عليه السلام - وأقمن في الأسواق، فكنّ أوّل مسلمات أُشترين في الإسلام[4]. وقد فعل ما فعل لدعم ملك معاوية، وقال:« لعن الله معاوية! والله لو أطعت الله كما أطعت معاوية ما عذّبني أبداً »[5].

أمّا زياد بن سميّة فكان يجمع الناس بباب قصره يحرّضهم على لعن علي، فمَنْ أبى عرضه على السيف[6]، وكان يعذّب بغير القتل من صنوف العذاب، وتقدّمت إشارات إلى ذلك في كلام المدائني.

وهذا ابن الأثير يذكر لنا أنّه قطع

---

(١) انظر: تأريخ الطبري ١٣٢/٦.

(٢) انظر: تأريخ الطبري ١٢٢/٦.

(٣) انظر: تأريخ الطبري ٨٠/٦.

(٤) انظر: الاستيعاب ١٦٥/١.

(٥) انظر: الكامل في التأريخ - لابن الأثير ٢١٣/٣.

(٦) انظر: مروج الذهب ٣٥/٣.

أيدي ثمانين أو ثلاثين رجلاً من أهل الكوفة[١]، وقد نوى في آخر أيامه أن يعرض أهل الكوفة أجمعين على البراءة من علي ولعنه، وأن يقتل كلّ مَنْ امتنع من ذلك ويخرب منزله، ولكنّه مات قبل أن يُنفّذ هذه الفكرة[٢].

هذا كلّه بالإضافة إلى سياسة الترحيل والتشريد التي قصد بها إلى إضعاف المعارضة في العراق - وتقدّمت إشارة إليها في نصّ ابن أبي الحديد عن المدائني - فقد أنزل من الكوفيين وأُسرهم - وكانوا أعظم الثوار تشيعاً - خمسين ألفاً في خراسان[٣]، وبذلك حطّم قوّة المعارضة في الكوفة وخراسان معاً.

* * *

هذا عرض موجز للسياسة التي تتناول حياة الناس وأمنهم، وأمّا السياسة التي تتناول أرزاق الناس وموارد عيشهم فلا تقل قتامة وكلوحاً وإيغالاً في الظلم عن سابقتها؛ فإنّ معاوية بعد أن تمّ له السلطان على البلاد الإسلاميّة في عام الجماعة عالن الناس بطبيعة الحكم الجديد في كلمته التالية: « يا أهل الكوفة، أترون أنّي قاتلتكم على الصلاة، والزكاة والحجّ، وقد علمت أنّكم تُصلّون، وتزكون وتحجّون، ولكنّي قاتلتكم لأتأمّر عليكم، وألي رقابكم، وقد أتاني الله ذلك وأنتم كارهون. ألا إنّ كلّ دم أُصيب في هذه مطلول، وكلّ شرط شرطته فتحت قدَمي هاتين ».

---

(١) انظر: الكامل في التاريخ - لابن الأثير ٧٣/٣.

(٢) انظر: شرح نهج البلاغة - لابن أبي الحديد ٥٨/٤، مروج الذهب ٣٥/٣.

(٣) انظر: تأريخ الشعوب الإسلاميّة - بروكلمان ١٢٨/١، تأريخ العرب - فليب حتي ٢٥٩/٢ - ٢٦٠.

وكان قد قال قبل ذلك لما تمّ الصلح: « رضينا بها ملكاً »[1]. وكان معاوية أميناً لمنهجه هذا، فلم يحد عنه أبداً.

وشهدت الأمّة المسلمة من جوره وعسفه ما لم تعهد مثله في سالف أيّامها. وكان أوفر دهاء من أن يدع للمضطهدين منفذاً للتعبير عن سخطهم واستيائهم، بل كان من البراعة بحيث حمل الكثيرين على وصفه بالحلم والكرم، والإعجاب به لذلك.

وترى كتب التاريخ والأدب حافلة بالحديث عن حلم معاوية وسخائه وبذله الأموال، ولكنّ شيئاً من دقّة الملاحظة يكشف عن حقيقة الحال؛ فإنّ هذا السخاء كان مقصوراً على حفنة من الناس لا يتعدّاها إلى غيرها من العامّة ممّن هم في أمس الحاجة إلى الدرهم.

لقد كان سخاء معاوية مقصوراً على هذه الطبقة الإرستقراطية التي صعد على أكتافها إلى الحكم، والتي استعان بما لها من نفوذ سياسي أو ديني في مؤامراته أو حروبه. وكانت هذه الطبقة مؤلّفة من زعماء القبائل الموالين له، ومن بعض الأشخاص الذين قذفت بهم أحداث الإسلام الأولى مرغمين إلى صحبة رسول الله صلى الله عليه وآله، ولولا ذلك لفضلوا أن يكونوا في صفوف أعدائه، فتدفّقت الثروات الضخمة، والعطايا الجزيلة على أفراد هذه الطبقة، وحرم سائر الناس من مطالبهم الأساسية، وطفق المحدّثون الرسميون (القُصّاص) يُذيعون في الناس سخاء معاوية وكرمه، مستشهدين بهباته الجزيلة لفلان وفلان. وتناقل الرواة هذه الأحاديث حتّى سجّلها المؤرّخون مفاخر له.

ولا يُغيّر من مغزى هذا شيئاً أنّ معاوية كان يهب بعض أعدائه القدماء أموالاً

---

(١) انظر: البداية والنهاية ٢٤٦/٦، تأريخ مدينة دمشق ٣٨٠/٥٢، تأريخ ابن كثير ١٢١/٨، الكامل في التأريخ ٢٢٠/٦، مقاتل الطالبيّين/٧٠، شرح النهج - لابن أبي الحديد ١٦/٤ و١٥/١٦.

جزيلة؛ فإنّ الذي ألجأ هؤلاء الأعداء إلى مسالمته وإن كان عجزهم عن المقاومة إلاّ إنّ هذا لا ينفي أنّهم كانوا قادرين على أن يشغبوا عليه إذا لم يستجب لمطالبهم، ولم يكن عسيراً عليه إدراك أنّ من الأفضل له عدم إثارتهم بحرمانهم من الامتيازات الثابتة لهم بحكم كونهم زعماء قبليين.

ويجب علينا حين ندرس سياسة معاوية المالية أن نضع خطّاً فاصلاً بين الشام وبين سائر الولايات الإسلاميّة؛ لأنّ الشام قد تمتّعت برخاء حقيقي؛ والسرّ في ذلك هو أنّ جند الشام كان عماد معاوية في حروبه، فلم يسعه إلاّ أن يسترضيه بالأموال.

ونلاحظ أنّه كان يُنفق على جيشه الذي بلغ ستين ألف جندي، ستين مليون درهم في السنة[1]، على أنّه لا يفوتنا أن نلاحظ أنّ هذا الرخاء لم يكن من حظّ عرب الشام أجمع، وإنّما كان لقبائل اليمن وحدها، وأمّا قبائل قيس فكانت تُعاني شظف العيش؛ لأنّه لثقته بولاء اليمن له لم يأبه لقيس، فلم يفرض لها في العطاء إلاّ في وقت متأخّر بعد أن خشي على سلطانه من قوّة قبائل اليمن[2].

وأما سائر الولايات الإسلاميّة فقد ذاقت الطبقات الفقيرة فيها طعم البؤس، وعانت ألواناً من الاستعباد والإفقار، بلا فرق في ذلك بين المسلمين وبين الداخلين في ذمّة الإسلام، فقد اهتمّ معاوية بجمع المال دون أن يهتمّ بمصادره وأساليب جبايته، واتّخذ من هيمنته على مصادر الجباية وبيت المال ذريعة إلى التحكّم في أعدائه المغلوبين على أمرهم، والذين لا يقدرون على إزاحته عن الحكم. وهناك بعض الشواهد على ما نقول.

كتب معاوية إلى عمّاله بعد عام الجماعة:

---

(١) انظر: تأريخ الإسلام ٤٧٥/١.

(٢) انظر: التمدن الإسلامي - زيدان ٧٤/٤ - ٧٥.

«... انظروا إلى مَنْ قامت عليه البيّنة أنّه يُحبّ علياً وأهل بيته فامحوه من الديوان، واسقطوا عطاءه ورزقه. وشفع ذلك بنسخة أخرى: مَنْ اتّهمتموه بموالاة هؤلاء القوم فنكّلوا به واهدموا داره»[1]. وكثيراً ما كان الأنصار يمكثون بلا عطاء، ولا ذنب لهم إلاّ أنّهم ينصرون أهل البيت عليهم السلام[2].

وكانوا إذا عصاهم أحد من المسلمين قطعوا عطاءه ولو كان العاصون بلداً برمّتها[3].

وكان من جملة الأساليب التي اتّبعها معاوية لحمل الحسين عليه السلام على بيعة يزيد حرمان جميع بني هاشم من عطائهم حتّى يُبايع الحسين عليه السلام[4].

وكتب إلى زياد بن سميّة عامله على العراق: « اصطف لي الصفراء والبيضاء ». فكتب زياد إلى عمّاله بذلك، وأمرهم أن لا يُقسموا بين المسلمين ذهباً ولا فضّة[5].

وكتب إلى وردان عامله على مصر أن زد على كلّ امرئ من القبط قيراطاً. ولكن وردان كان أعدل من معاوية،

---

(١) انظر: شرح نهج البلاغة « بتحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم » ١١/٤٤ - ٤٦.

(٢) انظر: التمدن الإسلامي ٤/٧٦.

(٣) انظر المصدر نفسه.

(٤) انظر: الكامل في التاريخ - لابن الأثير ٢/٢٥٢، الإمامة والسياسة ١/٢٠٠.

(٥) انظر: التمدن الإسلامي ٤/٧٩.

فكتب إليه: «كيف أزيد عليهم وفي عهدهم ألاّ يُزاد عليهم؟ »[١].

وكان ذلك هو شأنه في تحريض عمّاله على جمع الأموال، وهم يخترعون الطرق للاستكثار منها[٢].

وفرض ضريبة على الأهالي تُقدّم إليه يوم النيروز، فكان يُجبى منها عشرة ملايين درهم[٣]، وهو أوّل مَنْ استصفى أموال الرعية[٤].

وها هو معاوية يُعطي عمرو بن العاص[٥] أرض مصر وأموالها وسكّانها المعاهدين ملكاً حلالاً له. وقد جاء في صك هذا العطاء: أنّ معاوية أعطى عمرو بن العاص مصر وأهلها هبة يتصرّف كيف يشاء.

مصر التي كتب علي بن أبي طالب للأشتر عامله عليها وثيقة تُعتبر من أعظم حقوق الإنسان على مدى

---

(١) انظر: تأريخ الإسلام السياسي ٤٧٤/١.

(٢) انظر: التمدن الإسلامي ١٩/٢.

(٣) انظر المصدر نفسه.

(٤) انظر المصدر نفسه.

(٥) أبو عبد الله أو أبو محمّد عمرو بن العاص بن وائل بن هاشم القرشي السهمي، وأمّه النابغة بنت حرملة، سُبيت من بني جبلان بن عتيك وبيعت بعكاظ، واشتراها الفاكه بن المغيرة، ثمّ انتقلت إلى عبد الله بن جدعان، ومنه إلى العاص بن وائل فولدت له عمراً.

أرسلته قريش إلى النجاشي ليغيّر رأيه على جعفر بن أبي طالب ومَنْ معه من المهاجرين إلى الحبشة، ويسترجعهم إلى مكة، فردّه النجاشي.

أسلم سنة ثمان، وقبل الفتح بستة أشهر، وافتتح مصر لعمر، ووليها إلى السنة الرابعة من خلافة عثمان، فعزله عنها، فأخذ يؤلّب عليه حتّى قُتل، ثمّ اشترك مع معاوية بصفين مطالباً بثأر عثمان، وأشار برفع المصاحف للصلح فانخدع جيش علي وقبلوا الصلح، وعيّنوا أبا موسى من قبلهم، وعيّن معاوية عمراً، فغدر بأبي موسى وخلعا علياً، ونصب عمرو معاوية وأخذ مصر طعمة من معاوية، ووليها بعد قتل محمّد بن أبي بكر حتّى توفي سنة (٤٣ هـ) أو بعدها، ودفن هناك.

راجع ترجمته في جمهرة أنساب العرب - لابن حزم/١٥٤، وطبقات ابن سعد ٧/ق١٨٨/٢، المعارف - لابن قتيبة/٢٨٥، أُسد الغابة ٤٢٠/٤، الكامل في التاريخ ٢٣٢/٢، البداية والنهاية ٢٧٥/٤، شرح النهج - لابن أبي الحديد ٢٠/١ و٥٣/٨، مقاتل الطالبيّين/٤٤.

العصور غدت عند معاوية سلعة تُباع وتُشترى.

وهاك نموذجاً من سلوك عمرو بن العاص في مصر: سأله صاحب أخنا بمصر أن يُخبره بمقدار ما عليه من الجزية، فأجابه: « لو أعطيتني من الأرض إلى السقف ما أخبرتك ما عليك، إنّما أنتم خزانة لنا، إن كثر علينا كثرنا عليكم، وإن خفف عنّا خففنا عنكم »[(١)].

وحين استولى معاوية على العراق نقل بيت المال من الكوفة إلى دمشق، وزاد في جرايات أهل الشام، وحطّ من جرايات أهل العراق[(٢)]. وقد أوضح فلسفته في جميع المال بقوله: « الأرض لله، وأنا خليفة الله، فما آخذ من مال الله فهو لي، وما تركته كان جائزاً لي ».

وكان معاوية على أن يولي على العراق - موطن الولاء لآل البيت - أشخاصاً من أعداء آل البيت عليهم السلام ؛ ليضمن تنفيذ سياسة الإرهاب والإذلال والتجويع في العراق بسهولة، وليستطيع أن يمنح العراقيين امتيازات يعلم أنّ ولاته - بسبب من حقدهم - لا ينفذونها، فيفوز بحسن السمعة دون أن يتخلّى عن مبادئه.

ونذكر نموذجاً لذلك هو أنّه أمر لأهل الكوفة: « بزيادة عشرة دنانير في أعطيتهم، وعامله يومئذ على الكوفة وأرضها النعمان بن بشير[(٣)]، وكان عثمانياً، وكان يبغض أهل الكوفة لرأيهم في علي عليه السلام ،

(١) انظر: التمدن الإسلامي ٤/٧٩ - ٨٠.

(٢) انظر: الدولة العربية وسقوطها - بوليوس ولهاوزن/١٥٨.

(٣) النعمان بن بشير الأنصاري الخزرجي، ولد قبل وفاة النبي صلى الله عليه وآله بثماني سنين وسبعة أشهر، وقيل: =

فأبى النعمان أن ينفذها لهم، فكلّموه وسألوه بالله فأبى أن يفعل.

ولما استرحمه عبد الله بن همام السلولي وطلب إليه في قطعة شعرية مؤثّرة أن ينجز لهم الزيادة، قال: « والله لا أُجيزها ولا أُنفذها أبداً »[1].

* * *

وهكذا حرم المسلمون من أموالهم لتُنفق هذه الأموال على الزعماء القبليين، والقادة العسكريين، وزمر الكذّابين على الله ورسوله.

وقد طُبّقت هذه السياسة - سياسة الإرهاب والتجويع - بالنسبة إلى

= بست سنين، وكان هواه مع عثمان،، ثمّ مع معاوية، ثمّ مع يزيد في أيام الفتن خلافاً لقومه، وكان انتهازياً مُرتزقاً، يبيع دينه وضميره لأي شيطان يدفع الثمن، وكان من المتقرّبين عند عثمان.

ولما قُتل عثمان أخذ النعمان قميصه، وأصابع زوجته نائلة، وباعهما إلى معاوية، فعلّق معاوية القميص وعليه الأصابع ليستثير أهل الشام.

وقد عمل النعمان أميراً على الكوفة لمعاوية، ومن بعده ليزيد... وفي ذات يوم جهّزه معاوية بالسلاح والرجال وأمره بالغارة على عين التمر في العراق، ولما ورد الخبر بذلك إلى الإمام عليه السلام استنهض الناس فتثاقلوا وتجاهلوا، فقال: « مُنيت بمَنْ لا يطيع إذا أمرت، ولا يجيب إذا دعوت ».

تُفيض هذه الكلمات بالأسى والألم، ومثلها كثير في كلام الإمام عليه السلام؛ وما ذاك إلاّ لأنّه كان يهتمّ برعيّته وبالإنسان أيّما كان أكثر من اهتمامه بنفسه وأهله، ولكن ما يصنع وكلّ ما لاقاه الإمام عليه السلام وقاساه من جنده وأصحابه تجمعه وتحكيه كلمة واحدة، وهي قوله: « أُريد أن أُداوي بكم وأنتم دائي، كناقش الشوكة بالشوكة »؟! انظر: شرح النهج - الخطبة (١٢١)، لا شيء أشدّ قسوة من داء دواؤه داء.

وولاّه معاوية الكوفة، ثمّ حمص. وفي زمن معاوية بن يزيد دعا إلى بيعة عبد الله بن الزبير فقتله شيعة بني أميّة بمرج راهط في ذي الحجّة سنة (٦٤ هـ) كما جاء ذلك في ترجمته في أُسد الغابة ٢٢/٥، والإصابة ٥٢٩/٣ تحت رقم ٨٧٣٠، والطبري في تأريخه ٧٧/٦، وابن الأثير ١٥٠/٣، وشرح النهج - لابن أبي الحديد ٢١٢/١، وابن كثير في تاريخه ٣١٩/٧.

(١) انظر: الأغاني ٢٩/١٦ - ٣٢ طبعة دار الكتب.

المسلمين عموماً، وبالنسبة إلى كلّ مَنْ اتّهم بحبّ علي وآله على الخصوص. لقد كان حبّ علي عليه السلام سرطان الحكم الأموي، فعزموا على قطعه تماماً.

ويُقدّم لنا يوليوس ولهاوزن صورة مُعبّرة عن الآثار السياسيّة والاجتماعيّة التي خلّفتها هذه السياسة في المجتمع العراقي في ذلك الحين: « لقد غُلب أهل العراق في صراعهم مع أهل الشام... وضاع منهم دخل الأراضي التي استولوا عليها، وصار عليهم أن يقبلوا بأُجور هي فتات موائد أسيادهم، وكانوا مغلوبين على أمرهم، تغلبهم عليه تلك الصدقات التي هم محتاجون إليها، والتي في يد الأُمويّين تخفيفها أو إلغاؤها، فلا عجب إذاً في أن يروا في حكم أهل الشام نيراً ثقيلاً، وأن يتأهّبوا لدفعه متى سنحت الفرصة المواتية لهم بذلك.

وازدادت الضغينة على الأُمويّين بسبب عدائهم للنبي والعقيدة الإسلاميّة بما انضمّ إليها من الشكاوى على السلطان التي أصبحت الآن شكاوى من الأُمويّين، وهم أصحاب السلطان، وهي النقاط أنفسها تُعاد وتُكرر؛ عمّال يسيئون استعمال سلطانهم، وأموال للدولة تذهب إلى جيوب عدد قليل من الناس، بينما لا يحصل غيرهم على شيء.

وكان زعماء القبائل والأسر في الكوفة يشاركون غيرهم منذ الأصل هذا الشعور، بيد أن وضعهم الذي يُلقي بالمسؤولية على عاتقهم جنح بهم إلى أن يعتصموا بالحيطة والحكمة، فلا يشرعون في القيام بثورة لا هدف لها، بل

يردون الجماهير عنها حين ينطلقون فيها، وها هم أولاء باسم السلام والنظام يضعون نفوذهم تحت تصرّف الحكومة؛ كيلا يُعرضوا وضعهم للأخطار، وإذا هم يُصبحون أعداء أكثر فأكثر للشيعة الحقيقيين، وأعداء لهم يشتدّ عداؤهم يوماً بعد يوم، تلك الشيعة التي لم ينقض من تمسكها بورثة الرسول ﷺ إخفاقها في تحقيق رغباتها... بل زاد فيه. وكانت مقاومتها للإرستقراطية القبلية تُضيق الخناق عليها »[1].

---

(١) انظر: الدولة العربية وسقوطها - يوليوس ولهاوزن/٥١ - ٥٢ و٥٣ و٥٦.

إحياء النزعة القبلية واستغلالها

دعا الإسلام إلى ترك التعصّب للقبيلة والتعصّب للجنس، واعتبر الناس جميعاً سواء من حيث الإنسانيّة المشتركة، وأقام مبادئه وتشريعاته على هذه النظرة الصائبة إلى الجنس البشري. وفي الحديث: « المؤمنون إخوة؛ تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمّتهم أدناهم، وهم يد على مَنْ سواهم »(١).

وممّا روي عن النبي ﷺ أنّه قال في خطبته في حجّة الوداع: « أيّها الناس، إنّ الله تعالى أذهب عنكم نخوة الجاهليّة وفخرها بالآباء، كلكم لأدم وأدم من تراب، ليس لعربيٍّ على عَجَميٍّ فضل إلاّ بالتقوى »(٢).

وروي عنه ﷺ :

---

(١) انظر: مسند أحمد ١٩٢/٢ ح٦٧٩٧، صحيح ابن حبان ٣٤١/١٣، المستدرك على الصحيحين ١٥٣/٢ ح٢٦٢٣، مجمع الزوائد ٢٨٣/١، سنن أبي داود ١٨٠/٤ ح ٤٥٣٠.

(٢) انظر: سنن البيهقي ١١٨/٩، سبل الهدى والرشاد ٢٤٢/٥، شرح نهج البلاغة - لابن أبي الحديد ٢٨١/١٧، بحار الأنوار ٣٥/٣١.

« مَنْ قاتل تحت عَمية، يغضب لعصبيّة، أو يدعو إلى عصبيّةٍ، أو ينصر عصبيّةً، فقُتل، قُتل قتلةً جاهليّة »[١].

وقال الله تعالى مبيّناً في الكتاب الكريم المقياس الإسلامي في التفاضل: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ)[٢].

بهذه الروح الإنسانيّة الرحبة الآفاق دعا الإسلام إلى النظر إلى اختلاف القبائل والشعوب، وبهذه الروح الإنسانيّة الرحبة حاول الإسلام أن يجعل من القبائل العربية المسلمة أمّة واحدة لا يمزّقها التناحر القبلي الجاهلي، وإنّما تربط بين أفرادها أخوّة الإسلام، ورسالة الإسلام، وحاول أن يجعل من المسلمين جميعاً - على اختلاف أوطانهم ولغاتهم - أمّة واحدة متماسكة، تجمعها وحدة العقيدة، ووحدة الهدف والمصير.

وقد عمل النبي صلى الله عليه وآله طيلة حياته بأقواله وأعماله على تركيز هذه النظرة الإسلاميّة في وجدان المسلمين، وجعلها حقيقة حيّة في تفكيرهم، وتابعه على ذلك علي عليه السلام ؛ فعمل على تركيزها بأعماله وأقواله طيلة حياته، بعد أن شهد عهد عثمان انحرافاً خطيراً عن هذه النظرة الإسلاميّة، واتجاهاً خطيراً نحو الروح الجاهلي والعصبية القبلية التي اتّبعها هو وعمّاله[٣].

ولا نزال حتّى اليوم نحس

(١) انظر: مسند الروياني ١٤١/٢ ح٩٥٩، صحيح ابن حبان ٤٤٠/١٠ ح٤٥٧٩، مجمع الزوائد ٢٤٤/٥.

(٢) سورة الحجرات/١٣.

(٣) قد بيّنا في صدر هذه الرسالة أنّ الروح القبلية بُعثت في وقت مبكر جدّاً بالنسبة إلى هذا التاريخ. نعم، يُعتبر عهد عثمان عهد استفحالها وظهور آثارها الوبيلة في المجتمع الإسلامي، وقد ظهرت هذه =

بحرارة نضال علي عليه السلام في هذا المجال، وإنْ ما سلم من أيدي الحوادث من آثار علي عليه السلام الكلامية في هذا الموضوع على قلّته ليدلّنا على عمق النظرة التي نظر بها علي عليه السلام إلى التكوين القبلي للمجتمع، ويدلّنا على وعيه لمدى خطر هذا التكوين القبلي على المجتمع الإسلامي.

ومن أبرز الآثار الباقية من كلامه في هذا الموضوع الخطبة القاصعة، وهي وثيقة عظيمة الأهمية في الدلالة على وجهة نظره عليه السلام[1].

أمّا معاوية فقد استغل هذه الروح في ميدانَين؛ فقد أثار بالقول والفعل

= العصبيّة من عثمان حينما حكّم بني أُميّة في رقاب الناس، وقد اعتبر كثير من المسلمين في هذا العمل تعصّباً قبلياً مجافياً لروح الإسلام. ومن سعيد بن العاص والي الكوفة يوم قال في ملأ من رجال القبائل ردّاً على أحدهم: « إنّما السواد بستان لقريش ». فردّ عليه الأشتر النخعي قائلاً: « أتزعم أنّ السواد الذي أفاءه الله علينا بأسيافنا لك ولقومك؟! ». فوقعت الوحشة بين قريش وسائر القبائل من ذلك الحين. انظر: التمدن الإسلامي - زيدان ٤/٥٧ - ٥٨.

أضف إلى هذا سلوك معاوية في الشام وعبد الله بن سعد بن أبي شرح في مصر، وعبد الله بن عامر في البصرة. منه رحمه الله.

(١) وما كان علي عليه السلام ليتعصّب وهو الذي ذمّ العصبية في الخطبة (القاصعة)، وردّ أصلها إلى تعصّب إبليس للنار ضدّ الطين: « أمّا إبليس فتعصّب على آدم لأصله، وطعن عليه في خلقته فقال: أنا ناري، وأنت طيني. وأمّا الأغنياء من مترفة الأمم فتعصّبوا لآثار مواقع النعم، فقالوا: (نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلاداً وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ) . فإن كان لا بدّ من العصبية، فليكن تعصّبكم لمكارم الخصال، ومحامد الأفعال ». انظر: نهج البلاغة - الخطبة ١٩٢.

وليست الدعوة ضدّ العصبية دعوة هيّنة، فالعصبية سبب لمصائب كثيرة كان منها حروب كثيرة أثارها التعصّب للجنس، أو الدين، أو اللون، أو المذهب، أو الوطن، ولعل مما بين كراهته عليه السلام للتعصّب، وهو حقيق أن يكره التعصّب لِما ذاق من تعصّب أهل الشام لمعاوية، قوله: « ليس بلد بأحقّ بك من بلد، خير البلاد ما حملك ». انظر: نهج البلاغة - الخطبة ٤٤٢.

وانظر: نهج البلاغة (نشر مكتبة الأندلس - بيروت) ٣/٢٣ - ٤٨، وراجع للمؤلف: دراسات في نهج البلاغة - طبعة النجف ١٩٥٦ - في فصلي (المجتمع والطبقات الاجتماعيّة) و(الوعظ) ففيهما دراسة مستوفاة من هذا الموضوع.

العصبية القبلية عند القبائل العربية ليضمن ولاءها عن طريق ولاء زعمائها من ناحية، وليضرب بعضها ببعض حين يخشاها على سلطانه من ناحية أخرى. وآثار العصبية العنصرية عند العرب عموماً ضدّ المسلمين غير العرب، وهم الذين يُطلق عليهم المؤرّخون اسم الموالي.

ففي حياة علي عليه السلام سلك معاوية سبيل الدسّ والتآمر على حكم علي عليه السلام عن طريق إثارة الروح القبلية في سكّان العراق من القبائل العربية، فتارة يُلوّح لزعماء هذه القبائل بالامتيازات الماديّة والاجتماعيّة التي يخصّ بها الزعماء القبليون في الشام؛ ومن هنا صارت الشام ملاذاً لمنْ يغضب عليه الإمام عليه السلام من هؤلاء الزعماء لجناية جناها، أو خيانة خانها في عمله، ومطمحاً لمنْ يريد الغنى والمنزلة، فيجد عند معاوية الإكرام والعطاء الجزل، والمنزلة الاجتماعيّة الرفيعة.

وقد كتب الإمام علي عليه السلام إلى سهل بن حنيف[1] عامله على المدينة في شأن

---

(١) سهل بن حنيف الأنصاري، أبو ثابت، وأنّه ممّن ثبت يوم أحد مع رسول الله صلى الله عليه وآله لما انهزم الناس، وبايعه على الموت، وجعل ينضح يومئذ بالنبل مع رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقال عنه رسول الله صلى الله عليه وآله : « نبّلوا سهلاً؛ فإنّه سهل ».

انظر: المستدرك على الصحيحين ٤٠٩/٣، شرح الأخبار ٥٣/٢، شرح نهج البلاغة - لابن أبي الحديد ٢٥٢/١٤، الطبقات الكبرى ٤٧١/٣، سير أعلام النبلاء ٣٢٨/٢، الإصابة ١٦٦/٣، تاريخ المدينة ٤٩٠/٢، المنتخب من ذيل المذيل/١٧.

وكان بدرياً، وشهد المشاهد كلّها مع رسول الله صلى الله عليه وآله ، وكان من نقباء ليلة العقبة، ثمّ صحب علي بن أبي طالب عليه السلام حين بويع بالخلافة، وقد استخلفه على المدينة لما سار إلى البصرة، وشهد معه صفين، وولاّه بلاد فارس.

وكان في بدء الإسلام عام الأوّل من الهجرة يكسر أصنام قومه ليلاً، فيحملها إلى امرأة مسلمة من الأنصار لا زوج لها يقول لها: خذي فاحتفظي بهذا. وكان أمير المؤمنين عليه السلام يذكر ذلك عنه بعد موته متعجّباً.

وقال عندما توفّي سهل بن حنيف الأنصاري بالكوفة بعد مرجعه معه من صفين، وكان أحبّ الناس إليه: « لو أحبّني جبل لتهافت ». انظر: نهج البلاغة - الحكمة ١١١، تحف العقول/٣٤٤، =

قوم من أهلها لحقوا بمعاوية: « أمّا بَعْدُ، فَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ رِجَالاً مِمَّنْ قِبَلَكَ يَتَسَلَّلُونَ إِلَى مُعَاوِيَةَ، فَلا تَأْسَفْ عَلَى مَا يَفُوتُكَ مِنْ عَدَدِهِمْ، وَيَذْهَبُ عَنْكَ مِنْ مَدَدِهِمْ؛ فَكَفَى لَهُمْ غَيّاً وَلَكَ مِنْهُمْ شَافِياً فِرَارُهُمْ مِنَ الْهُدَى وَالْحَقِّ، وَإِيضَاعُهُمْ إِلَى الْعَمَى وَالْجَهْلِ؛ فَإِنَّمَا هُمْ أَهْلُ دُنْيَا مُقْبِلُونَ عَلَيْهَا، وَمُهْطِعُونَ إِلَيْهَا، وَقَدْ عَرَفُوا الْعَدْلَ وَرَأَوْهُ، وَسَمِعُوهُ وَوَعَوْهُ، وَعَلِمُوا أَنَّ النَّاسَ عِنْدَنَا فِي الْحَقِّ أُسْوَةٌ فَهَرَبُوا إِلَى الأَثَرَةِ، فَبُعْداً لَهُمْ وَسُحْقاً! إِنَّهُمْ وَاللهِ لَمْ يَنْفِرُوا مِنْ جَوْرٍ، وَلَمْ يَلْحَقُوا بِعَدْلٍ، وَإِنَّا لَنَطْمَعُ فِي هَذَا الأَمْرِ أَنْ يُذَلِّلَ اللهُ لَنَا صَعْبَهُ، وَيُسَهِّلَ لَنَا حَزْنَهُ إِنْ شَاءَ اللهُ، وَالسَّلامُ »[(١)].

وقد كان معاوية يجد دائماً أشخاصاً من هذا النوع في مجتمع العراق، وكان يتخلص بولائهم له، وطمعهم فيما عنده من مآزق حرجة[(٢)].

وكان يتمتعّ بحس يوفّق به إلى إثارة هذه الروح في الوقت المناسب، وبحيث يبدو فعله منسجماً مع

= شرح نهج البلاغة - لابن أبي الحديد ١٨/٢٧٥، شرح نهج البلاغة - لمحمد عبده ٤/٢٦.

ولما مات سنة (٣٨ هـ) بالكوفة كبّر عليه علي بن أبي طالب عليه السلام خمس تكبيرات، ثمّ مشى ساعة فوضعه، ثمّ كبّر عليه خمساً أخرى، فصنع ذلك حتّى كبّر عليه خمساً وعشرين تكبيرة، ثمّ كفّنه في بُرد أحمر حبرة. انظر: تذكرة الفقهاء ١/٤٣، الكافي ٣/١٤٩ ح٩، التهذيب ١/٢٩٦، وسائل الشيعة ٢/٧٢٦ ح٣.

انظر: تهذيب التهذيب ٤/٢٢٠ ح ٤٣٩، تحف العقول/٣٤٤، سبل السلام ٢/١٠٣، كشف القناع ٢/١٣٩، المحلى ٥/١٢٦، كتاب الأمّ ١/٣٢٣ و٧/١٧٨، المغني ٢/٣٩٣، الشرح الكبير ٢/٣٤٩، تهذيب الأحكام ٣/٣١٥ ح ٩٧٧، المعتبر - للعلاّمة الحلّي ٢/٣٥٧، أُسد الغابة ٢/٣٦٤، سير أعلام النبلاء ٢/٣٢٥، الكافي ٣/١٨٦ ح٢، التهذيب ٣/٣٢٥ ح١٠١١، فقه الرضا/١٨٨، الاستبصار ١/٤٨٤ ح١٨٧٦، المقنعة - للشيخ المفيد/٢٣.

(١) انظر: نهج البلاغة - الرسالة ٧٣.

(٢) انظر: كتاب صفّين - نصر بن مزاحم/٨، ١٠٨، ٣٤٥ - ٣٤٦.

ما يقتضيه الإنصاف والعدل، كقوله لشبث بن ربعي[1] وقد سفر عنده لعلي مع زعيمين آخرين من أهل العراق في صفين: « أوّل ما عرفت به سفهك، وخفّة حلمك قطْعك على الحسيب الشريف سيد قومه منطقه. يعني سعيد بن العاص الهمداني »[2].

ومن ذلك ما كان منه في شأن النزاع الذي حدث حول رياسة كندة وربيعة، فقد كانت للأشعث بن قيس الكندي، فعزله عنها علي عليه السلام ودفعها لحسّان بن مخدوج من ربيعة، فلمّا بلغ ذلك معاوية أغرى شاعراً كنديّاً يقول شعراً يهيج به الأشعث وقومه، فقال شعراً عظّم به شأن الأشعث وقومه، وهجا به حسّان وربيعة، ولكنّ أهل اليمن فطنوا إلى ما يريد معاوية، فقد قال شريح بن هانئ: « يا أهل اليمن، ما يريد صاحبكم إلاّ أن يُفرّق بينكم وبين ربيعة »[3].

وهكذا نراه يسعى إلى أن يؤجج القبلية بين القبائل العربية؛ فيلقي بينها العداوة والبغضاء، ويثير فيها إحن الجاهليّة وأحقادها.

---

(١) هو أبو عبد القدوس شبث بن ربعي التميمي، كان مع المتنبئة ثمّ أسلم، ثمّ سار مع الخوارج ثمّ تاب، وعمّر إلى ما بعد المختار.

انظر: الجمهرة/٢١٦، وابن سعد في طبقاته ٦/٢١٦، وقعة صفين/٩٧ و٩٨ و١٨٧ و١٩٥ و١٩٧ و١٩٩ و٢٠٥ و٢٩٤، معجم الفرق الإسلاميّة/٢١٤، الملل والنحل - للشهرستاني ١/١٠٦ لتجد أنّ شبث بن ربعي من زعماء الخوارج، وكان دينه تكفير علي وعثمان، وأصحاب الجمل والحكمين في صفين.

انظر: المعارف - لابن قتيبة/٤٠٥، حيث قال: إنّ شبث بن ربعي أذّن لها - أي أذّن لسجاح. والإمامة والسياسة/١٤٩ و١٦٩ على الرغم من أنّه ذكره باسم شيث بن ربعي. تاريخ الطبري ٥/٢٤٠، الأخبار الطوال/١٧٢.

(٢) انظر: كتاب صفّين - نصر بن مزاحم/٢٠٩ - ٣١١.

(٣) انظر: كتاب صفّين/١٥٣ - ١٥٦.

وأرسل معاوية في سنة (٣٨) للهجرة ابن الحضرمي إلى البصرة ليضرم الفتنة بين قبائلها بإثارة ذكريات حرب الجمل، وقتل عثمان، وقال له: « فانزل في مضر، واحذر ربيعة، وتودّد الأزد، وانع ابن عثمان، وذكّرهم الوقعة التي أهلكتهم، ومن لمنْ سمع وأطاع دنياً لا تفنى، وأثرة لا يفقدها »[١].

وقد وفق ابن الحضرمي إلى حدٍّ ما في إثارة إحن القبائل، وكأنّما سرت هذه النار التي أججها ابن الحضرمي بين قبائل البصرة إلى قبائل الكوفة؛ للقرابة النسبيّة التي بين القبائل هنا وهناك. فقال علي عليه‌السلام يخاطب قبائل الكوفة بهذه المناسبة من جملة كلام له: « وإذا رأيتم الناس بينهم النائرة، وقد تداعوا إلى العشائر والقبائل، فاقصدوا لهامهم ووجوههم بالسيف حتّى يفزعوا إلى الله، وإلى كتابه وسنّة نبيّه؛ فأمّا تلك الحميّة فإنّها من خطرات الشياطين، فانتهوا عنها - لا أباً لكم! - تُفلحوا وتنجحوا »[٢].

* * *

وحينما بويع معاوية بالخلافة لم تخضع له البلاد الإسلاميّة كلّها خضوعاً تامّاً، فقد كان هنالك الشيعة الذين يوالون علياً وأهل بيته، وكان هنالك الخوارج الذين يتّفقون مع الشيعة في عدائهم للأمويِّين، وكان هنالك قبائل العراق التي لم تنظر بعين الارتياح إلى نقل بيت المال إلى الشام، وإلى تفضيل أهل الشام في العطاء على أهل العراق[٣].

هذا مضافاً إلى أنّ كثيراً من المسلمين كانوا يرون في

(١) انظر: الغارات ٣٧٨/٢، شرح نهج البلاغة - لابن أبي الحديد ٣٧/٤.

(٢) انظر: تأريخ الطبري ٨٤/٤ - ٨٦.

(٣) انظر: الدولة العربية/١٠٨.

انتصار الأُمويّين انتصاراً للوثنية على الإسلام؛ لذلك كلّه كرهوا الأُمويّين وغطرستهم، وكبريائهم وإثارتهم للأحقاد القديمة، ونزوعهم للرّوح الجاهليّة[1].

ولقد واجه معاوية هذه الموجة العارمة من البغضاء التي قوبل بها حكمه بأنماط متعدّدة من السلوك كان منها - ولعلّه أهمّها - ضرب القوى العقائدية المعادية للحكم الأموي بعضها ببعض، وإثارة الرّوح القبلية على نطاق واسع يكفل له انشقاق القبائل بتأثير أحقادها الصغيرة، ويخلق بينها حالة من التوتّر تجعل من المتعذّر عليها أن تتوحّد، وأن تنظر إلى الحكم الأموي نظرة موضوعية، وبذلك فاز معاوية بتفتيت المعارضة بعوامل داخلية تنبع من صميم المعارضة نفسها.

ولم تكن هذه السياسة هي اللون المفضّل عند معاوية بالنسبة إلى سائر القبائل فحسب، بل كانت بهذه المنزلة عنده بالنسبة إلى أسرته الأموية ذاتها أيضاً، ففد كان - كما يقول ولهاوزن - يسعى إلى أن يدخل القطيعة بين مختلف فروع الأسرة الأموية بالمدينة ليقضي بذلك على شوكتهم[2].

وإذا كانت هذه هي خطّته بالنسبة إلى أسرته ذاتها فليس لنا أن نطمع منه بسلوك أنبل بالنسبة إلى سائر القبائل التي كان يخشاها على سلطانه؛ لأنّ الدوافع المشتركة كانت توحّدها في الوقوف ضدّه.

ولا يجد الباحث صعوبة كبيرة في اكتشاف هذا الخُلق في معاوية؛ فتأريخه مليء بالشواهد عليه. فبراعته في استغلال ما لشعراء عصره من تأثير عظيم في الرأي العام من

---

(١) انظر: تأريخ الإسلام السياسي ١/٢٧٨ - ٢٧٩.

(٢) انظر: الدولة العربية/١١٢ نقلاً عن الطبري، وفي شرح نهج البلاغة ١١/١٩ نقلاً عن الجاحظ: « وكان معاوية يحبّ أن يغري بين قريش ».

أجل مصالحه الخاصّة جعلته يستغل هؤلاء الشعراء في هذا الميدان، فيحرّضهم على القول في موضوعات الفخر والهجاء كالذي كان بين القبائل في الجاهليّة[1].

ومن ذلك موقف شاعره الأخطل من الأنصار، فقد واصل شعراء الأنصار هجاء معاوية على أساس ديني، فردّ عليهم الأخطل بهجاء قبلي جاهلي، ونظم فيهم قصيدته التي يقول فيها:

ذهبـــت قـــريش بالمكـــارم والعُـــلا   واللـــؤم تحـــت عمـــائم الأنصـــارِ[2]

ولا يصعب علينا أن نعرف الدوافع التي دفعت معاوية إلى اتّخاذ هذا الموقف من الأنصار، فقد كانوا يقفون في صف المعارضة للحكم الأموي إلى جانب الأُسر القرشية البارزة التي أحفظها أن تفوز أميّة بالحكم دونها؛ لأنّهم لم ينظروا بعين الارتياح إلى استيلاء أعداء الإسلام ونبيّه على الحكم بهذه السهولة، ولعلّه قدّر أنّ إثارة الأحقاد القديمة التي خلّفتها حروب الإسلام القديمة كفيلة بأن تنال من هذا الاتّحاد بين الأنصار وبين المنافسين لأميّة من قريش.

ومن جهة أخرى نراه يسعى إلى تفتيت وحدة الأنصار بإثارة الأحقاد الجاهليّة التي كانت بين الحيين الأوس والخزرج، فيضرب إحدى القبيلتين بالأُخرى. وقد توصّل إلى ذلك ببراعة؛ فقد كان يوعز إلى المعنيين بإنشاد الشعر الجاهلي الذي تهاجت به القبائل قبل الإسلام.

قال أبو الفرج الأصفهاني:

---

(١) انظر: تأريخ الشعوب الإسلاميّة - بروكلمان ١٤٨/١، قصة الأدب في العالم - أحمد أمين ١ - ٣٧٢.

(٢) انظر: تأريخ الشعر السياسي - أحمد الشايب/٣٠٨ - ٣٠٩، تأريخ مدينة دمشق ٢٩٨/٣٤، أُسد الغابة ٣٨١/٢، طبقات الشعراء/٣٩٢.

«كان طويس[1] ولعاً بالشعر الذي قالته الأوس والخزرج في حروبهم، وكان يريد بذلك الإغراء، فقلّ مجلس اجتمع فيه هذان الحيّان فغنى فيه طويس إلاّ وقع فيه شيء... فكان يُبدي السرائر ويُخرج الضغائن »[2].

وهذا عبد الله بن قيس الغطفاني، من قيس عيلان اعتدى على كثير بن شهاب الحارثي، فكتب ناس من اليمانية إلى معاوية أنّ سيدنا ضربه خسيس من غطفان، فإن رأيت أن تُقيدنا من أسماء بن خارجة. فحمّقهم معاوية.

وقال كثير بن شهاب: والله لا أستقيدها إلاّ من سيد مضر. فغضب معاوية، وأمّن عبد الله وأطلقه، وأبطل ما فعله بابن شهاب فلم يقتصّ ولا أخذ له عقلاً[3].

وحين تعرف أنّ أشدّ الناس إخلاصاً لعلي عليه السلام في العراق كانوا من قبائل اليمن، يتّضح لنا لماذا يتعصّب معاوية لمضر العراق على يمن العراق.

هذا بالإضافة إلى أنّ السلطة حين تكفّ عن أن تكون حكماً بين القبائل في منازعاتها تسعى هذه القبائل إلى أن تقتصّ لنفسها، وتتناحر فيما بينها، وهي النتيجة التي يطمح إليها معاوية.

أمّا في الشام فتراه يتعصّب لليمن على مضر؛ فقد تقرّب إلى قبيلة كلب اليمانية فتزوّج ميسون أُمّ يزيد، وهي ابنة بجدل زعيم قبيلة كلب، وزوّج ابنه

(١) هو عيسى بن عبد الله، مولى بني مخزوم، وهو أوّل مَنْ غنّى بالعربي بالمدينة، وأوّل مَنْ ألقى الخُنث فيها، وهو مشؤوم؛ لأنّه ولد يوم وفاة النبي صلى الله عليه وآله، وفطم يوم موت أبي بكر، وبلغ يوم مقتل عمر، وتزوّج يوم مقتل عثمان، وولد له يوم مقتل علي. انظر: سير أعلام النبلاء ٤/٣٦٤، الأغاني ٣/٣٧، تفسير القرطبي ١٢/٢٣٦.

(٢) انظر: الأغاني ٢/١٧٠، تأريخ الإسلام السياسي ١/٥٣٥، فجر الإسلام/٢٨٠.

(٣) انظر: تأريخ الشعر السياسي/١٦٠ - ١٦١.

يزيد من هذه القبيلة أيضاً. وقد اعتمد حروبه ومؤامراته على هذه القبيلة وعلى قبائل اليمن الأخرى: علكّ، والسكاسك، والسكون، وغسّان وغيرها، واضطهد مضر الشام فلم يفرض عطاءً لقيس وهي من مضر؛ لثقته العظيمة بكفاءة أنصاره اليمانيين.

وهكذا مسكين الدارمي، وهو شاعر يخشى لسانه ويُرجى، طلب من معاوية أن يفرض له في العطاء فلم يجبه إلى ذلك؛ لأنّه مضري، فقال شعراً يرقق به قلب معاوية فلم يلتفت إليه. وقد سببت هذه المحاباة اعتزاز اليمن، فاشتدّ بأسها، واستطالت على الدولة، وتضعضعت قيس وسائر عدنان.

وسمع معاوية كلمة من بعض أهل اليمن أثارت مخاوفه، فرأى أن يضرب اليمانيين بالمضريّين، ففرض من وقته لأربعة آلاف من قيس وغيرها من عدنان، وبعث إلى مسكين يقول له: « لقد فرضنا لك وأنت في بلدك؛ فإن شئت أن تقيم بها أو عندنا فافعل؛ فإنّ عطاءك سيأتيك »[1].

* * *

ولقد كانت سياسة عمّال معاوية على أمصار الدولة هي سياسة معاوية

---

(١) انظر: التمدن الإسلامي ٧٤/٤ - ٧٥، وقد جنى معاوية من فعله هذا ولاء مسكين الدارمي، وها هو يزين له استخلاف يزيد بقوله:

ألا ليتَ شعري ما يقول ابنُ عامرٍ ومروانُ أم ماذا يقول سعيدُ

بني خلفاءِ اللهِ مهلاً فإنّما يُبوّئها الرحمان حيث يريدُ

إذا المنبرُ الغربيُّ خلاه ربُّه فإنّ أميرَ المؤمنين يزيدُ

انظر: تأريخ الشعر السياسي/٢٤١، الأغاني ٧١/٨، ولا يفوتنا أن نلاحظ أنّ البيت الأوّل يشهد لهذا التناحر الذي كان يعمل عمله في صميم الأسرة الأُمويّة، ويشير إلى الأسماء البارزة في هذا الصراع؛ عبد الله بن عامر، ومروان بن الحكم، وسعيد بن العاص. منه رحمه الله.

نفسه، فيعمد الوالي إلى إثارة العصبيات القبلية فيما بين القبائل؛ ليشغلها عن مراقبته والاتّحاد ضدّه، بالتناحر عنده فيما بينها.

وقد لاحظ ولهاوزن هذه الظاهرة، وقال عنها: «... وأججّ الولاة نار هذه الخصومة - يعني الخصومة بين القبائل - ولم يكن تحت تصرّف الولاة إلاّ شرطة قليلة، وفيما سوى ذلك كانت فرقهم من مقاتلة المصر، وهي قوّة الدفاع في القبائل، حتّى إذا أحسنوا التصرّف تهيّأ لهم أن يضربوا القبائل بعضها ببعض، وأن يثبتوا مركزهم بينهم.

وكثيراً ما كان يحدث أنّ الوالي يعتمد على إحدى القبائل ضدّ الأخرى، وبوجه عام على قبيلته التي أتى بها معه، حتّى إذا أتى والٍ جديد أتت قبيلة أخرى إلى الحكم، وينتج من ذلك أنّ القبيلة التي نُحّيت عن الحكم تُصبح عدوّاً لدوداً للقبيلة التي تحكم، وهكذا أضحت الميزات القبلية ملطّخة بالسياسة والخصام على الغنائم السياسيّة »[١].

وقد كان زياد بن سميّة من أبرع عمّال معاوية في هذا الميدان، وممّا يؤثر عنه أنّه عندما همّ القبض على حجر بن عدي الكندي[٢] أمر مُحَمَّد بن الأشعث

(١) انظر: الدولة العربيّة/٥٨.

(٢) هو حجر بن عدي الأبرد الكندي الملقّب بحجر الخير، وكان من فضلاء الصحابة، وفد إلى النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وشهد القادسية، وقد قتله معاوية صبراً، ويُقال: إنّه أوّل مَنْ قُتل صبراً في الإسلام. قُتل معه ستة من أصحابه، وهم: شريك بن شدّاد الحضرمي، وصيفي بن قبيل الشيباني، وقبيصة بن ضيعة العبسي، ومحرز بن شهاب السعدي، وكدام بن حيان العنزي، وعبد الرحمن بن حسّان العنزي.

وكان حجر ثقة =

الكندي بالقبض عليه هادفاً من وراء ذلك إلى زرع بذور الشقاق في كندة، وهي من أقوى قبائل الكوفة؛ ليستريح من وحدتها، ويلهي كلاً من أنصار حجر وأنصار مُحَمَّد بأعدائه الجدد، ولكنّ يقظة حجر فوّتت على زياد هذه الفرصة، فسلّم نفسه إلى السلطة طوعاً[1].

وقد قال عنه ولهاوزن: «... ولكنّ الواقع أنّه لم يقض في الكوفة على ثورة الشيعة بواسطة الشرطة، بل بعون من القبائل نفسها... وتمكّنه الغيرة القائمة بين القبائل من أن يضرب بعضها ببعض »[2].

وقال عنه أيضاً:

= عيناً، ولم يرو عن غير علي عليه السلام شيئاً، وهو الذي افتتح مرج عذراء، وكان شريفاً في قومه مطاعاً، آمراً بالمعروف، صالحاً عابداً يلازم الوضوء، وباراً بأمّه، كثير الصلاة والصيام.

انظر: ترجمته في شرح نهج البلاغة ١٥/١٠٠، طبقات ابن سعد ٦/١٥١ و١٥٤، المستدرك ٣/٤٦٨، الاستيعاب ١/١٣٤ الرقم ٥٤٨ طبعة حيد آباد، أُسد الغابة ١/٣٨٥، سير أعلام النبلاء ٣/٣٠٥ الترجمة رقم ٣١٤، تاريخ الذهبي ٣/٢٧٦، تاريخ ابن الكثير ٨/٥٠، الإصابة ١/٣١٥، تأريخ الطبري ٢/١١١ - ١٤٩ و٥/٢٧٧، تأريخ ابن الأثير ٣/٤٠٣ و٤٠٤، وقعة صفّين/١٠٣، مروج الذهب ٣/٣ - ٤، تهذيب الكمال ٥/٤٨٥ الرقم ١١٤١، المعارف - لابن قتيبة/٣٣٤، الأغاني ١٦/١٠، تأريخ مدينة دمشق ٢/٣٧٩، مسند أحمد ٤/٤٢١، والمعجم الكبير - للطبراني ١/٤٢٧، والعقد الفريد ٤/٣٤٥، وتهذيب ابن عساكر ٧/٢٠٦، وصفوة الصفوة ١/٢٣٨، وسيرة ابن هشام ٤/١٧٩.

(١) وترى عند أحد رفقاء حجر، وهو قبيصة بن ربيعة العبسي، تنبّهاً لهذه الأساليب؛ فقد قال لأبي شريف البدري حين قدم ليقتل في مرج عذراء: « إنّ الشرّ بين قومي وقومك آمن، فليقتلني سواك. فقال: برّتك رحم. ثمّ قتله القضاعي ».

(٢) انظر: الدولة العربيّة/١٠٥ - ١٠٦.

«... وعرف زياد كيف يخضع القبائل بأن يضرب إحداها بالأخرى، وكيف يجعلها تعمل من أجله، وأفلح في ذلك »[1].

وقد سلك ابنه عبيد الله هذا المسلك حين ولاّه معاوية البصرة بعد أبيه، وممّا يؤثر عنه في هذا الباب أنّه أغرى بين صديقيه الشاعرين أنس بن زنيم الليثي وحارثة بن بدر الفداني، وكان يُكره أحدهما على هجاء الآخر وقومه حتّى وقع بينهما شرّ بسبب ذلك، وعبيد الله ماضٍ في الإيقاع بينهما[2].

وقد كان المغيرة بن شعبة والي الكوفة من قبل معاوية يتّبع نفس هذا الأسلوب، فعندما ولي الكوفة جعل من همّه أن يُفسد ما بين الخوارج والشيعة، وبذلك استطاع أن يشغل الكوفيين عن معارضة الأُمويّين معارضة فعّالة[3].

وها هو يصرّ على أن يدفع بصفوة الشيعة في الكوفة والبصرة إلى حرب الخوارج، ويُجهّز جيشاً منهم لهذه الغاية[4].

وقد كانت عاقبة هذه السياسة أن عادت إلى الاشتعال من جديد تلك العداوات والأحقاد القديمة التي كانت بين القبائل، وكان من نتائجها بعد ذلك ظهور الشعر السياسي الحزبي والقبلي. فقد شبّت نيران الهجاء بين شعراء الشيعة والخوارج والأُمويّين، واشتعلت نيران الهجاء والمفاخرات القبلية بين القبائل نفسها، وعاضد الشعراء القبليون الأحزاب بدوافع قبلية، فقد انضمّ الأخطل إلى الأُمويّين على قيس عيلان أعداء قومه التغلبيين، ثمّ انضمّ إلى الفرزدق على

---

(١) انظر: المصدر السابق/٢٠٧.

(٢) انظر: الأغاني/٢١ - طبعة الساسي.

(٣) انظر: تأريخ الشعوب الإسلاميّة ١/١٤٦.

(٤) انظر: تأريخ الطبري ٤/١٧٥.

جرير؛ لأنّ جريراً كان لسان القيسية على تغلب، وكان الفرزدق تميمياً، وجرير أخذته قيس عيلان.

وقد تقمصّت هذه العصبية القبلية شكلاً دينياً حينما أخذت القبائل تسعى إلى اختراع الأحاديث في فضلها تنسبها إلى النبي ﷺ ؛ وذلك إنّ هذه القبائل لما كانت تتنازع الرياسة، والفخر، والشرف وجدت في الأحاديث باباً تدخل منه إلى المفاخرة كالذي وجدته في الشعر، فكم من الأحاديث وضعت في فضل قريش، والأنصار، وأسلم، وغفار، والأشعريين، والحميريين، وجهينة، ومزينة[1].

وسنرى أنّ معاوية قد استأجر بعض تجّار الدين لاختلاق الأحاديث في مديحه ومديح أسرته، ولعلّ مساعيه هذه هي التي حملت الآخرين على اختلاق الأحاديث في تمجيد قبائلهم.

* * *

وهكذا بثّ معاوية روح البغضاء والنفرة بين القبائل العربيّة، فشغلت هذه القبائل بأحقادها الصغيرة عن مقارعة خصمها الحقيقي، الحكم الأموي، وشغل زعماء هذه القبائل بالسعي عند الملوك الأُمويّين للوقيعة بأعدائهم القبليين، وفاز معاوية - وحلفاؤه من بعد - بكونه حكماً بين أعداءٍ هو الذي أشعل نيران العداء بينهم من حيث لا يشعرون، ووحّدهم في طاعته من حيث لا يدرون.

وقد دفعهم هذا الوضع إلى أن يقفوا دائماً مع الحاكمين ضدّ الثائرين؛ ليحافظوا على الامتيازات الممنوحة لهم، ويخذّلون عنها بل ويتسابقون في استخدام أقصى ما يملكونه من نفوذ ودهاء في هذا السبيل؛ للتأكيد على ولائهم التام للسلطة القائمة.

وقد لاحظ ولهاوزن:

---

(١) انظر: فجر الإسلام - أحمد أمين/٢١٣.

« إنّ وضعهم - زعماء القبائل - جنح بهم إلى أن يعتصموا بالحِطية والحكم، فلا يشرعون في القيام بثورة لا هدف لها بل يردّون الجماهير عنها عندما ينطلقون فيها، وها هم أولاء باسم الإسلام والنظام يضعون نفوذهم تحت تصرّف الحكومة؛ كيلا يُعرضوا وضعهم للأخطار »[١].

والشواهد التي تدلّ على صدق هذه الملاحظة عمّا آل إليه أمر المسلمين بسبب استفحال الروح القبلية كثيرة جدّاً، وسيمر بعضها فيما يأتي من هذه الدراسة.

* * *

والعمل الآخر الذي قام به معاوية في هذا المجال هو إثارته للعصبية العنصرية عند العرب عموماً ضدّ المسلمين غير العرب، وقد أغرى هذا الموقف رؤساء القبائل العراقية فاندفعوا ينصحون الإمام علياً عليه السلام قائلين: « يا أمير المؤمنين، أعطِ هذه الأموال، وفضّل هؤلاء الأشراف من العرب وقريش على الموالي والعجم، واستمل مَنْ تخاف خلافه من الناس »[٢].

ناظرين إلى ما يصنع معاوية، ولكنّ الإمام علياً عليه السلام أجابهم قائلاً: « أَتَأْمُرُونِّي أَنْ أَطْلُبَ النَّصْرَ بِالْجَوْرِ فِيمَنْ وُلِّيتُ عَلَيْهِ؟! وَاللهِ لا أَطُورُ بِهِ مَا سَمَرَ سَمِيرٌ، وَمَا أَمَّ نَجْمٌ فِي السَّمَاءِ نَجْماً. لَوْ كَانَ الْمَالُ لِي لَسَوَّيْتُ بَيْنَهُمْ، فَكَيْفَ وَإِنَّمَا الْمَالُ مَالُ اللهِ...؟! »[٣].

---

(١) انظر: الدولة العربيّة/٥٢.

(٢) انظر: الغارات ١/٧٥، شرح نهج البلاغة - لابن أبي الحديد ٢/٢٠٣، الإمامة والسياسة ١/١٧٣.

(٣) انظر: نهج البلاغة - الخطبة ١٢٦.

أمّا السياسة الأُمويّة فلها من الموالي موقف آخر.

« تخاصم عربي ومولى بين يدي عبد الله بن عامر، فقال المولى للعربي: لا أكثر الله فينا مثلك.

فقال العربي: بل كثّر الله فينا مثلك.

فقيل له: يدعو عليك وتدعو له؟!

وقال: نعم، يكسحون طرقنا، ويخرزون خفافنا، ويحوكون ثيابنا »[١].

وقالوا: لا يصلح للقضاء إلاّ عربي.

واستدعى معاوية بن أبي سفيان الأحنف بن قيس، وسمرة بن جندب، وقال لهما: « إنّي رأيت هذه الحمراء قد كثرت، وأراها قد قطعت على السلف، وكأنّي أنظر إلى وثبة منهم على العرب والسلطان، فقد رأيت أن أقتل شطراً، وأدع شطراً لإقامة السوق وعمارة الطريق »[٢].

وكان هذا الموقف العدائي من الموالي سبباً في امتهانهم وإرهاقهم بالضرائب، وفرض الجزية والخراج عليهم، وإسقاطهم من العطاء، فكان الجنود الموالي يُقاتلون من غير عطاء.

وكانوا يقولون: لا يقطع الصلاة إلاّ ثلاثة؛ حمار، أو كلب، أو مولى[٣]. وكانوا لا يُكنّونهم بالكُنى، ولا يدعونهم إلاّ بالأسماء والألقاب، ولا يمشون في الصف معهم، ولا يُقدّمونهم في الموكب، وإن حضروا طعاماً قاموا على رؤوسهم، وإن أطعموا المولى لسُنّه وفضله وعلمه أجلسوه

(١) انظر: تأريخ مدينة دمشق ٢٦/١٠، قريب منه.

(٢) انظر: تأريخ مدينة دمشق ٢٤/٣٢٠، قريب منه.

(٣) انظر: العقد الفريد ٢/٢٧٠، طبعة مصر سنة ١٩٣٥ م، تأريخ التمدن الإسلامي ٤/٣٤١.

على طريق الخبّاز؛ لئلاّ يخفى على الناظر أنّه ليس من العرب، ولا يدعونهم يُصلّون على الجنائز إذا حضر أحد من العرب وإن كان غَريراً.

وكان الخاطب لا يخطب المرأة منهم إلى أبيها ولا إلى أخيها، إنّما يخطبها إلى مواليها، فإن رضي مولاها زوّجت وإلاّ فلا. وإن زوّجها الأب أو الأخ بغير إذن مواليه فُسخ النكاح، وإن كان قد دخل بها عُدّ ذلك سفاحاً. وإذا أقبل العربي من السوق ومعه شيء فرأى مولىً دفعه إليه ليحمله عنه فلا يمتنع، ولا السلطان يُغيّر عليه، وكان إذا لقيه راكباً وأراد أن ينزل فعل[١].

وقد سبّب هذا الموقف اللاإنساني من الموالي شقّ عصا المسلمين، وتراكم الأحقاد والعداوات بينهم، وكان سبباً في انعدام الرقابة الشعبية على الحاكمين.

* * *

وقد استمر هذا الداء الوبيل ينخر في جسم الأمّة الإسلاميّة حتّى مزّقها شرّ ممزّق، وقضى على وحدتها التي أنشأها الإسلام وقذف بها في عُباب حروب طاحنة أتت على روابط الألفة والمحبّة، وزرعت بين طوائفها الإحن والبغضاء.

ولقد كانت هذه السياسة التي سنّها معاوية وحلفاؤه لتدعيم سلطانهم بتحطيم وحدة الأمّة سبباً حاسماً في تحطيمهم، وتمكين أعدائهم منهم في نهاية المطاف[٢].

---

(١) انظر: العقد الفريد ٢/٢٦٠ - ٢٦١، ضحى الإسلام ١/١٨ - ٣٤، التمدن الإسلامي ٤/٦٠ - ٦٤ و٩١ - ٩٦.

(٢) للتوسع في موضوع القبلية انظر: أنساب الأشراف - البلاذري ١/١٨ - ٣٤، تأريخ العرب - فيليب حتّى ٢/٣٥٠ - ٣٥٢، تأريخ الشعوب الإسلاميّة - بروكلمان ١/١٥٦ - ١٥٧، الدولة العربيّة - ولهاوزن/١٦٥ - ١٧٣ و٤٠٣ و٤١٤ - ٤١٥ و٤١٨ - ٤١٩، تاريخ الإسلام السياسي - حسن إبراهيم حسن ١/٣٣٧ - ٣٤١، مختصر تأريخ العرب - سيد أمير علي /٦٣ - ٦٧ و٧٨ و١١٣ - ١١٤. منه رحمه الله.

التحذير باسم الدين وشلّ الروح الثوريّة

« المأخذ الدائم الذي يؤخذ على الأمويّين هو أنّهم كانوا أُصولاً وفروعاً أخطر أعداء النبي ﷺ ، وأنّهم اعتنقوا الإسلام في آخر ساعة مرغمين، ثمّ أفلحوا في أن يحوّلوا إلى أنفسهم ثمرة حكم الدين أوّلاً بضعف عثمان، ثمّ بحسن استخدام نتائج قتله، هذا وأصلهم يفقدهم مزية زعامة أُمّة مُحَمَّد ﷺ .

ومن المحن التي بُلي بها حكم الدين أنّهم أصبحوا قائمين عليه، مع أنّهم كانوا ومافتئوا مغتصبين لسلطانه، وقوّتهم في جيشهم الذي هو على قدم الاستعداد في الشام، ولكنّ قوّتهم لا يمكن أن تُصبح حقّاً »(١).

بهذه المشاعر ونظائرها واجه المسلمون الحكم الأُموي، وقد أراد معاوية أن يتغلّب على هذا الشعور العام بسلاح الدين نفسه، كما أراد التوصّل إلى تحطيم ما لأعدائه من سلطان روحي على المسلمين عن هذا الطريق أيضاً، وقد برع في الميدان كلّ البراعة، وواتته الظروف عليه فبلغ منه أقصى ما يرجو.

---

(١) انظر: الدولة العربيّة/٥٣، تأريخ الإسلام السياسي ١/٢٧٨ - ٢٧٩.

وقد حفظ لنا التأريخ بعض الأسماء البارزة من أعوان معاوية في هذا اللون من النشاط.

قال ابن أبي الحديد: « ذكر شيخنا أبو جعفر الإسكافي إنّ معاوية وضع قوماً من الصحابة، وقوماً من التابعين على رواية أخبار قبيحة في علي عليه السلام تقتضي الطعن فيه والبراءة منه، وجعل لهم على ذلك جُعلاً يرغب في مثله، فاختلقوا ما أرضاه. منهم؛ أبو هريرة، وعمرو بن العاص، والمغيرة بن شعبة، ومن التابعين عروة بن الزبير »[1].

وقد استعمل معاوية هؤلاء الأشخاص في سبيل إيجاد تبرير ديني لسلطان بني أُميّة، أو على الأقل لكبح الجماهير عن الثورة برادع داخلي هو الدين نفسه، يعمل مع الروادع الخارجية: التجويع، والإرهاب، والانشقاق القبلي.

هذا بالإضافة إلى مهمّة أساسية أخرى ألقاها معاوية على عاتق هؤلاء الأشخاص، وهي اختلاق « الأحاديث » التي تتضمّن الطعن في علي عليه السلام وأهل بيته، ونسبتها إلى النبي صلى الله عليه وآله.

ويوضّح لنا النصّ الآتي مدى اتّساع الشبكة التي كوّنها معاوية، ومدى تجاوبها مع رغباته: كتب معاوية نسخة واحدة إلى عمّاله بعد عام الجماعة: « أن برئت الذمّة ممّن روى شيئاً من فضل أبي تراب وأهل بيته. فقامت الخطباء في كلّ كورة وعلى كلّ منبر يلعنون علياً، ويبرؤون منه، ويقعون فيه وفي أهل بيته »[2].

---

(١) انظر: شرح نهج البلاغة ٤/٦١.

(٢) معاوية أوّل مَنْ لعن الإمام علي عليه السلام على منابر المسلمين. =

فقامت الخطباء في كلّ كورة وعلى كلّ منبر يلعنون علياً ويبرءون منه... وكتب إلى عمّاله أن لا تقبلوا لأحد من شيعة علي وأهل بيته شهادة[1].

= انظر: شواهد التنزيل ٤٥٩/٢، فرائد السمطين ١٥٥/١ ب٣١ ح١١٧ ط بيروت، تأريخ مدينة دمشق ٣٤٨/٢ و٤٤٣ ح٨٥١ الطبعة الثانية ح٩٥٩، لسان الميزان ١٧٥/١، أنساب الأشراف ١٠٣/٢ و١١٣، أحمد بن حنبل ح٤٦/٧٢ ط قم، كفاية الطالب ب ٦٢/ ٢٤٤ و٢٤٦، كنز الحقائق/٨٢ و٩٢ و١٣١، المناقب - للخوارزمي/٦٢ و١٨٧ فصل ١٧ ح١١ فصل ٩، نور الأبصار/٧٠ و١٠١، الصواعق المحرقة/٩٦ و١٦١ ولكن زعم أنّه يروي الحديث بلفظ «... قال: ومَنْ عدوّي؟ قال: مَنْ تبرّأ منك ولعنك».

فقد سبّ أمير المؤمنين عليه السلام، وذلك من خلال حبّه - ابن حجر - لمعاوية بن أبي سفيان الذي سبّ علياً عليه السلام، ولعنه في الأقطار الإسلاميّة، وطلب التبرّي منه، وإن لم يكن ذلك فالضرب والشتم والهتك والقتل للمؤمنين. وهذا المشهور لا يحتاج إلى برهان ودليل.

انظر: خصائص الوحي المبين/١٣١ فصل ٢١ الطبعة الأولى، الدر المنثور ٨٩/٦ و٣١٩ و٣٠٥/٧، مجمع الزوائد ١٣١/٩ و١٧/٧، وبشارة المصطفى/١٦٣، تفسير الطبري ١٨٦/٦ و٦٥٧/١٢ ط أُخرى، وذخائر العقبى/٨٨ و١٠٢، وروح المعاني ٢٠٧/٣٠ ط مصر، وتأريخ بغداد ٤٢١/٧، الأغاني ٣٩/١٨ الطبعة الأولى بيروت، والمسترشد في إمامة أمير المؤمنين/٣٥٤، وينابيع المودّة/٦٢ و٧٤ و٢٧٠ ط إسلامبول و٧١ و٨٤ و٣٦١ و٣٦٢ ط الحيدرية و١٩٦/١ و٢٢٣ ط أسوة و٣٥٧/٢ و٤٥٢ ط أسوة، وتذكرة الخواص/١٨، وفتح القدير - للشوكاني ٤٧٧/٥، إسعاف الراغبين بهامش نور الأبصار/١٧٢، جواهر العقدين ٢١٩/٢، وفي الصواعق المحرقة/١٦١ ب١١ فصل١.

(١) الشيعة أنفسهم اعتزّوا بهذا الاسم؛ فالسيد الحميري يردّ على لسان مَنْ قال له: يا رافضي، في محاولة للحطّ من شأنه، فيقول:

ونحنُ على زعمكَ الرافضون لأهلِ الضلالةِ والمنكرِ

انظر: كتاب الزينة - للرازي (مخطوط)، الفصول - للسيد المرتضى ٦١/١.

وذُكر أنّ عمّار الدهني شهد شهادة عند ابن أبي ليلى القاضي، فقال له: قم يا عمّار فقد عرفناك، لا تُقبل شهادتك؛ لأنّك رافضي.

فقام عمّار يبكي، فقال ابن أبي ليلى: أنت رجل من أهل العلم والحديث، إن كان يسوءك أن يُقال لك: رافضي، فتبرّأ من الرفض، وأنت من إخواننا.

فقال له عمّار: ما هذا ذهبت والله إلى حيث ذهبت، ولكنّي بكيت عليك وعليّ؛ أمّا بكائي على نفسي فنسبتني إلى رتبة شريفة لستُ من أهلها. انظر: تنبيه الخواطر ونزهة النواظر - للأشتري ١٠٦/٢.

وكتب إليهم: « أن انظروا مَنْ قبلكم من شيعة عثمان ومحبيه، والذين يروون فضائله ومناقبه فادنوا مجالسهم، وقرّبوهم وأكرموهم، واكتبوا إليّ بكلّ ما يروي كلّ رجل منهم، واسمه، واسم أبيه، وعشيرته »[1].

ففعلوا ذلك حتّى أكثروا في فضائل عثمان ومناقبه؛ لِما كان يبعثه معاوية إليهم من الصلات، والكساء، والحباء، والقطائع، ويفيضه في العرب منهم والموالي، فكثُر ذلك في كلّ مصر، وتنافسوا في المنازل والدنيا، فليس يجيء أحد مردود من الناس عاملاً من عمّال معاوية فيروي في عثمان فضيلة أو منقبة إلاّ كتب اسمه وقرّبه وشفّعه، فلبثوا بذلك حيناً.

« ثمّ كتب إلى عمّاله أنّ الحديث في عثمان قد كثُر، وفشا في كلّ مصر، وفي كلّ وجه وناحية، فإذا جاءكم كتابي هذا فادعوا الناس إلى الرواية في فضائل الصحابة والخلفاء الأوّلين، ولا تتركوا خبراً يرويه أحد من المسلمين في أبي تراب إلاّ وتأتوني بمناقض له في الصحابة؛ فإنّ هذا أحبّ إليّ، وأقرّ لعيني، وأدحض لحجّة أبي تراب وشيعته »[2].

فرويت أخبار كثيرة في مناقب الصحابة مفتعلة لا حقيقة لها، وجدّ الناس في

---

(١) انظر: نهج البلاغة - لابن أبي الحديد ١١/٤٤، فجر الإسلام - لأحمد أمين/٢٧٥.

(٢) انظر: شرح نهج البلاغة - لابن أبي الحديد ١١/٤٥، فجر الإسلام - لأحمد أمين/٢٧٦.

رواية ما يجري هذا المجرى حتّى أشادوا بذكر ذلك على المنابر، وأُلقي إلى معلمي الكتاتيب، فعلّموا صبيانهم وغلمانهم من ذلك الكثير الواسع حتّى رووه وتعلّموه كما يتعلّمون القرآن، وحتى علّموا بناتهم ونساءهم وخدمهم [وحشمهم].

فلبثوا بذلك ما شاء الله، فظهر حديث كثير موضوع وبهتان منتشر، ومضى على ذلك الفقهاء والقضاة والولاة، وكان أعظم الناس في ذلك بلية القُرّاء المراؤون، والمستضعفون الذين يظهرون الخشوع والنسك فيفتعلون الأحاديث؛ ليحظوا بذلك عند ولاتهم، ويُقربوا مجالسهم، ويُصيبوا به الأموال والضياع والمنازل... فلم يزل الأمر كذلك حتّى مات الحسن بن علي عليه السلام فازداد البلاء والفتنة[1].

وقد روى ابن عرفة المعروف بنفطويه - وهو من أكابر المحدّثين وأعلامهم - في تاريخه ما يناسب هذا الخبر، وقال: « إنّ أكثر الأحاديث الموضوعة في فضائل الصحابة افتعلت في أيام بني أُميّة؛ تقرّباً إليهم بما يظنّون أنّهم يرغمون به أنوف بني هاشم »[2].

وقد تجلّى « سخاء » معاوية في هذا الميدان بوضوح؛ فها هو ذا يبذل (للصحابي) سمرة بن جندب أربعمئة ألف درهم على أن يروي أنّ هذه الآية: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ * وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ

---

(١) انظر: شرح نهج البلاغة ١١/٤٥ - ٤٦.

(٢) انظر: شرح نهج البلاغة ١١/٤٦.

وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴾[1]، قد نزلت في علي بن أبي طالب، وأنّ الآية الثانية نزلت في ابن ملجم وهي قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴾[2]، فروى ذلك[3].

وأمّا أبو هريرة فقد كافأه بولاية المدينة؛ لأنّه روى عن النبي صلى الله عليه وآله في شأن علي عليه السلام وبني أُميّة ما يلائم ذوق معاوية وأهدافه السياسيّة[4].

وممّا يتصل بهذا ما تكشف عنه بعض النصوص أنّ من ملامح سياسة معاوية وجهازه إلغاء الرموز ذات المحتوى التأريخي الذي يعبّر عن قيمة دينية معينة ذات أثر اجتماعي، وذلك بما يعكسه الرمز ويثيره في الأذهان من صور تأريخيّة تتّصل بحياة النبي صلى الله عليه وآله ، وبالكفاح من أجل انتصار الإسلام.

---

(١) سورة البقرة/٢٠٤ - ٢٠٥.

(٢) سورة البقرة/٢٠٧.

(٣) انظر: شرح نهج البلاغة - لابن أبي الحديد ٧٨٩/١ الطبعة الحديثة بيروت و٧٣/٤. قال طه حسين: « لو ردّت إلى المسلمين أمورهم، وطلب إليهم أن يختاروا إماماً لما اختاروا معاوية بحال من الأحوال؛ لأنّهم بلوا سياسته، وخبروا عمّاله، فرأوا أنّ أمورهم تصير إلى شرّ عظيم... فهم يحكمون بالخوف لا بالرضا، ويُساسون بالرعب والرهب لا بما ينبغي أن يُساس به المسلمون من كتاب الله وسنّة نبيّه.

وأموالهم العامّة ليست لهم بل إلى ملكهم وولاتهم، يتصرّفون فيها ما يشتهون، لا على ما يقتضيه الحقّ والعدل والمعروف... ودماؤهم ليست حراماً على الملك وعمّاله، وإنّما يستحلّ منها الملك والعمّال ما حرم الله... لا إقامة لحدود الدين، ولكن تثبيتاً لسلطان الملك ». انظر: الفتنة الكبرى - ٢ - علي وبنوه - للدكتور طه حسين/١٣١ - ١٣٢.

(٤) انظر: شرح نهج البلاغة - لابن أبي الحديد ٦٧/٤ و٦٩ و ٧٣.

من هذه السياسة ما يكشف عنه النصّ الذي يتضمّن أنّ معاوية وعمرو بن العاص أرادا أن يختبرا إمكانية إلغاء اسم « الأنصار » الذي اشتهر به الأوس والخزرج منذ عهد الرسول صلى الله عليه وآله ، وورد في القرآن الكريم اسماً لمسلمي المدينة كما كان اسم « المهاجرين » لمسلمي مكة قبل الهجرة[1].

ولا بدّ أنّ هدف هذه المحاولة هو تجريد الأنصار من القوّة المعنوية التي يسبغها هذا اللقب عليهم. قال عمرو لمعاوية: « ما هذا اللقب يا أمير المؤمنين؟ أردد القوم إلى أنسابهم. فقال معاوية: إنّي أخاف من ذلك الشَّنعة. فقال: هي كلمة تقولها، إن مضت عضّتهم ونقّصتهم ». ولكنّ الأنصار انتبهوا للمحاولة، فردّوها بحزم[2].

وقد خلقت لنا هذه المدرسة - مدرسة معاوية في الرواية والحديث - ألواناً من الأحاديث النبويّة، منها ما يرجع إلى القدح في علي وآل بيته عليهم السلام ، وقد استفرغ معاوية غاية وسعه في هذا الميدان الذي قدّمنا لك آنفاً تعريفاً بأسلوب معاوية في خوضه[3].

---

(١) ورد لقب الأنصار في القرآن الكريم مرتين مقروناً بالمهاجرين في آيتين من سورة التوبة، تضمّنتا مدح الله تعالى لهم وثناءه عليهم: (وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) الآية ١٠٠، و (لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ) الآية ١١٧. منه رحمه الله.

(٢) انظر: الأغاني ١٦/٤٢ - ٤٣ و٤٨، طبعة دار الكتب.

(٣) ويظهر أنّ هذا الاتجاه اعتُبر سياسة ثابتة في مهمات الدولة الثقافية، فنجد أنّ هشام بن عبد الملك =

ومنها ما يرجع إلى تمجيد بني أُميّة - وعلى الأخص عثمان ومعاوية - ويجعلهم في مرتبة القدّيسين، كهذا الذي رواه أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله: إنّ الله ائتمن على وحيه ثلاثاً؛ أنا، وجبرئيل، ومعاوية[1].

وأنّ النبي صلى الله عليه وآله ناول معاوية سهماً، فقال له: خذ هذا حتّى تلقاني في الجنّة[2]، وأنا مدينة العلم، وعلي بابها، ومعاوية حلقتها[3]، وتلقون من بعدي اختلافاً وفتنة، فقال له قائل من الناس: فمَنْ لنا يا رسول الله؟ قال: عليكم بالأمين وأصحابه، يشير بذلك إلى عثمان[4].

= طلب من ابن شهاب الزهري أن يقول في قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ النور/١١، أي الذي تولّى كبره هو علي بن أبي طالب، فأبى وقال: هو عبد الله بن أبي سلول. وعندما طلب خالد من عبد الله القسري - والي العراق في عهد هشام بن عبد الملك - من ابن شهاب الزهري أن يكتب سيرة النبي صلى الله عليه وآله، يقول ابن شهاب: « فقلت له: فإنّه يمرّ بي الشيء من سيرة علي بن أبي طالب فأذكره؟ »، ولكنّ خالداً القسري رفض أن يأذن لابن شهاب في ذكر علي عليه السلام إلاّ إذا كان ذكره يتضمّن قدحاً وذمّاً.

انظر: ضحى الإسلام (الطبعة الخامسة) ٣٢٦/٢، نقله عن الأغاني ٥٩/١٩. منه رحمه الله.

(١) انظر: تأريخ مدينة دمشق ٧٤/٥٩، البداية والنهاية ١٢٠/٨.

(٢) انظر: تحف العقول/١٩٤.

(٣) انظر: كشف الخفاء ٢٣٦/١.

(٤) انظر: مسند أحمد ٣٤٥/٢، البداية والنهاية ٢٣٠/٦، كنز العمّال ٤٢/١٣، تأريخ مدينة دمشق ٢٦٧/٢٩، بغية الباحث/٢٩٤، ولا نريد التعليق على هذه الرواية الموضوعة سنداً ومتناً؛ لأنّه من غير المعقول أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله يوصي بأصحاب عثمان بن عفّان وهو يعلم سيرة مروان بن الحكم وأمثاله! بل نترك للقارئ المنصف أن يحكم بنفسه على مثل هذه الموضوعات.

ومنها ما يُحذّر المسلمين من الثورة، ويزيّن لهم الرضوخ، ويوهمهم أنّ الثورة على الظلم، والسعي نحو إقامة نظام عادل عمل مخالف للدين. وبديهي أنّ شيئاً من ذلك لم يصدر عن الله ولا عن رسوله.

ومن هذه الأحاديث ما عن عبد الله بن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ : إنّكم سترون بعدي أثرة وأموراً تنكرونها. قالوا: فماذا تأمرنا يا رسول الله؟ قال: أدّوا إليهم حقّهم، وسلوا الله حقّكم[١]. و « مَنْ رأى من أميره شيئاً يكرهه فليصبر عليه؛ فإنّ مَنْ فارق الجماعة شبراً فمات إلاّ ميتة جاهليّة »[٢]، و « ستكون هنات وهنات، فمَنْ أراد أن يفرّق أمر هذه الأمّة وهي جمع فاضربوه بالسيف كائناً ما كان »[٣].

وحدّث العجّاج[٤] قال: قال لي أبو هريرة: مَنْ أنت؟ قال: قالت: من أهل العراق. قال: يوشك أن يأتيك بقعان أهل الشام فيأخذوا صدقتك، فإذا أتوك فتلقّهم بها، فإذا دخلوها فكن في أقاصيها، وخلّ عنهم وعنها. وإيّاك

---

(١) انظر: صحيح البخاري ٨٣٧/٢ ح٢٢٤٧، سنن الترمذي ٤٨٢/٤ ح٢١٨٩، سنن البيهقي الكبرى ١٥٩/٨.

(٢) انظر: صحيح مسلم ١٤٤٧/٣ ح١٨٤٩، صحيح البخاري ٢٥٨٨/٦ ح٦٦٤٦، سنن الدارمي ٣١٤/٢ ح٢٥١٩، مسند أحمد ٢٧٥/١ ح٢٤٨٧.

(٣) نجد هذه النصوص وغيرها في البخاري وغيره من كتب الحديث. انظر: صحيح مسلم ١٤٧٩/٣ ح١٨٥٢، صحيح ابن حبّان ٢٥٥/١٠ ح٤٤٠٦، المستدرك على الصحيحين ١٦٩/٢ ح٢٦٦٥.

(٤) هو رؤبة بن العجّاج الباهلي.

أن تسبّهم؛ فإنّك إن سببتهم ذهب أجرك وأخذوا صدقتك، وإن صبرت جاءتك في ميزانك يوم القيامة[1]. وما شاكل هذا من الأحاديث التي تدعو المسلمين إلى الخضوع لأمرائهم الظالمين، وتحرّم عليهم الثورة على هؤلاء الأمراء طلباً لحقّهم.

إنّ هذه الأحاديث تدعو إلى الصبر على الظلم والجوع والإرهاب؛ لأنّ استنكار ذلك مخالف للدين.

وينطلق المأجورون من الوعّاظ والمحدّثين فينفثون هذه السموم في قلوب الجماهير المسلمة وعقولها، وبذلك يلجمونها عن التذمّر والثورة بلجام ينسبونه إلى الدين والدين منه بريء، يقعدون بها عن الاحتجاج على سياسة العسف والظلم، ويحجزونها عن محاولة تحسين حياتها.

* * *

هذا لون من ألوان التضليل الديني الذي ابتدعه الأُمويّون لتثبيت ملكهم. وهنا لون آخر من ألوان التضليل الديني استخدموه وبرعوا في استخدامه، وهو تأسيس الفرق الدينية السياسيّة التي تُقدّم للجماهير تفسيرات دينية تخدم سلطة الأُمويِّين وتبرّر أعمالهم.

ومن الأمثلة البارزة في هذا الميدان فرقة المرجئة، فقد كان الأُمويّون يواجهون الشيعة الذين يعتبرون بني أُميّة قتلة غاصبين لتراث النبي صلى الله عليه وآله، والخوراج الذين يرونهم كفرة تجب الثورة عليهم وإزاحتهم عن الحكم.

---

(١) انظر: عيون الأخبار ١/٧، الشعر والشعراء - لابن قتيبة/٥٧٢، شيخ المضيرة أبو هريرة/٢٣٤، غريب الحديث ٤/٢٠٦، الفائق في الحديث ١/١٠٦.

وكان كلّ واحد من هذين الفريقين يُقدّم بين يدي دعواه حججاً لا يملك الأُمويّون ما يُقابلها؛ لذلك أنشؤوا فرقة المرجئة التي قدّمت أدلّة مقابلة لأدلّة الشيعة والخوارج، ووقفت ضدّهم في ميدان النضال السياسي الديني.

ويحدّثنا ابن أبي الحديد أنّ معاوية كان يتظاهر بالجبر والإرجاء، وأنّ المعتزلة كفّروه لذلك(١). لقد اعتبروا المرجئة الإيمان عملاً قلبياً خالصاً لا يحتاج إلى التعبير عنه بفعل من الأفعال، فيكفي الإنسان أن يكون مؤمناً بقلبه ليعصمه الإسلام، ويحرم الاعتداء عليه، وهم ينادون: « لا تضرّ مع الإيمان معصية كما لا تنفع مع الكفر طاعة ».

وقالوا: « إنّ الإيمان الاعتقاد بالقلب، وإن أعلن الكفر بلسانه، وعبد الأوثان، ولزم اليهودية، والنصرانية في دار الإسلام، ومات على ذلك فهو مؤمن كامل الإيمان عند الله عزّ وجلّ ولي لله عزّ وجلّ، من أهل الجنّة »(٢). والنتيجة المنطقية لهذا اللون من التفكير هي أنّ الأُمويّين مؤمنون مهما ارتكبوا من الكبائر(٣).

ومن نتائج ذلك أنّ المرجئة لا يوافقون الخوارج والشيعة شرعية لا يجوز الخروج عليها، ولم يسلّم المرجئة بأنّ انصراف خلفاء بني أُميّة عن تطبيق أحكام الشريعة كافٍ لحرمانهم من حقوقهم كأولياء الأمر في

---

(١) انظر: شرح نهج البلاغة ١/٣٤٠.

(٢) انظر: الفصل في الملل والنحل ٤/٢٠٤.

(٣) انظر: تأريخ العرب - فيليب حتّي ٢/٣١٦.

الإسلام[١].

وقد كان المرجئة يبشّرون بهذه الأفكار بين صفوف الأمّة المسلمة؛ لأجل تخديرها وصرفها عن الاستجابة لدعاة الثورة على الأمويّين.

وبينما نجد الأُمويّين يضطهدون كلّ دعوة دينية لا تلائمهم نراهم بالنسبة إلى المرجئة على العكس من ذلك فهم يحتضنون هذه الفرقة ويعطفون على قادتها، وما ذلك إلاّ لأنّ معاوية سيّدهم هو واضع أسسها، وقد عرفت آنفاً إنّه كان يقول بالجبر والإرجاء.

من البيّن أنّ هذا الموقف الذي اتّخذه المرجئة من الأُمويّين يتعارض تعارضاً مطلقاً مع إدراك أُولئك الذين يؤيّدون مطالب العلويين. ويصوّر لنا هذان البيتان من الهجاء نظرة الشيعة إلى المرجئة:

إذا ما المُرجيّ سرّك أن تراه يموتُ بدائهِ من قبلِ موتهْ

فجدّد عندهُ ذكرى عليٍّ وصلِّ على النبي وآلِ بيتهْ[٢]

---

(١) لما استخلف يزيد بن عبد الملك بن مروان قال: سيروا بسيرة عمر بن عبد العزيز. فمكث كذلك أربعين ليلة، فأتى بأربعين شيخاً فشهدوا له أنّه ما على الخلفاء من حساب ولا عذاب.

انظر: ابن كثير/٢٣٢.

« وإنّ قوماً من المرجئة على رأسهم رجل يُقال له: أبو رُوّية، انضموا إلى يزيد بن المهلّب بن أبي صفرة في ثورته على يزيد بن عبد الملك بن مروان، ولما جاء مسلمة بن عبد الملك لقمع الثورة، وحرّض يزيد بن المهلّب الناس على القتال، قال ابن رُوّية: إنّا قد دعوناهم إلى كتاب الله، وسنّة نبيّه، وقد زعموا أنّهم قبلوا، فليس لنا أن نمكر ولا نغدر، ولا نريدهم بسوء.

فقال لهم يزيد بن المهلّب: ويحكم! أتصدّقون بني أُميّة؟! إنّهم أرادوا أن يجيبوكم ليكفّوكم منهم حتّى يعملوا في المنكر.

قالوا: لا نرى أن نفعل ذلك حتّى يردّوا علينا ما زعموا أنّهم قبلوه منّا » منه رحمه الله. انظر: تأريخ الطبري ٥٩٣/٦.

(٢) لاحظ في هذا الموضوع، فجر الإسلام - أحمد أمين/٢٧٩ - ٢٨٢ و٢٩١ - ٢٩٤، ضحى الإسلام ٣١٦/٣ - ٣٢٩، العقيدة والشريعة في الإسلام - إجناس جولد تسهر/٧٥ - ٧٧ و٢٩٥ هامش رقم ٢٠، ونسب إلى المأمون هذان البيتان كما جاء في مروج الذهب ٣٢٩/٣.

وإلى جانب ما تقدّم أعتمد الأُمويّون أسلوباً آخر من أساليب التضليل الديني لدعم حكمهم وصرف الناس عن الثورة عليهم؛ فقد واجه الأُمويّون خطراً ساحقاً عليهم من عقيدة القدرية القائلين بحرية الإرادة والاختيار، وإنّ الإنسان هو الذي يختار نوع السلوك والعمل الذي يمارسه في حياته، وإذا كان حرّاً فهو مسؤول عن أفعاله؛ لأنّ كلّ حرية تستتبع حتماً المسؤولية.

هذه العقيدة كانت خطراً على الأُمويّين الذي يفرّقون من رقابة الأُمّة عليهم وعلى تصرّفاتهم؛ ولذلك فقد اضطهدوا هذه العقيدة ودعاتها وتمسّكوا بالعقيدة المضّادة لها (عقيدة الجبر)[1]. فهذه هي العقيدة التي تلائمهم في الميدان السياسي؛ لأنّها توحي إلى الناس بأنّ وجود الأُمويّين وتصرّفاتهم مهما كانت شاذّة وظالمة ليست سوى قدر مرسوم من الله لا يمكن تغييره ولا تبديله، فلا جدوى من الثورة عليه.

وها هو معاوية يتظاهر بالجبر والإرجاء كما قدّمنا؛ لأجل تبرير أفعاله أمام الملأ بأنّها مقدورة لا سبيل إلى تبديلها، مع كونها في الوقت نفسه غير قادحة فيه باعتباره حاكماً دينياً.

ولا بدّ أنّه قد عهد بإذاعة أفكاره الخاصّة حول هاتين العقيدتين - الجبر والإرجاء - بين المسلمين إلى ولاته وأجهزة الدعاية عنده، ومنها القصّاص.

قال الليث بن سعد:

---

(١) انظر: النظم الإسلاميّة موريس غودفردا/٣٩. « في الخلاف الذي قام حول الجبرية ساند الخلفاء الأُمويّون فكرة إنكار الإرادة في أفعال الإنسان ».

« وأمّا قصص الخاصّة فهو الذي أوجده معاوية، ولّى رجلاً على القصص فإذا سلّم من صلاة الصبح جلس وذكر الله عزّ وجلّ، وحمده ومجّده، وصلى على النبي ﷺ ، ودعا للخليفة ولأهل بيته، وحشمه وجنوده، ودعا على أهل حربه، وعلى المشركين كافّة »[١].

وأمر رجلاً يقصّ بعد الصبح، وبعد المغرب يدعو له ولأهل الشام[٢]، ولا بدّ أنّ هذا الدعاء كان استهلالاً يبتدئ به القاصّ، ثمّ يأخذ بعده في قصصه.

ومثل معاوية لا يجعل الفوائد الجليلة التي يمكن أن تُقدّمها له عقيدة الجبر، فهو - وسائر الأمويّين - كانوا يعلمون أنّ أُسرتهم غير مُحتلمة من المسلمين، ويعلمون أنّهم في نظر كثير من رعاياهم مُختلسون. وصلوا إلى السلطة بوسائل قهريّة شديدة، وأنّهم أعداء لآل النبي ﷺ ، وقتلة لأشخاص مُقدّسين لا ذنب لهم، وإن كان ثمّة عقيدة تمسك الناس عن أن يثوروا عليهم وعلى ولاتهم لكانت عقيدة الجبر، هذه العقيدة التي توحي إلى الناس بأنّ الله قد حكم منذ الأزل أن تصل هذه الأسرة إلى الحكم، فأعمالهم وتصرّفاتهم ليست إلاّ نتيجة لقدر إلهي محكم، من أجل ذلك كان حسناً جدّاً لهم ولدولتهم أن تتأصّل هذه الأفكار في أذهان الأُمّة[٣].

---

(١) انظر: فجر الإسلام/١٥٩.

(٢) انظر: فجر الإسلام/١٦٠.

(٣) انظر: فجر الإسلام ٨١/٣، يقول الدكتور أحمد أمين: «... وبنو أُميّة - كما يظهر - كانوا يكرهون القول بحرية الإرادة، لا دينياً فقط، ولكن سياسياً كذلك؛ لأنّ الجبر يخدم سياستهم. فالنتيجة للجبر أنّ الله الذي يُسيّر الأمور قد فرض على الناس بني أُميّة كما فرض كلّ شيء، ودولتهم بقضاء الله وقدره، فيجب الخضوع للقضاء والقدر ». منه رحمه الله.

وقد استغل الشعر إلى جانب النصوص الدينية في سبيل تعزيز هذه الأفكار، فقد كان معاوية - كما يقول بروكلمان - قادراً على أن يفيد ممّا لشعراء عصره من تأثير عظيم في الرأي العام بسبيل مصالحه العائلية[1].

فكان معاوية - وملوك بني أُميّة من بعده - يسعون راضين شعراءهم بل ويحملون هؤلاء الشعراء على أن يقولوا الشعر الذي يُمجّدونهم فيه بنعوت تجعل سلطانهم وسيادتهم قدراً مقدوراً من الله، ومن أجل ذلك لا يمكن أن يثور المؤمن ضدّهم.

فمعاوية عند الأخطل ليس ملكاً كما وصف نفسه في ساعة من ساعات سهوه، بل خليفة الله، والظفر الذي حازه ليس ناشئاً من أسبابه الطبيعية وإنّما هو من صنع الله[2]:

إلى امــــرئ لا تعـــــدينا نوافلُـــــه   أظفـــرهُ اللهُ فليهنـــأ لـــهُ الظفـــرُ

الخـــائضُ الغمـــرَ والميمـــونُ طـــائرُه   خليفـــةُ اللهِ يُستســـقى بـــهِ المطـــرُ

ولم يُفضل الأمويّون غيرهم - عند الأخطل - بماضيهم المجيد في الجاهليّة ولا بسخائهم، ولا بنجدتهم وشجاعتهم، وإنّما فضّلهم الله. ولم يكن رفع المصاحف في صفّين خدعة تفتّق عنها ذهن ابن العاص، وإنّما هو إلهام من الله. وأخيراً فالله هو الذي مكّنهم من الثأر لعثمان حين أوصلهم إلى سدّة الحكم:

تمّـــت جـــدودُهمُ واللهُ فضّـــلهمْ   وجـــدُّ قـــومٍ ســـواهم خامـــلٌ نكـــدُ

هـــمُ الـــذينَ أجـــابَ اللهُ دعـــوتهمْ   لمـــا تلاقـــت نواصـــي الخيـــلِ واجتلـــدوا

---

(١) انظر: تأريخ الشعوب الإسلاميّة ١/١٤٨.

(٢) انظر: لسان العرب ٤/١٣٨.

ويـــوم صـــفّين والأبصـــارُ خاشـــعةٌ أمـــدّهم إذ دُعـــوا مـــن ربّهـــم مـــددُ

علـــى الأُلى قتلـــوا عثمـــانَ مظلمـــةً لم يـــنههم نشـــدٌ عنـــهُ وقـــد نُشـــدوا

والأخطل كسائر شعراء عصره ذو روح جاهليّة تعرف الفضل بالنسب وما إليه من عنعنات الجاهليّين، لا بالله، وتعرف النصر بالشجاعة والقوّة والكثرة والدهاء، لا بالله.

فهذا النفس الديني الذي يشبه أن يكون صوفيّاً؛ لكثرة ذكر الله فيه ليس من طبيعة الأخطل، وإنّما هو موحى به من ممدوحه، أو من هؤلاء الذين بثّهم معاوية لصوغ أفكاره الخاصّة بما يشيع بين العامّة؛ سواء كان ذلك بالرواية عن النبي صَلَّىاللهُعَلَيهِوَآلِهِ أو بالشعر.

ومسكين الدارمي يقول في شأن عقد ولاية العهد ليزيد:

ألا ليـتَ شـعري مـا يقـولُ ابـنُ عـامرٍ ومـــروانُ أم مـــاذا يقـــولُ ســـعيدُ

بـــني خلفـــاءِ اللهِ مهـــلاً فإنّمـــا يبوّئهـــا الرحمـــانُ حيـــثُ يريـــدُ

إذا المنـــبرُ الغـــربي خـــلاه ربُّـــه فـــإنّ أمـــيرَ المـــؤمنينَ يزيـــدُ[1]

وكما أنّ مذهب الجبر استُخدم لتبرير حال الأسرة الأُمويّة على العموم، فقد استخدم أيضاً في تهدئة الشعب حين كان يُبتلى، أو يُغرى بأن يرى في أعمال الحكّام والعمّال الظلم والطغيان[2].

---

(١) انظر: تأريخ الشعر السياسي/٢٤١، الأغاني ٨/٧١.

(٢) انظر: ضحى الإسلام ٣/٨١ - ٨٢، العقيدة والشريعة في الإسلام/٨٥ - ٨٧.

آثار سياسة معاوية في المجتمع الإسلامي

لقد رأينا أنّ سياسة الاضطهاد والتجويع خنقت نزعة الحرية في النفوس، وحملت الجماهير على أن ترضى بحياة ذليلة مُضطهدة؛ خشية أن تصير إلى لون من الحياة أقسى وأنكد. ورأينا أنّ الروح القبلية حوّلت الإنسان المسلم عن أهدافه العظيمة التي وجّهه إليها الإسلام، وشغلته بأهداف أخرى تتّصل بأفقه القبلي الضيّق وصنمه القبلي الجديد.

فهنا عامل نفسي وهو الخوف، وعامل اجتماعي وهو الوضع القبلي كانا يُقعدان بالإنسان المسلم عن الثورة، ويحملانه على تقبّل حياته على ما فيها من نكد وقسوة وحرمان، ولكنّهما ما كانا ليحملا الرضى الباطني لروحه القلقة المعذّبة، فقد كان يشعر بالإثم لسكوته عن الحكم الأموي، وقد كان يشعر بالإثم؛ لقعوده عن محاولة تطهير المجتمع من المنكرات التي يراها، وقد كان هذا الشعور بالإثم كفيلاً بأن يدفعه في النهاية إلى التغلّب على الخوف في نفسه وإلى تحطيم النطاق القبلي الذي يغلّه.

ولكن هذا الركن الثالث من أركان السياسة الأُمويّة - أعني التضليل الديني - تكفّل بإيجاد تبرير ديني للوضع الاجتماعي الشاذّ الذي كان عليه المجتمع

الإسلامي، وأُريد منه حمل الجماهير المسلمة على السكوت عن النقد، والقعود عن محاولة تغيير الوضع إلى مستوى أحسن، وبذلك يختفي الشعور بالإثم من الضمير الجماهيري، هذا الشعور الذي يدفع إلى الثورة حين يبلغ درجة ضغط عالية، وعندما يضمحلّ الشعور بالإثم يستقر المجتمع نهائياً.

فهناك عامل نفسي وديني يدفعه إلى الخضوع، وهناك عامل اجتماعي يجعله حتميّاً، وحينئذ يطمئن الحاكمون إلى أنّ تصرّفاتهم لن تثير أيّ استنكار لدى الجماهير.

كان هذا هو الوضع النفسي لهؤلاء الذين أخذوا بأساليب الأُمويِّين في التحذير الديني، وأمّا أُولئك الذين لم يُؤخذوا بهذا اللون من الدعاية، ولم تنطلِ عليهم أحابيل الأُمويِّين وأكاذيبهم فقد كان لهم وضع آخر لا يقلّ إثارة للأسى عن هذا الوضع.

لقد صار الأمر بهؤلاء الآخرين إلى ازدواج الشخصيّة؛ فقد عملت سياسة معاوية المالية، وأسلوبه الوحشي في التنكيل بأعدائه العزّل من السلاح، وتعليم الناس على الدجل والنفاق، والسكوت عن الحقّ، والتظاهر بخلاف ما يعتقدون توصّلاً إلى دنيا معاوية، وتمسّكاً بروحهم القبلية التي تفرض عليهم أن يتبعوا ساداتهم القبليين دون تروّ أو تفكير.

وهذا الوضع الشاذّ - الوضع الذي يفرض عليهم أن يخفوا دوماً ما يعتقدونه حقّاً واقعاً، وأن يتظاهروا بما تريده السلطة منهم - ولّد عندهم ازدواج الشخصيّة، هذا الازدواج الذي يرجع إليه سرّ المأساة الدامية الطويلة الأمد التي عاشها الثائرون على حكّام الجور من الأُمويِّين والعباسيين، ومَنْ تلاهم من الظالمين، هذا الازدواج الذي كان يعمل عمله في فضّ أعوان الثورة عنها بتأثير الشخصيّة الخارجيّة المنسجمة الأخرى، الشخصيّة التي تُطاردها السلطة وتُحاربها.

هذا الازدواج الذي صوّره الفرزدق

للحسين عليه السلام حين لقيه في بعض الطريق، فسأله عن أهل الكوفة: « قلوبهم معك وسيوفهم عليك »[1].

* * *

ولقد كانت هذه السياسة خليقة بأن تنتهي بالمجتمع الإسلامي إلى حالة تعسة من الذلّ والخنوع، ومن تفاهة الحياة، وأهداف تلك الحياة.

لقد كانت خليقة بأن تحوّل المسلم من إنسان يستبدّ به القلق لمصير الإنسانيّة كلّها، ويُعبّر عن هذا القلق بالاهتمام المباشر والعمل الإيجابي المؤدّي إلى التخفيف من ويلات الإنسان في كلّ مكان إلى إنسان قبلي ضيّق الأفق، يعيش داخل نطاق قوقعته القبلية التي كانت قبل الإسلام تغل الإنسان العربي داخل إطارها فتعوق شخصيّته عن النمو والامتداد خارج حدود كيانه القبلي، والتي عادت في عهد معاوية تعمل عملها المدمّر مرّة أُخرى.

ولقد كانت خليقة بأن تُحوّل من إنسان عقائدي تسير حياته على خطّ مستقيم - خطّ النضال من أجل العقيدة التي يحرّر بها غيره من الناس، ويردّ إليهم اعتبارهم الإنساني المسلوب - إلى إنسان لا ترتكز حياته على عقيدة، ولا يحفزه مطمح عظيم، إنسان تستبدّ به النزوات الطارئة، والمنافع القريبة، وتجعله تارة هنا وتارة هناك.

ولقد كانت خليقة بأن تحوّله من إنسان يعي وعياً عميقاً أنّ حياته الشخصيّة ليست ملكاً له بقدر ما هي ملك للجماعة الإنسانيّة، فإذا تعرضت الجماعة لتحدٍّ

---

(١) انظر: تأريخ الطبري ٢٩٠/٤ و٢١٨/٦ و٢٩٦/٣ طبعة أُخرى، الكامل في التاريخ - لابن الأثير ١٦/٤ و٥٤٧/٢، الفتوح - لابن أعثم ٧٩/٣، مقتل الحسين للخوارزمي ٢٢٣/١.

يهددها بذل حياته مغتبطاً في نضال هذا التحدّي إلى إنسان يحرص على هذه حرصاً شديداً مهما كانت ملقّعة بالذلّ، ومجلّلة بالعار، ومهما كانت مزيّفة وناصلة.

ولقد كانت خليقة بأن تحوّله من إنسان يحارب الظلم ويناجزه، ويثور عليه أيّاً كان مصدره - فيكره الظلم من نفسه ويحملها على العدل، ويكره الظلم من غيره، ويحمله على العدل - إلى إنسان يُكافح من أجل أن يكون ظالماً إذا لم تقهره قوّة على أن يكون مظلوماً.

وكانت خليقة بأن تحوّله من إنسان يفهم أنّ الدين لا يجعل من المؤمنين به عبيد الطاغية يحكمهم باسم الدين إلى إنسان يؤيّد الطّغاة الحاكمين. وكانت خليقة بأن تحوّله من إنسان يرى أنّ الثورة على سياسة التجويع والإرهاب حقّ إلى إنسان يُحارب الثائرين.

وتأريخ هذه الفترة من حياة المسلمين حافل بالشواهد على أنّ هذا التحوّل كان قد بدأ يظهر للعيان، ويطبع المجتمع الإسلامي بطابعه، ويمكننا أن نخرج بفكرة واضحة عن أثر هذه السياسة في المجتمع الإسلامي حين نُقارن بين ردّ الفعل الذي واجه به المسلمون سياسة عثمان وعمّاله، وبين موقفهم من سياسة معاوية؛ فقد كان ردّ الفعل لسياسة عثمان وعمّاله ثورة عارمة من معظم أقطار الأمّة المسلمة من المدينة ومكة، والكوفة والبصرة ومصر وغيرها من حواضر المسلمين وبواديهم.

فهل نجد ردّ فعل جماعيّاً كهذا لتحدّيات معاوية في سياسته اللاإنسانيّة للجماهير المسلمة، مع ملاحظة أنّ الظلم على عهد معاوية أفدح، والاضطهاد والقتل والإرهاب أعمّ وأشمل، وحرمان الأمّة من حقوقها في ثرواتها وإنتاجها أظهر؟

الحقّ إنّنا لا نجد شيئاً من ذلك أبداً؛ لقد كانت الجماهير خاضعة خضوعاً أعمى.

نعم، كانت ثمّة احتجاجات تنبعث من هنا تارة ومن هناك أخرى، تدلّ على أنّ المجتمع يتململ تحت وطأة الاضطهاد والظلم، كتلك التي عبّر عنها موقف حجر بن عدي، وعمرو بن الحمق الخزاعي وأضرابهما[1]، ولكنّها لم تأخذ مداها، ولم تُعبّر عن نفسها في حركة فعلية عامّة بل كانت سرعان ما تهمد وتموت في مهدها حين كانت السلطة تأخذ طلائع هذه الحركات فيُقتلون دون أن يُحرك المجتمع ساكناً، وإذا حدث وتحرّك إنسان اشتُري سكوته بالمال[2].

---

(١) انظر: الكامل في التاريخ ٣/٢٣٣ - ٢٤٣ وغيره.

(٢) كما حدث من مالك بن هبيرة السكوني الذي بدا وكأنّه سيثور بسبب قتل حجر وأصحابه؛ فقد أرسل إليه معاوية مئة ألف درهم « فأخذها وطابت نفسه ». انظر: الكامل في التاريخ ٣/٢٤٢.

ومُنذ بدأ الحكّام المسلمون يناوئون النزعة الإنسانيّة في الإسلام، ليحوّلوه إلى مؤسسة تخدم مآرب فئة خاصة، بدأ علي وأبناؤه عليهم السلام وأصحابهم يدافعون عن الإسلام، ويردّون عنه شرّ مَنْ يريد تحريفه وتزويره.

كان هذا هو عمل علي عليه السلام طيلة حياته، حتّى إذا استشهد خلفه في الصراع ابنه الحسن، وقضت عليه ظروف المجتمع الإسلامي؛ الاجتماعيّة والنفسية أن يُهيئ هذا المجتمع للثورة على الحكم الأموي حتّى استشهد.

وبقي الحسين وحيداً، وقد عاصر الحركة التي بدأها أعداء الإسلام، الدخلاء فيه، والمستورون والحاقدون، وطلاّب المنافع العاجلة في حربهم ضدّ الإسلام وضدّ مبادئه الإنسانيّة. عاصر هذه الحركة منذ نشوئها؛ عاصرها حيناً مع أبيه وأخيه عليهما السلام ، والصفوة من الأصحاب، وعاصرها حيناً آخر مع أخيه، وبقية السيف الأُموي من الأصحاب(*).

وها هو ذا الآن يقف وحيداً في ساحة الصراع، إنّه يقف وحيداً ضدّ معاوية وجهاز حكمه الإرهابي، ويرى بعينيه كيف يُراد للأمّة المسلمة أن تتحوّل عن الأهداف العظيمة التي كوّنت لأجلها، وكيف تُزيّف حياتها، وكيف يُراد

(*) هكذا وردت العبارة الأخيرة في الأصل، ولعل هناك سقطاً أو خطأً ما أربكها وجعلها بهذا الشكل الغامض. **(موقع معهد الإمامين الحسنين)**

لوجودها أن يضمر ويضيق لينحصر في لقمة العيش، وفي حفنة من الدراهم يبيع المسلم بها حياته وضميره، وحريته وكرامته الإنسانيّة للحاكمين الظالمين.

وقد رأى منهج معاوية وبطانته الذي اعتمدوه للوصول بالأمّة المسلمة إلى هذا المصير الكالح. رأى كيف يُطارد الناس، ويجوعون ويُضطهدون، ويُنكّل بهم؛ لأنّهم يخالفون السلطة في الهوى السياسي، ورأى كيف يُحرّف الإسلام وتزور مبادئه الإنسانيّة في سبيل المآرب السياسيّة، ورأى حملة التخدير الديني والكذب على الله ورسوله، ورصد عن كثب محاولة إفساد المجتمع بتشجيع الروح القبلية والنزعة العنصرية.

ولقد أراد الأمويّون من الحسين عليه السلام أن يخضع لهم؛ لأنّ خضوعه يؤمن لهم انقياد الأمّة المسلمة كلّها، ويمكّنهم من ممارسة سياستهم دون خشية. أراد ذلك معاوية بن أبي سفيان حين عزم على أخذ البيعة بولاية العهد ليزيد من بعده، وتوسّل إلى ذلك بالشدّة حيناً، وباللين حيناً آخر فما نال بغيته[1].

وأراد ذلك يزيد حين صار إليه الأمر بعد أبيه، ولكنّ الحسين عليه السلام أبى أن يخضع؛ لأنّه كان يعي أعمق الوعي دوره التأريخي الذي يفرض عليه أن يثور؛ لتهزّ ثورته ضمير الأمّة التي اعتادت الانحناء أمام جبروت السلطة الحاكمة. اعتادت ذلك حتّى ليُخشى ألاّ يصلحها شيء. إنّ المجتمع الذي خضع طويلاً لتأثير السياسة الأُمويّة والتوجيه الأموي لا يمكن أن يصلح بالكلام؛ فهو آخر شيء يمكن أن يؤثر فيه.

إنّ الكلمة لا يمكن أن تؤثّر شيئاً في النفس الميّتة، والقلب الخائر، والضمير المخدّر. كان لا بدّ لهذا المجتمع المتخاذل من مثال يهزّه هزّاً عنيفاً، ويظلّ يواليه بإيحاءاته الملتهبة

---

(١) انظر: الكامل في التاريخ ٣/٢٤٩ - ٢٥٢.

ليقتلع الثقافة العفنة التي خدّرته، وقعدت به عن صنع مصير وضّاء.

وهذا الواقع الكالح وضع الإمام الحسين عليه السلام وجهاً لوجه أمام دوره التاريخي ورسالته النضالية. هذا الدور الذي يفرض عليه أن يثور، وأن يُعبّر بثورته عن شعور الملايين، وأن يهزّ بثورته هذه الملايين نفسها، ويضرب لها المثل والقدرة في حرب الظالمين.

وقد كان كلّ ذلك، وكانت ثورة الحسين عليه السلام.

الفصل الثاني: دوافع الثورة وأسبابها

« إنّي لم أخرج أشراً ولا بطراً، ولا مفسداً ولا ظالماً، وإنّما خرجت لطلب الإصلاح في أُمّة جدّي؛ أُريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر، فمَنْ قبلني بقبول الحقّ فالله أولى بالحقّ، ومَنْ ردّ عليّ هذا أصبر حتّى يحكم الله بيني وبين القوم بالحقّ، وهو خير الحاكمين »[1].

الحسين بن علي عليه السلام

(١) انظر: الفتوح - لابن أعثم ٥/٣٤، مناقب آل أبي طالب ٣/٢٤١.

كانت مبررات الثورة على الحكم الأُموي متوفّرة في عهد معاوية، وقد كان الإمام الحسين عليه السلام يعرفها، وقد عبّر عنها في عدّة كُتب وجّهها إلى معاوية جواباً عن كُتبه إليه، وهي كثيرة، نقتبس منها قوله في كتاب: « وهيهات هيهات يا معاوية! فضح الصبح فحمة الدُّجى، وبهرت الشمس أنوار السراج. ولقد فضّلت حتّى أفرطت، واستأثرت حتّى أجحفت، ومنعت حتّى بخلت، وجُرت حتّى جاوزت، وما بذلت لذي حق من اسم حقّه بنصيب حتّى أخذ الشيطان حظّه الأوفر، ونصيبه الأكمل... »[1].

وقوله في كتاب آخر: « أمّا بعد، فقد بلغني كتابك تذكر أنّه انتهت إليك عنّي أُمور أنت لي عنها راغب، وأنا بغيرها عندك جدير؛ فإنّ الحسنات لا يهدي إليها ولا يُسدد إليها إلاّ الله تعالى.

---

(١) انظر: الإمامة والسياسة ١/١٩٥، ١٩٦.

وأمّا ما ذكرت أنّه رقى إليك عنّي، فإنّما رقاه إليك الملاّقون، المشّاؤون بالنميم، المفرّقون بين الجمع. وكَذَب الغاوون، ما أرادت لك حرباً، ولا عليك خلافاً، وإنّي لأخشى الله في ترك ذلك منك، ومن الأعذار فيه إليك، وإلى أوليائك القاسطين الملحدين؛ حزب الظلمة، وأولياء الشياطين.

ألست القاتل حجر بن عدي أخا كندة وأصحابه الصالحين المصلّين العابدين، الذين كانوا ينكرون الظلم، ويستفظعون البدع، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ولا يخافون في الله لومة لائم، ثمّ قتلتهم ظلماً وعدواناً من بعد ما أعطيتهم الأيمان المغلّظة، والمواثيق المؤكّدة ألاّ تأخذهم بحدث كان بينك وبينهم؛ جرأة على الله، واستخفافاً بعهده؟

أوَلست قاتل ابن الحمق صاحب رسول الله ﷺ ، العبد الصالح، فقتلته بعدما آمنته؟

أوَلست المدّعي زياد بن سميّة المولود على فراش عُبيد بن ثقيف، فزعمت أنّه ابن أبيك، وقد قال رسول الله ﷺ : الولد للفراش، وللعاهر الحجر[1]. فتركت سنّة رسول

(١) لسنا بصدد بيان كلّ ما قاله ﷺ فيه وفي أُسرته كالحكم بن أبي العاص، وعقبة بن أبي معيط وغيرهما، ونكتفي برواية الطبري من حوادث سنة (٥١ هـ)، والكامل - لابن الأثير/٢٠٢ - ٢٠٩، وابن عساكر ٣٧٩/٢، والشيخ محمود أبو ريّه/١٨٤ - ١٨٥ ما نقلوه عن الحسن البصري أنّه كان يقول: =

الله ﷺ ، وتبعت هواك بغير هُدى من الله، ثمّ سلّطته على أهل الإسلام؛ يقتّلهم، ويقطع أيديهم وأرجلهم، ويسمل عيونهم، ويصلبهم على جذوع النخل، كأنّك لست من هذه الأمّة وليسوا منك؟

أوَلست صاحب الحضرميين الذين كتب فيهم ابن سميّة أنّهم على دين علي (صلوات الله عليه)، فكتبت إليه أن اقتل كلّ مَنْ كان على دين علي، فقتلهم ومثّل بهم بأمرك، ودينُ علي هو دين ابن عمّه ﷺ الذي كان يضرب عليه أباك ويضربك، وبه جلست مجلسك الذي أنت فيه؟

وقُلت فيما قُلت: انظر لنفسك ولدينك، ولأمّة مُحَّد، واتّقِ شقّ عصا هذه الأمّة، وأن تردهم إلى فتنة. وإنّي لا أعلم فتنة أعظم على هذه الأمّة من ولايتك عليها، ولا أعلم نظراً لنفسي ولديني ولأمّة مُحَّد ﷺ من أن أُجاهدك...

وقُلت فيما قُلت: إن أنكرك تنكرني، وإن أكدك تكدني.

= أربع خصال كنّ في معاوية، ولو لم يكن فيه منهنّ إلاّ واحدة لكانت موبقة؛ انتزاؤه على هذه الأمّة بالسفهاء حتّى ابتزّها أمرها بغير مشورة، وفيهم بقايا وذوو الفضيلة، واستخلافه ابنه بعده سكيراً، خمّيراً، يلبس الحرير، ويضرب الطنابير، وادّعاؤه زياداً وقد قال رسول الله: « الولد للفراش، وللعاهر الحجر »، وقتله حجراً وأصحابه، ويل له من حجر وأصحابه! ويل له من حجر وأصحابه!

ومَنْ أراد المزيد فليراجع الطبري ٢٠٢/٤ و٣٧٥/١١، وسير أعلام النبلاء ٢٣٧/١، ومسند أحمد ٤٢١/٤، ووقعة صفّين - لنصر بن مزاحم/٢٤٦، والمعجم الكبير - للطبراني ٤٢٧/١، والعقد الفريد ٣٤٥/٤، والاستيعاب/٤١٢، وأُسد الغابة ١٠٦/٣، وتهذيب ابن عساكر ٢٠٦/٧، والإصابة ٢٦٠/٢، والطبقات الكبرى ٢٢٢/٤، وصفوة الصفوة ٢٣٨/١، وسيرة ابن هشام ١٧٩/٤.

فكد ما بدا لك؛ فإنّي أرجو ألاّ يضرّني كيدك، وأن لا يكون على أحد أضرّ منه على نفسك؛ لأنّك قد ركبت جهلك، وتحرّصت على نقض عهدك.

ولعمري ما وفيت بشرط، ولقد نقضت عهدك بقتل هؤلاء النفر الذين قتلتهم بعد الصلح والأيمان، والعهود والمواثيق، ولم تفعل ذلك إلاّ لذكرهم فضلنا، وتعظيمهم حقّنا، وليس الله بناس لأخذك بالطنّة، وقتلك أولياءه على التهم، ونفيك أولياءه من دورهم إلى دار الغربة... »[1].

ولذا، فإنّ الباحث يتساءل عن السرّ في قعود الحسين عليه السلام عن الثورة في عهد معاوية مع وجود مبرّرات الثورة في عهده، فلماذا لم تدفعه هذه المبرّرات إلى الثورة في أيّام معاوية، وحملته على الثورة في أيّام يزيد؟

الذي نراه في الجواب على هذا التساؤل: هو أنّ قعود الحسين عليه السلام عن الثورة في عهد معاوية كانت له أسباب موضوعية لا يمكن تجاهلها، ويمكن إجمالها فيما يلي:

الوضع النفسي والاجتماعي

لقد كانت حروب الجمل وصفّين والنهروان، والحروب الخاطفة التي نشبت بين القطع السورية وبين مراكز الحدود في العراق والحجاز واليمن بعد

---

(١) انظر: الإمامة والسياسة ١/٢٠٢ - ٢٠٨، جمهرة الخطب ٢/٢٤٢، جمهرة الرسائل ٢/٦٧، مروج الذهب ٣/٧.

التحكيم قد ولّدت عند أصحاب الإمام عليه السلام حنيناً إلى السلم والموادعة؛ فقد مرّت عليهم خمس سنين وهم لا يضعون سلاحهم من حرب إلاّ ليشهروه في حرب أخرى، وكانوا لا يحاربون جماعات غريبة عنهم، وإنّما يحاربون عشائرهم وإخوانهم بالأمس، ومَنْ عرفهم وعرفوه....

وما نشكّ في أنّ هذا الشعور الذي بدأ يظهر بوضوح في آخر عهد علي عليه السلام إثر إحساسهم بالهزيمة أمام مراوغة خصمهم في يوم التحكيم، أفاد خصوم الإمام عليه السلام من زعماء القبائل ومن إليهم ممّن اكتشفوا أنّ السياسة لا يمكن أن تُلبّي مطامحهم التي تُؤججها سياسة معاوية في المال والولايات فحاولوا إذكاء هذا الشعور والتأكيد عليه.

وقد ساعد على تأثير هؤلاء الزعماء ونفوذهم في أوساط المجتمع الرّوح القبلية التي استفحلت في عهد عثمان بعد أن أُطلقت من عقالها بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله ؛ فإنّ الإنسان ذا الرّوح القبلية عاملة قبيلته(*)، فهو ينفعل بانفعالاتها، ويطمح إلى ما تطمح إليه، ويُعادي مَنْ تُعادي، وينظر إلى الأمور من الزاوية التي تنظر منها القبيلة؛ وذلك لأنّه يخضع للقيم القبلية التي تخضع لها القبيلة، وتتركّز مشاعر القبيلة كلّها في رئيسها، فالرئيس في المجتمع القبلي هو المهيمن، والموجّه للقبيلة كلّها.

وقد عبّر الناس عن رغبتهم في الدّعة وكراهيتهم للقتال؛ بتثاقلهم عن الخروج لحرب الفرق السورية التي كانت تغير على الحجاز، واليمن، وحدود العراق، وتثاقلهم عن الاستجابة للإمام عليه السلام حين دعاهم للخروج ثانية إلى صفّين.

فلمّا استشهد الإمام علي عليه السلام وبويع الحسن عليه السلام بالخلافة برزت هذه الظاهرة على أشدّها، وبخاصّة حين دعاهم الحسن عليه السلام للتجهّز لحرب الشام، حيث كانت الاستجابة بطيئة جدّاً.

(*) هذه العبارة هي الأُخرى التي وردت بهذا الشكل، ولعل هناك سقطاً أو خطأً ما أربكها كما ذكرنا قبل قليل. **(موقع معهد الإمامين الحسنين)**

وبالرغم من أنّ الإمام الحسن عليه السلام قد استطاع بعد ذلك أن يجهّز لحرب معاوية جيشاً ضخماً، إلاّ إنّه كان جيشاً كُتبت عليه الهزيمة قبل أن يلاقي العدو بسبب التيارات المتعدّدة التي كانت تتجاذبه؛ فقد « خفّ معه أخلاط من الناس؛ بعضهم شيعة له ولأبيه، وبعضهم محكّمة - أي خوارج - يؤثرون قتال معاوية بكلّ حيلة، وبعضهم أصحاب فتن وطمع في الغنائم، وبعضهم شكّاك وأصحاب عصبية اتّبعوا رؤساء قبائلهم »(١).

وقد كان رؤساء القبائل هؤلاء قد باعوا أنفسهم من معاوية الذي كتب إلى كثير منهم يُغريهم بالتخلّي عن الحسن عليه السلام والالتحاق به، وأكثر أصحاب الحسن عليه السلام لم يستطيعوا مقاومة هذا الإغراء، فكاتبوا معاوية واعدين بأن يسلّموه الحسن عليه السلام حيّاً أو ميّتاً.

وحين خطبهم الإمام الحسن عليه السلام ليختبر مدى إخلاصهم وثباتهم، هتفوا به من كلّ جانب: « البقيّة البقيّة »(٢)، بينما هاجمته طائفة منهم تريد قتله. هذا في الوقت الذي أخذ الزعماء يتسلّلون تحت جنح الليل إلى معاوية بعشائرهم.

ولما رأى الإمام الحسن عليه السلام - أمام هذا الواقع السيّئ - أنّ الظروف النفسية والاجتماعيّة في مجتمع العراق جعلت هذا المجتمع عاجزاً عن النهوض بتبعات القتال، وانتزاع النصر، ورأى أنّ الحرب ستكلّفه استئصال المخلصين من أتباعه بينما يتمتّع معاوية بنصر حاسم، حينئذ جنح إلى الصلح بشروطٍ منها ألاّ يعهد

---

(١) انظر: الإرشاد - الشيخ المفيد ٢/١٠.

(٢) انظر: مقاتل الطالبيّين/٧٣، شرح النهج - لابن أبي الحديد ١٦/٤٠، الكامل في التاريخ ٣/٢٠٤ و١٧٦ طبعة أخرى، وحماة الإسلام ١/١٢٣، المجتني - لابن دريد/٣٦.

معاوية لأحد من بعده، وأن يكون الأمر للحسن، وأن يترك الناس ويؤمنوا[1].

(١) والنتيجة: أنّ وثيقة الصلح تضمّنت خمس موارد هي:

أ - تسليم الأمر إلى معاوية على أن يعمل بكتاب الله، وسُنّة نبيّه صلى الله عليه وآله، وسيرة الخلفاء الصالحين.

ب - ليس لمعاوية أن يعهد إلى أحد من بعده، والأمر بعده للحسن عليه السلام، فإن حدث به حدث فلأخيه الحسين عليه السلام.

ج - أن لا يُسمّيه أمير المؤمنين، وأن يترك سبّ أمير المؤمنين عليه السلام، والقنوت عليه بالصلاة، وأن لا يذكر علياً إلاّ بخير، وأن لا يُقيم عنده شهادة.

د - الأمن العام لعموم الناس الأسود والأحمر منهم سواء فيه، والأمن الخاص لشيعة أمير المؤمنين عليه السلام، وعدم التعرّض لهم بمكروه.

هـ - استثناء ما في بيت مال الكوفة وهو خمس آلاف، فلا يشمله تسليم الأمر، وأن يُفضّل بني هاشم في العطاء، وأن يُفرّق في أولاد مَنْ قُتل مع أمير المؤمنين عليه السلام يوم الجمل، وأولاد مَنْ قُتل معه بصفين ألف ألف درهم، وأن يُوصل إلى كلّ ذي حقّ حقّه.

وممّا يجدر ذكره أنّ بعض المؤرّخين والباحثين أصرّ على المغالطات والمجادلات واللعب بالألفاظ، وأورد أنّ الإمام الحسن عليه السلام قد تنازل عن الخلافة لمعاوية بما لكلمة التنازل من المعنى الخاص.

ونحن لو رجعنا إلى التاريخ لم نجد، ولم يرد على لسان أحد ما يشعر من خطبه عليه السلام أنّه تنازل عن الخلافة، بل إنّ المصادر تشير إلى أنّه عليه السلام سلّم الأمر، أو ترك الأمر لمعاوية؛ وذلك من خلال ملاحظتنا للشروط التي ورد فيها إسقاطه إيّاه عن إمرة المؤمنين، وأنّ الحسن عليه السلام عاهده على أن لا يكون عليه أميراً؛ إذ الأمير هو الذي يأمر فيؤتمر له؛ ولذا أسقط الإمام الحسن عليه السلام الائتمار لمعاوية، إذ أمره أمراً على نفسه.

والأمير هو الذي أمّره مأمور مَنْ فوقه، فدلّ على أنّ الله عزّ وجلّ لم يؤمّره عليه، ولا رسول الله صلى الله عليه وآله أمّره عليه؛ ولذا لا يُقيم عنده شهادة، فكيف يُقيم الشهادة عند مَنْ أزال عنه الحكم؟ لأنّ الأمير هو الحاكم، وهو المقيم للحاكم، ومَنْ ليس له تأمير، ولا تحاكم فحكمه هدر، ولا تُقام الشهادة عند مَنْ حكمه هدر.

انظر: تاريخ الخلفاء/١٩٤، البداية والنهاية - لابن كثير ٤١/٨، الإصابة ١٢/٢ و١٣، ابن قتيبة في المعارف/١٥٠، مقاتل الطالبيّين/٧٥، الإمامة والسياسة/٢٠٠، الطبري في تاريخه ٩٢/٦، الطبقات الكبرى - للشعراني/٢٣، ابن أبي الحديد في شرح النهج ٨/٤، حياة الحيوان - للدميري ٥٧/١، تهذيب التهذيب ٢٢٩/٢، تهذيب الأسماء واللغات - للنووي ١٩٩/١، ذخائر العقبى/١٣٩، ينابيع المودّة/٢٩٣، عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب - لجمال =

ولقد كان هذا هو الطريق الوحيد الذي يستطيع الحسن عليه السلام أن يسلكه باعتباره صاحب رسالة قد اكتنفته هذه الظروف السيئة المؤيسة. ونحن حين نسمح لأنفسنا أن نندفع وراء العاطفة نحسب أنّه كان على الحسن عليه السلام أن يُحارب معاوية ولا يُهادنه، وإنّ ما حدث له لم يكن إلاّ استسلاماً مُذلاً مكّن معاوية من أن يستولي على الحكم بسهولة ما كان يحلم بها.

وقد انزلق في هذا الخطأ كثير من أصحابه المؤمنين المخلصين، وقد عبّر بعضهم عن المرارة التي يحسّ بها بأنّ خاطب الحسن عليه السلام بقوله: (يا مُذلّ المؤمنين)[1].

هذا، ولكن علينا أن نفكّر بمقاييس أُخرى إذا شئنا فهم موقف الإمام الحسن عليه السلام الذي يبدو محيّراً لأوّل وهلة، فلا شك أنّ الإمام الحسن عليه السلام لم يكن مُغامراً، ولا طالب ملك، ولا زعيماً قبلياً يُفكّر ويعمل بالعقلية القبلية، وإنّما كان صاحب رسالة، وحامل دعوة، وكان عليه أن يتصرّف على هذا الأساس.

ولقد كان الموقف الذي اتّخذه هو الموقف الملائم لأهدافه كصاحب رسالة وإن كان ثقيلاً على نفسه، مؤلماً لمشاعره الشخصيّة.

لقد كان من الممكن بالنسبة لقائد مُحاط بنفس الظروف السيئة التي كان

الحسني/٥٢، تذكرة الخواص/٢٠٦، تأريخ مدينة دمشق ٢٢١/٤، تأريخ دول الإسلام ٥٣/١، جوهرة الكلام في مدح السادة الأعلام/١١٢، تأريخ الخميس ٣٢٣/٢، دائرة المعارف - للبستاني ٣٨/٧، الفتوح ٢٩٣/٢.

(١) ولما وصل الحسن عليه السلام إلى قنطرة ساباط، وثب عليه الجرّاح الأسدي(*) فضربه على فخده بمغول - في خنجر، مِغْوَل، مِغْوَل - كان بيده، وقال له: يا مُذلّ المؤمنين! أتريد أن تُلحد كما ألحد أبوك من قبل؟! ونزل بالمدائن وتداوى للضربة أربعين يوماً. انظر: أنساب الأشراف ٢٨٢/٢.

(*) الجراح بن سنان من بني قبيصة الأسدي كما جاء في تاريخ اليعقوبي ٢١٥/٢، والإمام الحسن بن علي/١٨، لكن في الفتوح ٢٩/٢ « سنان بن الجرّاح ». انظر: الأخبار الطوال/٢١٧، المقاتل/٧٢، مستدرك الحاكم ١٧٤/٢، وابن الأثير ١٧٥/٣، وابن خلدون ١٨٦/٢، والإصابة - ترجمة الحسن بن علي، وابن الوردي ١٦٦/١.

الإمام الحسن عليه السلام مُحاطاً بها أن يتّخذ من الأحداث أحد ثلاثة مواقف:

الأوّل: أن يُحارب معاوية رغم الظروف السيئة، ورغم النتائج المؤلمة التي تترتّب على هذا الموقف.

الثاني: أن يُسلّم السلطة إلى معاوية، وينفض يده من الأمر، ويتخلّى عن أهدافه، ويقنع بالغنائم الشخصيّة.

الثالث: أن يخضع للظروف المعاكسة فيتخلّى مؤقّتاً عن الصراع الفعلي المسلّح، لكن لا ليرقب الأحداث فقط، وإنّما ليُكافح على صعيد آخر فيُوجّه الأحداث في صالحه وصالح أهدافه.

ما كان للحسن عليه السلام باعتباره صاحب رسالة أن يتّخذ الموقف الأوّل؛ لأنّه لو حارب معاوية في ظروفه التي عرضناها، وبقواه المفككة المتخاذلة، لكانت نتيجة ذلك أن يُقتل، ويُستأصل المخلصون من أتباعه. ولا شك أنّه حينئذ كان يُحاط بهالة من الإكبار، والإعجاب لبسالته وصموده، ولكنّ النتيجة بالنسبة إلى الدعوة الإسلاميّة ستكون سيئة إلى أبعد حدّ؛ فإنّها كانت ستفقد فريقاً من أخلص حُماتها دون أن تحصل على شيء سوى أسماء جديدة تُضاف إلى قائمة شهدائها.

كذلك ما كان له باعتباره صاحب رسالة أن ينفض يده من كلّ شيء ويسترسل في حياة الدعة والرغد، والخلو من هموم القيادة والتنظيم.

لقد كان الموقف الثالث - وهو الموقف الذي اتّخذه الإمام الحسن عليه السلام - هو الموقف الوحيد الصحيح بالنسبة إليه، وذلك أن يعقد مع معاوية هدنة يعدّ فيها المجتمع للثورة؛ وذلك لأنّنا نسمح لأنفسنا أن نقع في خطأ كبير حين ننساق إلى الاعتقاد بأنّ الإمام الحسن عليه السلام قد اعتبر الصلح خاتمة مريحة لمتاعبه، فما صالح الإمام الحسن عليه السلام

ليستريح، وإنّما ليُكافح من جديد، ولكن على صعيد آخر[1].

فإذا كان الناس قد كرهوا الحرب لطول معاناتهم لها، ورغبوا في السلم انخداعاً بحملة الدعاية التي بثّها فيهم عملاء معاوية، إذ مَنّوهم بالرخاء والأعطيات الضخمة، والدعة والسكينة، وطاعة لرغبات زعمائهم القبليين، فإنّ عليهم أن يكتشفوا بأنفسهم مدى الخطأ الذي وقعوا فيه حين ضعفوا عن القيام بتبعات القتال، وسمحوا للأماني تخدعهم، ولزعمائهم بأن يظلّلوهم، ولا يمكن أن يكتشفوا ذلك إلاّ إذا عانوا هذا الحكم بأنفسهم.

عليهم أن يكتشفوا طبيعة هذا الحكم وواقعه، وما يقوم عليه من اضطهاد وحرمان، ومُطاردة مُستمرة، وخنق للحريات، وعلى الإمام الحسن عليه السلام وأتباعه المخلصين أن يفتحوا أعين الناس على هذا الواقع، وأن يُهيّئوا عقولهم وقلوبهم لاكتشافه، والثورة عليه، والإطاحة به.

ولم يطل انتظار أهل العراق، فقد قال لهم معاوية حين دخل الكوفة:

---

(١) ومجمل القول: « إنّ الذين خطّؤوا الإمام الحسن عليه السلام في هذا الصلح نظروا إلى ما ينبغي أن يكون، وتجاهلوا الظروف والأحداث التي أحاطت بالحسن عليه السلام وفرضت نفسها عليه... اعتمدوا على اللمحة العابرة، أو النظرية المجرّدة عن الزمان والمكان، وصرفوا النظر عمّا يعترض تطبيقها من العقبات.

أمّا قول مَنْ قال: كان على الحسن عليه السلام أن يستشهد كما استشهد أخوه الحسين عليه السلام ، فإنّما يصح لو أدّى استشهاد الحسن عليه السلام إلى نفس النتيجة التي أدّت إليها تضحية الحسين عليه السلام من إحياء الدين، وإعلان حقيقة الأُمويّين. أمّا مع اختلاف النتيجة لاختلاف الظروف والمؤثرات فلا مبرّر للقياس.

قال العقاد: آلت خلافة الإمام إلى ابنه الحسن في معسكر مضطرب بين الخوارج والشيعة، والموالي والأتباع الذين لا يعملون عمل الأتباع طائعين، ولا يعملون عمل الرؤساء مُقتدرين مُضطلعين. وورث الحسن معسكراً لم يطل عليه عهد الولاء لأحد قط ليُناضل به، معسكراً لم يقع فيه خلاف قطّ منذ الفتح الأوّل إلاّ الخلاف الذي كان يريده معاوية ويعمل له؛ حذراً من مغبّة الاتّفاق عليه.

انظر كتابه الموسوم: معاوية بن أبي سفيان/١٢٢، طبع بمطابع مؤسسة دار الهلال. ومعنى هذا في واقعه أنّ الحسن عليه السلام لو لم يُصالح لقُتل بسيوف معسكره لا بسيوف أعدائه.

« يا أهل الكوفة، أترون أنّي قاتلتكم على الصلاة، والزكاة، والحجّ، وقد علمت أنّكم تُصلّون، وتُزكّون، وتحجّون؟! ولكنّي قاتلتكم لأأمّر عليكم، وألي رقابكم، وقد أتاني الله ذلك وأنتم كارهون. ألا إنّ كلّ دم أُصيب في هذه مطلول، وكلّ شرط شرطته فتحت قدمي هاتين »[1].

ثمّ اتّبع ذلك طائفة من الإجراءات التي صدمت العراقيين؛ أنقص من أعطيات أهل العراق ليزيد في أعطيات أهل الشام، وحملهم على أن يُحاربوا الخوارج فلم يتح لهم أن ينعموا بالسلم الذي كانوا يحنّون إليه، ثمّ طبّق منهاجه الذي شرحناه في الفصل السابق؛ الإرهاب، التجويع، والمطاردة، ثمّ أعلن بسبّ أمير المؤمنين علي عليه السلام على منابر المسلمين.

وبيّنما راح الزعماء القبليون يجنون ثمرات هذا العهد، بدأ العراقيون العاديون يكشفون رويداً طبيعة هذا الحكم الظالم الشرس الذي سعوا إليه بأنفسهم، وثبّتوه بأيديهم، « وقد جعل أهل العراق يذكرون حياتهم أيام علي فيحزنون عليها، ويندمون على ما كان من تفريطهم في جنب خليفتهم، ويندمون على ما كان من الصلح بينهم وبين أهل

(١) انظر: البداية والنهاية ٦/٢٤٦، تأريخ مدينة دمشق ٥٢/٣٨٠، تأريخ ابن الأثير ٨/١٢١، الكامل في التاريخ ٦/٢٢٠، مقاتل الطالبيّين/٧٠، شرح النهج - لابن أبي الحديد ٤/١٦ و١٦/١٥، المعرفة والرجال - للبسوي ٣/٣١٨، شرح الأخبار ٢/١٥٧، مناقب آل أبي طالب ٣/١٩٦، المصنف - لابن أبي شيبة الكوفي ٧/٣٥١ ح٢٣، تأريخ مدينة دمشق ٥٢/٣٨٠، ٥٩/١٥٠، البداية والنهاية ٨/١٤٠.

الشام، وجعلوا كلّما لقي بعضهم بعضاً تلاوموا فيما كان، وأجالوا الرأي فيما يمكن أن يكون. ولم تكد تمضي أعوام قليلة حتّى جعلت وفودهم تفد إلى المدينة للقاء الحسن عليه السلام، والقول له، والاستماع منه ».

وقد أقبل عليه ذات يوم وفد من أشراف أهل الكوفة فقال له متكلّمهم سليمان بن صرد الخزاعي: « ما ينقضي تعجبنا من بيعتك معاوية ومعك أربعون ألف مقاتل من أهل الكوفة كلّهم يأخذ العطاء وهم على أبواب منازلهم، ومعهم مثلهم من أبنائهم وأتباعهم، سوى شيعتك [من] أهل البصرة، وأهل الحجاز، ثمّ لم تأخذ لنفسك ثقة في العقد، ولا حظّاً من العطية!

فلو كنت إذا فعلت ما فعلت أشهدت على معاوية وجوه أهل المشرق والمغرب، وكتبت عليه كتاباً بأنّ الأمر لك بعده، كان الأمر علينا أيسر، ولكنّه أعطاك شيئاً بينك وبينه، ثمّ لم يفِ به، ثمّ لم يلبث أن قال على رؤوس الناس إنّي كنت شرطت شروطاً، ووعدت عدات؛ إرادة لإطفاء نار الحرب، ومداراة لقطع هذه الفتنة، فأمّا إذ جمع الله لنا الكلمة والإلفة، وأمّننا من الفرقة، فإنّ ذلك تحت قدمي.

فوالله، ما اغترّني بذلك إلاّ ما كان بينك وبينه وقد نقض، فإن شئت فأعد الحرب جذعة، وأذّن في تقدمك إلى الكوفة، فأخرج عنها عامله، وأظهر خلعه، وتنبذ

إليهم على سواء إنّ الله لا يحبّ الخائنين »[1].

وقال الآخرون مثل ما قال سليمان بن صرد... فقال لهم فيما روى البلاذري: « أنتم شيعتنا، وأهل مودّتنا، فلو كنتُ بالحزم في أمر الدنيا أعمل، ولسلطانها أعمل وأنصب ما كان معاوية بأبأس منّي بأساً، ولا أشدّ شكيمة، ولا أمضى عزيمة، ولكنّي أرى غير ما رأيتم؛ وما أردت فيما فعلت إلاّ حقن الدماء، فارضوا بقضاء الله، وسلّموا الأمر، والزموا بيوتكم، وامسكوا، وكفّوا أيديكم حتّى يستريح برّ، ويستراح من فاجر »[2].

فقد أعطاهم الحسن عليه السلام - كما ترى - الرضا حين أعلن إليهم أنّهم شيعة أهل البيت، وذووا مودّتهم، وإذن فمن الحقّ عليهم أن يستمعوا له، ويأتمروا بأمره، ويكونوا عندما يريد منهم.

ثمّ طلب إليهم أن يرضوا بقضاء الله. يطيعوا السلطان، ويكفّوا أيديهم عنه، وأنبأهم بأنّهم لن يفعلوا ذلك آخر الدهر، ولن يستسلموا لعدوهم بغير مقاومة، وإنّما انتظار إلى حين، هو انتظار إلى أن يستريح الأبرار من أهل الحقّ، أو يريح الله من الفجّار من أهل الباطل.

فهو إذن يهيئهم للحرب حين يأتي إبّانها، ويحين حينها، ويأمرهم بالسلم المؤقتة حتّى يستريحوا ويحسنوا الاستعداد.

---

(١) انظر: تنزيه الأنبياء - الشريف الرضي/٢٢٣.

(٢) انظر: الإمامة والسياسة ١/١٨٦.

ومَنْ يدري لعلّ معاوية أن يريح الله منه، فتستقبل الأمّة أمرها على ما يحبّ لها صالحوا المؤمنين(١).

ولم يكن سليمان بن صرد ومَنْ معه منفردين في هذه الحركة، فكثيراً ما جاء العراقيون إلى الحسن عليه السلام يطلبون منه أن يثور، ولكنّه كان يعدهم المستقبل ويعدّهم للثورة. وها هو يجيب حجر بن عدي الكندي بقوله: « إنّي رأيت هوى عظم الناس في الصلح، وكرهوا الحرب، فلم أحبّ أن أحملهم على ما يكرهون؛ فصالحت بقياً على شيعتنا خاصّة من القتل، ورأيت دفع هذه الحرب إلى يوم ما؛ فإنّ الله كلّ يوم هو في شأن »(٢).

وإذاً، فهذه فترة إعداد وتهيؤ حتّى يأتي اليوم الموعود، حين يكون المجتمع قادراً على الثورة مستعداً لها، أمّا الآن فلم يبلغ المجتمع هذا المستوى من الوعي، بل لا يزال أسير الأماني والآمال.

هذه الأماني والآمال التي بثّت فيه روح الهزيمة التي صوّرها الإمام الحسن عليه السلام لعلي بن مُحَمَّد بن بشير الهمداني حين قال له: « ما أردت بمصالحتي معاوية إلاّ أن أدفع عنكم القتل عندما رأيت من تباطؤ أصحابي عن الحرب، ونكولهم عن القتال. ووالله لئن سرنا إليه بالجبال والشجر ما كان بدّ من إفضاء هذا الأمر إليه »(٣).

وإذاً فقد كان دور الحسن عليه السلام أن يُهيئ عقول الناس وقلوبهم للثورة على حكم

(١) انظر: الفتنة الكبرى - ٢ - علي وبنوه - للدكتور طه حسين/٢٠٦ - ٢٠٨.

(٢) انظر: الأخبار الطوال/٢٢٠.

(٣) انظر: الأخبار الطوال/٢٢١.

الأُمويّين، هذا الحكم الذي كان يشكّل إغراءً قوياً للعرب في عهد أمير المؤمنين علي عليه السلام ، والذي غدا فتنة للعراقيين بعده حملتهم على التخلّي عن الإمام الحسن عليه السلام في أحلك الساعات، وذلك بأن يدع لهم فرصة اكتشافه بأنفسهم، مع التنبيه على ما فيه من مظالم، وتعدٍّ لحدود الله.

* * *

ولم يكن الحسين عليه السلام أقلّ إدراكاً لواقع مجتمع العراق من أخيه الحسن عليه السلام ؛ لقد رأى من هذا المجتمع وتخاذله مثل ما رأى أخوه؛ ولذلك فقد آثر أن يعدّ مجتمع العراق للثورة، ويعبّئه لها بدل أن يحمله على القيام بها الآن.

كان هذا رأيه في حياة أخيه الإمام الحسن عليه السلام ، فقد قال لعلي بن محمّد بن بشير الهمداني حين فاوضه في الثورة بعد أن يئس من استجابة الإمام الحسن عليه السلام : « صدق أبو محمّد، فليكن كلّ رجل منكم حلساً من إحلاس بيته[1] ما دام هذا الإنسان حيّاً »[2]. يعني معاوية بن أبي سفيان.

وكان هذا رأيه بعد وفاة الإمام الحسن عليه السلام ، فقد كتب إليه أهل العراق يسألونه أن يجيبهم إلى الثورة على معاوية، ولكنّه لم يجيبهم إلى ذلك، وكتب إليهم: « أمّا أخي، فأرجو أن يكون الله قد وفّقه وسدّده فيما يأتي، وأمّا أنا فليس رأيي اليوم ذلك، فالصقوا رحمكم الله بالأرض، واكمنوا في البيوت، واحترسوا من الظنّة ما دام

---

(١) حلس بالمكان حلساً: أي الزمه في الفتنة والهرج لزوم البساط له. انظر: لسان العرب ٦/٤١.

(٢) انظر: الأخبار الطوال/٢٢١.

معاوية حيّاً »[1].

وإذاً، فقد كان رأي الحسين عليه السلام ألاّ يثور في عهد معاوية، وهو يأمر أصحابه بأن يخلدوا إلى السكون والهدوء، وأن يبعدوا عن الشبهات.

وهذا يوحي لنا بأنّ حركة منظمة كانت تعمل ضدّ الحكم الأُموي في ذلك الحين، وأنّ دُعاتها هم هؤلاء الأتباع القليلون المخلصون الذين ضنّ بهم الحسن عليه السلام عن القتل فصالح معاوية، وأنّ مهمّة هؤلاء كانت بعث روح الثورة في النفوس عن طريق إظهار المظالم التي حفل بها عهد معاوية؛ انتظاراً لليوم الموعود.

وقد رأينا أنّ هذه الدعوة ضدّ الحكم الأُموي قد بدأت بعد الصلح، وقد كانت في عهد الإمام الحسن عليه السلام تسير في رفق وهدوء، نظراً لأنّ المجتمع كان لا يزال مأخوذاً ببريق الحكم الأُموي، ولم يتمثّل بعد طبيعة هذا الحكومة الظالمة الباغية تمثّلاً صحيحاً.

أمّا في عهد الإمام الحسين عليه السلام فقد ازدادت الدعوة عنفاً وشدّة واحتداماً، وأخذت تكسب أنصاراً كثيرين في كلّ مكان بعد أن أسفر الحكم الأُموي عن وجهه تماماً، وبعد أن بدا على واقعه الذي سترته الوعود الجذّابة والألفاظ المعسولة.

ولقد كان كلّ حدث من أحداث معاوية يجد صدى مدوّياً في المدينة حيث الإمام الحسين عليه السلام، ويكون مداراً لاجتماعات يعقدها الإمام الحسين عليه السلام مع أقطاب الشيعة في العراق، والحجاز وغيرهما من بلاد الإسلام، يدلّنا على ذلك أنّه حين قتل معاوية حجر بن عدي الكندي وأصحابه خرج نفر من أشراف الكوفة إلى الحسين عليه السلام فأخبروه الخبر.

---

(١) انظر: الأخبار الطوال/٢٢٢.

ولا بدّ أنّ حركة قويّة دفعت مروان بن الحكم عامل معاوية على المدينة إلى أن يكتب إلى معاوية: « أمّا بعد، فإنّ عمرو بن عثمان ذكر أنّ رجالاً من أهل العراق ووجوه أهل الحجاز يختلفون إلى الحسين بن علي، وإنّه لا يُؤمن وثُوبه، وقد بحثت عن هذا فبلغني أنّه يُريد الخلاف يومه هذا، فاكتب إليّ برأيك »(١).

شخصيّة معاوية

وأكبر الظنّ أنّ الحسين عليه السلام لو ثار في عهد معاوية لما استطاع أن يسبغ على ثورته هذا الوهج الساطع الذي خلّدها في ضمائر الناس وقلوبهم، والذي ظلّ يدفعهم عبر القرون الطويلة إلى تمثّل أبطالها، واستيحائهم في أعمال البطولة والفداء.

وسرّ ذلك يكمن في شخصيّة معاوية، وأُسلوبه الخاصّ في معالجة الأمور؛ فإنّ معاوية لم يكن من الجهل بالسياسة بالمثابة التي يُتيح فيها للحسين عليه السلام أن يقوم بالثورة مدوّية، بل الراجح أنّه كان من الحصافة بحيث يُدرك أنّ جهر الحسين عليه السلام بالثورة عليه، وتحريضه الناس على ذلك كفيل بزجّه في حروب تُعكّر عليه بهاء النصر الذي حازه بعد صلح الحسن عليه السلام ، إن لم يكن كافياً لتفويت ثمرة هذا النصر عليه؛ لأنّه عارف - ولا ريب - بما للحسين عليه السلام من منزلة في قلوب المسلمين.

وأقرب الظنون في الأُسلوب الذي يتبعه معاوية في القضاء على ثورة

---

(١) انظر: الأخبار الطوال/٢٢٤.

الحسين عليه السلام - لو ثار في عهده - هو أنّه كان يتخلّص منه بالسمّ قبل أن يتمكّن الحسين عليه السلام من الثورة، وقبل أن يكون لها ذلك الدوي الذي يُموّج الحياة الإسلاميّة التي يرغب معاوية في بقائها هادئة ساكنة.

والذي يجعل هذا الظنّ قريباً ما نعرفه من أُسلوب معاوية في القضاء على مَنْ يخشى منافستهم له في السلطان، أو تعكير صفو السلطان عليه؛ فإنّ الطريقة المثالية عنده في التخلّص منهم هي القضاء عليهم بأقلّ ما يمكن من الضجيج.

ولقد مارس معاوية هذا الأُسلوب في القضاء على الحسن بن علي عليهما السلام ، وسعد بن أبي وقاص[1]، ومارسه في القضاء على الأشتر لما توجّه إلى مصر، ومارسه في القضاء على عبد الرحمن بن خالد بن الوليد لما رأى افتتان أهل الشام به[2].

وقد أوجز هو أُسلوبه هذا في كلمته المأثورة: « إنّ لله جنوداً من العسل »[3].

---

(١) انظر: مقاتل الطالبيّين/٢٩ « وأراد معاوية البيعة لابنه يزيد فلم يكن شيء أثقل عليه من أمر الحسن عليه السلام ، وسعد بن أبي وقاص، فدسّ إليهما سمّاً فماتا منه »، مختصر تاريخ العرب - سيد أمير علي/٦٢.

(٢) انظر: التمدن الإسلامي ٤/٧١.

(٣) انظر: عيون الأخبار ٢٠١/١، مروج الذهب ١٣٩/٢ طبعة بيروت، المغتالين من الأشراف/٣٩، وتاريخ اليعقوبي ١٣٩/٢ طبعة بيروت، شرح النهج - لابن أبي الحديد ٢٩/٢، والطبري في تاريخه حوادث سنة (٣٨ - ٣٩ هـ)، تهذيب الكمال ١٢٦/٢٧ رقم ٥٧٣١، التاريخ الكبير - للبخاري ٣١١/٧، وتاريخ الصغير ٨٧/١، الثقات - لابن حبّان ٢٩٨/٢، سير أعلام النبلاء ٣٥/٤، تأريخ مدينة دمشق ٣٧٦/٥٦ و٣٩١، الأنساب ٤٧٦/٥، نظرات في الكتب الخالدة - لحامد حفني/١٦١، شيخ المضيرة، أبو هريرة - لمحمود أبو ريّة/١٧٩، ولكن بعض المصادر نسبت القول إلى عمرو بن العاص.

ويعني العسل الذي كان يدسّ فيه السمّ، وقتل به الإمام الحسن عليه السلام ريحانة رسول الله صلى الله عليه وآله . انظر: المقاتل/=

= ٤٣، وأنساب الأشراف ٤٠٤/١، وابن أبي الحديد في شرح النهج ١١/٤ و١٧، ابن كثير ٤١/٨، تأريخ الخلفاء/١٣٨، الإصابة ترجمة الحسن، ابن قتيبة/١٥٠، الصواعق/٨١، المسعودي في مروج الذهب بهامش الكامل ٣٥٣/٢، ٥٥/٦، وتهذيب تأريخ مدينة دمشق - لابن عساكر ٢٢٦/٤، وأسماء المغتالين من الأشراف/٤٤، وتاريخ اليعقوبي ٢٢٥/٢، وابن الأثير ١٩٧/٢، وابن شحنة بهامش ابن الأثير ١٣٢/١١، تأريخ الدول الإسلاميّة ٥٣/١، تذكرة الخواص/٦٢، تأريخ أبي الفداء ١٩٤/١، الاستيعاب ٣٨٩/١، تاريخ الخلفاء - للسيوطي/٧٤، مستدرك الحاكم ١٧٦/٣، الإرشاد - للشيخ المفيد ١٥/٣، المناقب - لابن شهر آشوب ١٩١/٣، كشف الغمّة ٥٨٤/١.

والأشتر النخعي هو مالك بن الحارث النخعي، أدرك الرسول صلى الله عليه وآله، وكان رئيس قومه، شُترت عينه في اليرموك فلقّب بالأشتر، وله مواقف شهيرة في الجمل وصفين مع علي عليه السلام. وفي سنة (٣٨ هـ) ولاّه على مصر، فأمر معاوية دهقاناً وكان بالعريش - مدينة من أوّل أعمال مصر من ناحية الشام - أن يدسّ له السمّ، فلمّا نزل الأشتر العريش سمّه الدهقان في عسل، فقال معاوية: « لله جنود من العسل ».

وعبد الرحمان بن خالد، هو عبد الرحمان بن خالد بن الوليد المخزومي، وكان ممّن أدرك النبي صلى الله عليه وآله، وهو من فرسان قريش وشجعانهم، وكان له فضل وهدى وكرم، إلاّ إنّه كان منحرفاً عن علي عليه السلام، وذكر أنّ أخاه المهاجر كان مع علي بصفين، وذكر أنّ عبد الرحمان مرض فأمر معاوية طبيباً عنده يهودياً أن يأته فيسقيه سقية يقتله بها، فأتاه فسقاه فانخرق بطنه فمات.

وأمر معاوية ابن آثال النصراني أن يحتال في قتله، وضمن له أن يضع عنه خراجه ما عاش، وأن يوليه خراج حمص، فوفى معاوية بما ضمن له.

أمّا المهاجر بن خالد بن الوليد فدخل دمشق مستخفياً هو وغلام له، فرصد ذلك اليهودي، فخرج ليلاً من عند معاوية ومعه قوم، فهربوا عنه، فقتله المهاجر. وكان ابن آثال خبيراً بالأدوية المفردة والمركّبة، وقوّاها، ومنها سموم قواتل، وكان معاوية يقرّبه لذلك كثيراً.

انظر: الاستيعاب ٣٩٦/٢ تحت رقم ١٦٩٧، أُسد الغابة ٢٨٩/٣، تأريخ الطبري ١٢٨/٦، وابن الأثير ١٩٥/٣، المغتالين من الأشراف/٤٧، ابن كثير في البداية والنهاية ٣١/٨، الأغاني ١٣/١٤، مختصر ابن شحنة في هامش ابن الأثير ١٣٣/١١، عيون الأنباء في طبقات الأطباء/١٧١ طبعة بيروت.

وقتل ولده يزيد الإمام الحسين عليه السلام، تقدّم استخراج ذلك، وقد شرحنا ذلك مفصّلاً في تحقيقنا لكتاب الفصول المهمّة في معرفة الأئمّة - لابن الصباغ المالكي ١٣١/٢ وما بعدها. =

والذي يرتفع بهذا الظنّ إلى مرتبة الاطمئنان ما نعلمه من أنّ معاوية كان قد وضع الأرصاد والعيون على الحسين عليه السلام وعلى غيره ممّن يخشاهم على سلطانه، وأنّهم كانوا يكتبون إليه بما يفعل هؤلاء، ولا يغفلون عن إعلامه بأيسر الأمور وأبعدها عن إثارة الشكّ والريبة(1).

فلو تحفّز الحسين عليه السلام للثورة في عهد معاوية ثمّ قُضي عليه بهذه الميتة التي يُفضلها معاوية لأعدائه، فماذا كانت تكون جدوى فعله هذا الذي لم يخرج عن حدود الفكرة إلى أن يكون واقعاً بحياة الناس بدمائهم وأعصابهم؟ وما كان يعود على المجتمع الإسلامي من موته وقد قضى كما يقضي سائر الناس بهدوء وبلا ضجيج؟ إنّه لن يكون حينذاك سوى علوي مات حتف أنفه، يُثير موته الأسى في قلوب أهله ومحبيه وشيعة أبيه إلى حين، ثمّ يطوي النسيان ذكراه كما يطوي جميع الذكريات.

وأين هذا ممّا صار إليه أمره وأمر مبدئه حين ثار في عهد يزيد؟

* * *

= وضرب الكعبة بالمنجنيق. انظر: مروج الذهب ٣/٧٩، وأباح المدينة. انظر: تاريخ الخلفاء/٢٠٩، وحاصر عبد الملك مكة، وهدم الكعبة، وأطلق يد الحجّاج في دماء المسلمين. وبعبد الملك اقتدى أولاده وأحفاده، وزادوا عليه أضعافاً مضاعفة. انظر: الإمامة والسياسة ٢/٣٢، مروج الذهب - للمسعودي ٣/١٧٥، العقد الفريد ٣/٢١٤، ويقول صاحب مروج الذهب، وصاحب العقد الفريد في أقوال الناس في الحجّاج: أُحصي مَنْ قتلهم الحجّاج صبراً، سواء مَنْ قتل في حروبه، فكانوا (١٢٠) ألفاً. وكان في حبسه (٥٠) ألف رجلاً، و(٣٠) ألف امرأة؛ ستة عشر منهنّ عاريات، وكان يطعم المساجين - كما يقول ابن الجوزي في تاريخه - الخبز ممزوجاً بالرماد.

وجاء في العقد الفريد أيضاً على لسان عمر بن العزيز: لو جاء الناس يوم القيامة بفسّاقهم وجئنا بالحجّاج لزدنا عليهم.

(١) كان لمعاوية عين بالمدينة يكتب إليه بما يكون من أمور الناس، فكتب إليه: إنّ الحسين بن علي أعتق جارية وتزوّجها. انظر: أعيان الشيعة ٤/القسم الأوّل.

هذا بالإضافة إلى أنّ معاوية كان يُدرك أنّه ليس ينبغي له - وهو يحكم الناس بسلطان الدين - أن يرتكب من الأعمال ما يراه العامّة تحدّياً للدين يحكم بسلطانه، بل عليه أن يسبغ على أعماله غشاء دينياً لتنسجم هذه الأعمال مع المنصب الذي وصل إليه، أمّا ما لا يمكن تمويهه من التصرّفات فليرتكبه في السرّ[1].

وقد أظهره سلوكه المحافظ على تعاليم الدين بمظهر لا غبار عليه من الناحية الدينية عند العامّة، على الرغم من بعض الروايات التأريخيّة التي تؤكّد أنّه كان مُلحداً لا يؤمن بشيء؛ ممّا جعل المغيرة بن شعبة وهو في تحلّله يغتمّ لما سمعه منه في بعض مجالسه معه، ويقول عنه أنّه أخبث الناس[2].

وقد استغل ظروفه لإسباغ صفة الشرعية على منصبه؛ وذلك بدعواه أنّه يطلب بدم عثمان، وبما موّه على الرأي العام في مؤتمر التحكيم بعد صفّين من صلوحه للخلافة، وبصلحه مع الإمام الحسن عليه السلام وبيعة الناس له بالخلافة. فلو أفلت من معاوية الزمام، وغفلت عيونه وأرصاده فخرجت الفكرة إلى حيّز الواقع، وتحوّلت إلى دويٍّ عظيم، فهل كانت ثورة الحسين عليه السلام تنجح في عهد معاوية؟

والذي نتساءل عنه هنا ليس النجاح العسكري؛ فإنّ ثورته ما كانت لتحوز نصراً عسكرياً آنيّاً يمكّن الحسين عليه السلام من الإمساك بالسلطة؛ لأنّه كان ضعيفاً من الناحية الماديّة، ومعاوية أقوى ما يكون، وقد رأينا أنّها أخفقت عسكرياً في عهد يزيد مع أنّ سلطان الأُمويّين في عهده كان بالغ الضعف؛ بسبب استنكار عامّة

(١) انظر: تاريخ الإسلام السياسي ١/٥٣٣.

(٢) انظر: شرح نهج البلاغة ٢/٣٥٧، مروج الذهب ٢/٣٤١.

المسلمين لسلطانه، وبسبب التناحر القبلي الذي كان قد بلغ غايته في الشام[١].

وإنّما نتساءل عن نجاح ثورته بمعنى تمكّنه من التعبير بها عن أهدافه الاجتماعيّة والإنسانيّة، وإشعار الناس بواقعهم السيِّئ، وكشف الحكم الأُموي على حقيقته لأعينهم، وبعث روح جديدة فيهم، وبث أخلاق جديدة بينهم، على النحو الذي سنرى أنّه تمكّن منه في عهد يزيد.

والجواب الذي لا بدّ منه هنا هو النفي، بل كان مصيره إلى الإخفاق على الصعيد العسكري، وعلى هذا الصعيد الآخر الذي بوّأ ثورته في عهد يزيد منزلة فريدة في تأريخ الثورات.

وإذا بحثنا عن السبب في إخفاق ثورة الحسين عليه السلام لو ثار في عهد معاوية لوجدناه في مسحة الدين التي كان معاوية يحرص على إسباغها على سلوكه وسائر تصرّفاته أمام العامّة، وفي صفة الشرعية التي أفلح في أن يسبغها على منصبه لدى جانب كبير من الرأي العام الإسلامي.

فإنّ هذا الواقع كان يُجرِّد ثورة الحسين عليه السلام - لو ثار - من مبرّرها الوحيد؛ لأنّ الجواب الذي كان سيقدّمه معاوية وأعوانه للناس حيث يتساءلون عمّا حمل الحسين عليه السلام على الثورة، أو يجيب به الناس أنفسهم، هو أنّ الحسين عليه السلام طالب ملك، ولو قُتل الحسين عليه السلام في سبيل ما توهّمه الناس هدفاً من ثورته لما أثار قتله استنكاراً، ولما عاد قتله بشيء على مبادئه ودوافعه الحقيقية للثورة، بل ربّما عدّه فريق من الناس مستحقّاً للقتل.

ولن يجدي الحسين عليه السلام وأنصاره أن يعلنوا للناس أنّ ثورتهم

(١) كان التناحر بين قيس وكلب، أو بين مضر واليمن قد بلغ غايته في عهد يزيد، ثم انفجر [بعد] موته بسبب الاختلاف فيمَنْ يخلف معاوية الثاني الذي تنازل عن الحكم، ونشبت الحروب بين القبائل بسبب ذلك. راجع: ولهاوزن - الدولة العربيّة/١٦٥ - ١٧٣، وبروكلمان - تأريخ الشعوب الإسلاميّة ١/١٥٦ - ١٥٧.

لحماية الدين من تحريف وتزييف معاوية، وإنقاذ الأمّة من ظلمه، فلن يصدّقهم الناس؛ لأنّهم لا يرون على الدين من بأس، ولم يُحدث معاوية في الدين حدثاً، ولم يُجاهر بمنكر، بل سيرى الناس أنّ مقالتهم هذه ستار يخفي مقاصدهم الحقيقية.

العهد والميثاق

ولقد كان معاوية خليقاً بأن يستغل في سبيل تشويه ثورة الحسين عليه السلام - لو ثار في عهده - هذا الميثاق الذي كان نتيجة صلح الحسن عليه السلام مع معاوية، فلقد عرف عامّة الناس أنّ الحسن والحسين عليهما السلام قد عاهدا معاوية على السكوت عنه، والتسليم له ما دام حيّاً[1]، ولو ثار الحسين عليه السلام على معاوية لأمكن لمعاوية أن يصوّره بصورة المنتهز الناقض لعهده وميثاقه الذي أعطاه.

ونحن نعلم أنّ الحسين عليه السلام ما كان يرى في عهد معاوية عهداً حقيقياً بالرعاية والوفاء؛ فقد كان عهداً تمّ بغير رضاً واختيار، وقد كان عهداً تمّ في ظروف لا بدّ للمرء في تغييرها.

ولقد نقض معاوية هذا العهد، ولم يعرف له حرمة، ولم يحمل نفسه مؤونة الوفاء به، فلو كان عهداً صحيحاً لكان الحسين عليه السلام في حلّ منه؛ لأنّ معاوية قد تحلل منه، ولم يأل في نقضه جهداً.

ولكنّ مجتمع الحسين عليه السلام، هذا المجتمع الذي رأينا أنّه لم يكن أهلاً للقيام بالثورة، والذي كان يؤثر السلامة والعافية كان يرى أنّه قد عاهد، وإنّ عليه أن

---

(١) انظر: شرح نهج البلاغة « بتحقيق مُحَمَّد أبو الفضل إبراهيم » ٤/٨.

يفي[1].

وأكبر الظنّ أنّ ثورته - لو قام بها في عهد معاوية - كانت ستفشل على الصعيد السياسي وعلى الصعيد الاجتماعي حين ينظر إليها المجتمع الإسلامي من الزاوية التي كان معاوية سيسلّط عليها الأضواء، وهي هذا العهد والميثاق الذي نقضه الحسين عليه السلام وأنصاره من الثائرين، فيظهرها للرأي العام وكأنّها تمرّد غير مشروع.

ولعلّ هذا هو ما يفسّر جواب الحسين عليه السلام لسليمان بن صرد الخزاعي حين فاوضه في الثورة على معاوية، والحسن عليه السلام حي، فقد قال له: « فليكن كلّ رجل منكم حلساً من إحلاس بيته ما دام هذا الإنسان حيّاً؛ فإنّها بيعة كنتُ والله لها كارهاً، فإن هلك معاوية نظرنا ونظرتم، ورأينا ورأيتم »[2].

وجوابه لعدي بن حاتم الطائي وقد فاوضه في الثورة أيضاً بقوله:

---

(١) يميل المرحوم الشيخ راضي آل ياسين في كتابه النفيس « صُلح الحسن »/٢٥٢ - ٢٧٠ - الطبعة الأولى - إلى التأكيد على أنّ الحسن والحسين عليهما السلام لم يبايعا معاوية بالخلافة؛ استناداً إلى نصوص وردت في بعض التي رُوي بها الميثاق بين الإمام الحسن عليه السلام ومعاوية، والتي يراها في بعض الصيغ دالّة على إعفاء الحسن عليه السلام من كلّ التزام يشعر بأنّه سلّم إلى معاوية - بالإضافة إلى السلطان السياسي - الإمامة الدينية أيضاً.

وهذا رأي لا نملك رفضه، فشيء آخر غير ما ذكر من النصوص، وهو شخصيتا الحسن عليه السلام ومعاوية يعزّز هذا الرأي. ولكن هذا الواقع لا يُغيّر من جوهر المسألة شيئاً؛ فقد أظهر معاوية للرأي العام أنّ الحسن عليه السلام قد بايع بما لهذه الكلمة من دلالات زمنية ودينية، وقد كان المسلمون ينظرون إلى البيعة على أنّها عهد لا يمكن نقضه ولا الفكاك منه. لاحظ كتابنا « نظام الحكم والإدارة في الإسلام »/٤٨، ففيه شواهد تأريخيّة، ولاحظ أيضاً « الدولة العربيّة وسقوطها » لهاوزن/١١٥، وسمو المعنى في سمو الذات - للشيخ عبد الله العلايلي/١٠١ - ١٠٥. منه رحمه الله.

(٢) انظر: الأخبار الطوال/٢٢١، الإمامة والسياسة ١/١٧٣.

« إنّا قد بايعنا وعاهدنا، ولا سبيل لنقض بيعتنا »[1].

وقد ثبت على موقفه هذا بعد وفاة الإمام الحسن عليه السلام ، فقد روى الكلبي، والمدائني، وغيرهما من أصحاب السير، قالوا: « لما مات الحسن بن علي عليهما السلام تحرّكت الشيعة بالعراق، وكتبوا إلى الحسين في خلع معاوية والبيعة له فامتنع عليهم، وذكر أنّ بينه وبين معاوية عهداً وعقداً ولا يجوز له نقضه حتّى تمضي المدّة، فإذا مات معاوية نظر في ذلك »[2].

وقد كان معاوية يستغل هذه الحُرمة التي للعهد في نفوس الناس؛ فيلوّح بها في مكاتباته إلى الإمام الحسين عليه السلام حول نشاطه في تعبئة المجتمع الإسلامي للثورة على الحكم الأُموي؛ فقد كتب إليه: « أمّا بعد، فقد انتهت إليّ أُمور عنك، إن كانت حقّاً فإنّي أرغب بك عنها. ولعمر الله، إنّ مَنْ أعطى عهد الله وميثاقه لجدير بالوفاء، وإنّ أحق الناس بالوفاء مَنْ كان مثلك في خطرك وشرفك، ومنزلتك التي أنزلك الله بها. ونفسك فاذكر، وبعهد الله أوفِ؛ فإنّك متى تنكرني أنكرك، ومتى تكدني أكدك، فاتقِ شقّ عصا هذه الأُمّة »[3].

---

(١) انظر: الأخبار الطوال/٢٠٣.

(٢) انظر: الإرشاد/٢٠٦، إعلام الورى/٢٢٠، تأريخ الخلفاء/٢٠٦، وقد ذكر فيليب حتّي « تأريخ العرب » ٢/٢٥٢ أنّ أهل الكوفة كانوا قد بايعوا الحسين بعد موت أخيه، وهذا غير صحيح، وما صح هو هذه المحاولة التي لم يستجب لها الإمام الحسين عليه السلام .

(٣) انظر: الأخبار الطوال/٢٢٤ - ٢٢٥، والإمامة والسياسة ١/١٨٨.

فها هو ذا معاوية يُلوّح هنا بالعهد والميثاق، ويُطالب بالوفاء بهما.

ولربما فهم الناس من ثورته لو ثار في عهد معاوية أنّه كان على غير رأي أخيه الحسن عليه السلام في الصلح مع معاوية، وقد كان الحسين عليه السلام دائماً حريصاً على أن يُظهر اتّفاقه مع أخيه في القرار الذي اتّخذه.

ومن جملة ما يدلّ على ذلك جوابه لعلي بن مُحَمَّد بن بشير الهمداني حين ذكر له امتناع الحسين عليه السلام من إجابة مَنْ دعاه إلى الثورة بعد الصلح، مبيّناً لهم عدم استعداد المجتمع الإسلامي لذلك: « صدق أبو مُحَمَّد، فليكن كلّ رجل منكم حلساً من إحلاس بيته ما دام هذا الإنسان حيّاً »[1].

وإذاً، فلم يثُر الحسين عليه السلام في عهد معاوية؛ لأنّ المجتمع لم يكن مُهيئاً للثورة[2]، وكان هذا هو السبب الذي دفع بالحسن عليه السلام إلى أن يُصالح معاوية بعدما تبيّن له عقم محاولة المضي في الصراع، ولولا ذلك لما صالح الحسن عليه السلام معاوية، ولما قعد الحسين عليه السلام عن الثورة على معاوية.

وقد أضاف هذا الصلح سبباً آخر منع الحسين عليه السلام من الثورة على معاوية الذي كانت شخصيته عاملاً في جعل الثورة عليه عملاً غير مضمون بالنجاح؛ ولذا فقد كان لا بدّ للحسن والحسين عليهما السلام - وهذه هي ظروفهما في عهد معاوية - أن يُهيّئا هذا المجتمع للثورة، وأن يعدّاه لها.

وقد مضت الدعوة إلى الثورة على الحكم الأُموي تنتشر بنجاح طيلة عهد معاوية، تجد غذاءها في ظلم معاوية وجوره، وبُعده عن تمثيل الحكم الإسلامي الصحيح، وانتهى الأمر بهذه الدعوة إلى هذا النجاح الكبير الذي أوجزه

---

(١) انظر: الأخبار الطوال/٢٢١.

(٢) انظر: الإرشاد - للشيخ المفيد/١٩٩ طبعة النجف الأشرف سنة ١٩٦٢.

الدكتور طه حسين في هذه الكلمات: « ومات معاوية حين مات، وكثير من الناس وعامّة أهل العراق بنوع خاص يرون بغض بني أُميّة وحبّ أهل البيت لأنفسهم ديناً »[1].

شخصيّة يزيد

أمّا يزيد فقد كان على الضدّ مع أبيه في كلّ ما كان يحول بين الحسين عليه السلام وبين الثورة على أبيه. لقد كان يزيد من أبعد الناس عن الحذر والحيطة والتروّي، كان إنساناً صغير العقل، متهوراً، سطحي التفكير، « لا يهم بشيء إلاّ ركبه »[2].

وأُسلوبه في معالجة المشاكل التي واجهته خلال حكمه يعزّز وجهة النظر هذه. أُسلوبه في معالجة ثورة الحسين عليه السلام، وأُسلوبه في معالجة ثورة أهل المدينة، وأُسلوبه في معالجة ثورة ابن الزبير.

وتدلّ بعض الملاحظات التي ذكرها المؤرّخون عن حياته العاطفية أنّ هذا النزق والتهوّر، والاستجابة السريعة العنيفة للانفعال ليس أموراً عارضة، بل هي سمات أصيلة في شخصيته[3].

---

(١) انظر: الفتنة الكبرى - ٢ - علي وبنوه - للدكتور طه حسين/٢٩٥.

(٢) انظر: أنساب الأشراف ٤/القسم الثاني/١.

(٣) انظر المصدر نفسه، وله أبيات من الشعر فيها دلالة على تهتّكه. ومن =

ومن ثمّ فهو أبعد الناس عن أن يواجه ثورة الحسين (عليه السلام) بأسلوب أبيه، بل القريب أن يواجهها بالأُسلوب الذي يتّفق مع شخصيته، وهو ما حدث في النهاية بالنسبة إليها وإلى غيرها من المشاكل التي واجهته.

ونشأة يزيد المسيحية، أو القريبة من المسيحية[1]، جعلته أضعف ما يكون صلة بالعقيدة التي يُريد أن يحكم الناس باسمها، أعني الإسلام. وحياة التحلّل التي عاشها قبل أن يلي الحكم، والانسياق مع العاطفة، وتلبية كلّ رغباته، كلّ ذلك جعله عاجزاً عن التظاهر بالورع والتقوى والتلبّس بلباس الدين بعد أن حكم المسلمين.

هذا بالإضافة إلى أنّ طبيعته النزقة جعلته يُعالن الناس بارتكاب المحرّمات، ويُقارف من الآثام ما عرف الناس بمدى بُعده عن الصلاحية لتولّي منصب الخلافة. ومن ثمّ فلن يكون في وسع أنصار الحكم الأُموي أن يُلوثوا ثورة الحسين (عليه السلام) أمام الرأي العام بأنّها ثورة في سبيل الملك؛ لأنّ العامّة ترى أنّ مبرّرات هذه الثورة موجودة في سلوك يزيد نفسه.

هذا السلوك الذي لا يلتقي مع الدين على صعيد، وسيقبل الناس بلا تردّد تبرير الحسين (عليه السلام) وأنصاره لثورتهم بحماية الدين، وإنقاذ المسلمين من جور الأُمويّين.

= أبياته في زوجته أُمّ خالد:

وما نحنُ يوم استعبرت أُمّ خالدٍ ... بمرضى ذوي داءٍ ولا بصحاحِ
وقامت لتسقي الشُّربَ حُمراً عيونهم ... مُخضّبة الأطرافِ ذات وشاحِ
لها عُكَنٌ بيضٌ كأنّ غصونها ... إذا شَفّ عنها السابري فداحِ

انظر: تأريخ مدينة دمشق ٦٩/١١٢، نسب قريش/١٢٨.

(١) انظر: تأريخ العرب ٢/٢٥٨، سمو المعنى في سمو الذات/٥٩ - ٦١. وعن حياة اللهو لاحظ ولهاوزن - الدولة العربيّة وسقوطها/١٣٧ - ١٣٨، وبروكلمان - تأريخ الشعوب الإسلاميّة ١/١٥٦.

موقف الحسين عليه السلام من يزيد في حياة معاوية

وقد حاول معاوية أن يُقيّد الإمام الحسين عليه السلام ببيعة يزيد، أو يضمن - على الأقل - سكوت الإمام الحسين عليه السلام عن يزيد، فلم يفز بطائل. ويروي المؤرّخون عدّة مواقف للحسين عليه السلام مع معاوية حين أخذ يعدّ الأمر لابنه يزيد من بعده.

وكان من جملة كتبه إليه في هذا الشأن قوله في أحدها: «... وفهمت ما ذكرت عن يزيد من اكتماله وسياسته لأمّة مُحَمَّد؛ تريد أن توهم الناس في يزيد كأنّك تصف محجوباً، أو تنعت غائباً، أو تخبر عمّا كان ممّا احتويته بعلم خاص.

وقد دلّ يزيد من نفسه على موضع رأيه؛ فخذ ليزيد فيما أخذ به من استقرائه الكلاب الهراش عند التهارش، والحمام السبق لأترابهنّ، والقيان ذوات المعازف، وضرب الملاهي تجده باصراً، ودع عنك ما تحاول؛ فما أغناك أن تلقى الله من وزر هذا الخلق بأكثر ممّا أنت لاقيه. فوالله ما برحت تقدح باطلاً في جور، وحنقاً في ظلم حتّى ملأت الأسقية، وما بينك وبين الموت إلاّ غمضة... »[١].

وقد أراد معاوية أن يحمل الحسين عليه السلام على البيعة ليزيد بحرمان بني هاشم جميعاً من أعطياتهم حتّى يبايع الحسين (عليه السلام)[٢]، فلم يتحقق له ما أراد، ومات معاوية والحسين عليه السلام باقٍ على موقفه من الإنكار لبيعة يزيد.

---

(١) انظر: الإمامة والسياسة ١/١٩٥ - ١٩٦.

(٢) انظر: الإمامة والسياسة ١/٢٠٠، الكامل في التاريخ ٣/٢٥٢.

« ومات معاوية حين مات وكثير من الناس وعامة أهل العراق - بنوع خاص - يرون بغض بني أُميّة وحبّ أهل البيت لأنفسهم ديناً »[1]؛ فقد اكتشف المجتمع الإسلامي ما فيه الكفاية من عورات الحكم الأموي، وذاق طعم عذابه، وخبر ألواناً من عسفه وظلمه في الأرزاق والكرامات، وانزاحت عن بصيرته الغشاوة التي رانت عليها في أوّل عهد معاوية.

ولم يكن يزيد في مثل تروّي أبيه وحزمه واحتياطه للأمور، ولم يلتزم أُسلوب أبيه في الاحتفاظ بالغشاء الديني مُسدلاً على أفعاله وتصرّفاته، ولم يكن بين الحسن والحسين عليهما السلام من جهة وبين يزيد من جهة أُخرى أي عهد أو ميثاق.

وهكذا فقد انزاحت بموت معاوية ووعي المجتمع الإسلامي جميع الأسباب التي كانت تحول بين الحسين عليه السلام وبين الثورة في عهد معاوية، وبدا الطريق

(١) انظر: الفتنة الكبرى - ٢ - علي وبنوه - للدكتور طه حسين/٢٩٥.

إلى الثورة على الحكم الأموي مُمهّداً أمام الحسين عليه السلام.

وقد عجّل تلهف يزيد على أخذ البيعة له من كبار زعماء المعارضة له - وعلى رأسهم الحسين عليه السلام - في تتابع الأحداث؛ فقد كان أكبر همّه حين آل الأمر بعد موت أبيه هو بيعة النفر الذين أبوا على معاوية بيعة يزيد، فكتب إلى الوليد بن عتبة والي المدينة كتاباً يُخبره فيه بموت معاوية، وكتاباً آخر جاء فيه: « أمّا بعد، فخذ حسيناً، وعبد الله بن عمر، وابن الزبير بالبيعة أخذاً ليس فيه رخصة حتّى يبايعوا، والسّلام »[1].

ولقد آثر الحسين عليه السلام أن يتخلّص من الوليد بالحُسنى حين دعاه إلى البيعة، فقال له: « مثلي لا يبايع سرّاً، ولا يجتزئ بها منّي سرّاً، فإذا خرجت للناس ودعوتهم للبيعة ودعوتنا معهم كان الأمر واحداً ».

ولكن مروان قال للوليد: « لئن فارقك الساعة ولم يُبايع لا قدرت منه على مثلها أبداً حتّى تكثر القتلى بينكم وبينه، ولكن احبسه فإن بايع

---

(١) انظر: الكامل في التاريخ ٥٢٩/٢ و٢٦٣/٣، تاريخ الطبري ٢٥٠/٤ و٣٣٨/٥، الأخبار الطوال - لابن داود الدينوري/٢٢٧، وفي الفتوح ٣٥٥/٢ و٩/٣ زيادة: فمَنْ أبى عليك منهم فاضرب عنقه وابعث إليّ برأسه. وفي مقتل الحسين - للخوارزمي ١٨٠/١ مثله.

وهذا يُبطل كلّ كلام يُدافع به عن يزيد وعن تبرير المنافقين والمستشرقين الذي يدّعون بأنّ يزيد لم يكن راغباً في قتل الإمام الحسين عليه السلام.

وإلاّ ضربت عنقه ».

فوثب الحسين عليه السلام عند ذلك، وقال: « ويلي عليك يابن الزرقاء! أنت تأمر بضرب عُنقي؟ كذبت ولؤمت ».

ثمّ أقبل على الوليد فقال: « أيها الأمير، إنّا أهل بيت النبوّة، ومعدن الرسالة، ومختلف الملائكة، بنا فتح الله، وبنا يختم، ويزيد فاسق فاجر، شارب الخمر، قاتل النفس المحترمة، معلن بالفسق والفجور، ومثلي لا يبايع مثله »(1).

بهذه الكلمات أعلن الحسين عليه السلام ثورته على الحكم الأُموي الفاسد على عظمته وجبروته وقسوته في مؤاخذة الخارجين عليه، فقد مات معاوية وانقضى العهد والميثاق، وأصبح وجهاً لوجه أمام دوره التأريخي الذي يتحتّم

---

(1) انظر: مقتل الحسين - للخوارزمي 1/184 وزاد فيه: « والله لو رام ذلك أحد لسقيت الأرض من دمه قبل ذلك، فإن شئت ذلك فرم أنت ضرب عنقي إن كنت صادقاً... ». تأريخ الطبري 4/251، تذكرة الخواص - لسبط ابن الجوزي/229 طبعة إيران، الآداب السلطانية - للفخري/88، الكامل في التاريخ - لابن الأثير 4/75، تاريخ ابن عساكر 7/407، أنساب الأشراف 5/129، الفتوح 3/14، وكان يُقال له - أي مروان - ولولده: بنو الزرقاء، يقول ذلك من يريد ذمّهم وعيبهم. وهي الزرقاء بنت موهب جدّة مروان بن الحكم لأبيه، وكانت من ذوات الرايات التي يستدلّ بها على بيوت البغاء؛ فلهذا كانوا يدعون بها.

وقال البلاذري في أنساب الأشراف 5/126: اسمها مارية ابنة موهب، وكان قيناً.

انظر: تذكرة الخواص/229، تأريخ ابن عساكر 7/407، تأريخ الطبري 8/16، تفسير من آية 13 سورة القلم في قوله: (عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ)، وانظر: كنز العمال - للمتقي الهندي 1/156، روح المعاني - للآلوسي 29/28، الإمامة والسياسة 1/227.

عليه أن يصنعه، وإنّه لعلى يقين من أنّ حكم يزيد لن يأخذ صفة شرعية ما دام هو مُمسكاً عن بيعته، أمّا إذا بايعه فإنّه يكون قد اكتسب الغلّ الجديد الذي طُوقت به الأمّة المسلمة صفة قانونية شرعية، وهذا شيء لا يفعله عليه‌السلام .

إنّ ثمّة فرقاً عظيماً بين أن تكون الأُمّة راضخة لحكم ظالم ولكنّها تعلم أنّه حكم بغير حقّ، وأنّه حكم يجب أن يزول، وبين أن تخضع الأُمّة لحكم ظالم وترى أنّه حكم شرعي لا بدّ منه، ولا يجوز تغييره.

إنّ الأُمّة في الحالة الثانية ترى أنّ حياتها التعسة، وأنّ التشريد والجوع والحرمان والذلّ هو قدرها الذي لا مفرّ لها منه، هو مصيرها المحتوم الذي لا بدّ أن تصير إليه، وحينئذ يُقضى على كلّ أمل في تغيير الأوضاع، وحينئذ يضمحلّ كلّ أمل في الثورة، وحينئذ تدعم الأُمّة جلاّديها بدل أن تثور عليهم، وحينئذ يُصار إلى الرضا بما هو كائن بحسبانه ما ينبغي أن يكون.

أمّا حين تخضع الأُمّة وهي تعلم أنّ الحاكم لا حقّ له فحينئذ يبقى الأمل في التغيير حيّاً نابضاً، وتبقى الثورة مشتعلة في النفوس، وحينئذ يكون للثائرين مجال للعمل؛ لأنّ التربة مُعدّة للثورة.

وكان على الحسين عليه‌السلام وحده أن ينهض بهذا الدور. لقد كانت الثورة قدره المحتوم، أمّا الآخرون الذين أبوا البيعة ليزيد فلم يكن لهم عند المسلمين ما للحسين عليه‌السلام من المنزلة وعلوّ الشأن؛ أمّا ابن عمر فسرعان ما سلّم قائلاً: « إذا بايع الناس بايعت »[1]؛ وأمّا ابن الزبير فقد كان الناس يكرهونه ويتّهمونه في إبائه البيعة بأنّه يريد الأمر لنفسه؛ فلم تكن دوافعه دينية خالصة، وإنّما كان يدفعه الطمع

---

(١) انظر: تاريخ الطبري ٤/٢٥٤، الكامل في التاريخ ٣/٢٦٥، أنساب الأشراف ١/١٤.

في الخلافة، وما كان الناس يرونه لذلك أهلاً.

ذكر ابن كثير في البداية والنهاية أنّ الحسين **عليه‌السلام** لما خرج وابن الزبير من المدينة إلى مكة، وأقاما بها، « عكف الناس على الحسين يفدون إليه، ويقدمون عليه، ويجلسون حواليه، ويستمعون كلامه، وينتفعون بما يسمع منه، ويضبطون ما يروون عنه »[(١)]. ومغزى هذا الخبر بيّن فقد اتّجهت أنظار الناس إلى الحسين عليه‌السلام وحده فانقطعوا إليه، وهذا يدلّك على مركزه في نفوس المسلمين إذ ذاك.

قال أبو الفرج الأصفهاني: « إنّ عبد الله بن الزبير لم يكن شيء أثقل عليه من مكان الحسين بالحجاز، ولا أحبّ إليه من خروجه إلى العراق؛ طمعاً في الوثوب بالحجاز، وعلماً منه بأنّ ذلك لا يتمّ له إلاّ بعد خروج الحسين »[(٢)].

وكان الحسين عليه‌السلام يعي هذا أيضاً، فقد قال يوماً لجلسائه: « إنّ هذا - يعني ابن الزبير - ليس شيء يؤتاه من الدنيا أحبّ إليه من أن أخرج من الحجاز إلى العراق، وقد علم أنّه ليس له من الأمر شيء معي، وأنّ الناس لم يعدلوه بي، فودّ أنّي خرجت منها لتخلو له »[(٣)].

وقال عبد الله بن عباس له وهو يحاوره في الخروج إلى العراق: « لقد أقررت عين ابن الزبير بتخليتك إيّاه والحجاز،

(١) انظر: البداية والنهاية ٣/٢١٧.

(٢) انظر: مقاتل الطالبيّين/٢٤٥، وأنساب الأشراف ٤/١٣ - ١٤، الإرشاد/٢٠٢.

(٣) انظر: تأريخ الطبري ٤/٢٨٨، والكامل ٣/٢٧٦، وأنساب الأشراف ٤/١٤.

والخروج منها، وهو اليوم لا ينظر إليه أحد معك »[1].

كلّ هذا يكشف عن مدى تعلّق جماهير المسلمين بالحسين عليه السلام باعتباره رجل الساعة. ويقيناً لو أنّه بايع يزيد لما كان لابن الزبير وأضرابه وزن في المعارضة؛ لأنّهم حينئذ ما كانوا ليجدوا أنصاراً على ما يريدون.

وإذاً، فقد وجد الحسين عليه السلام نفسه وجهاً لوجه أمام دوره التاريخي؛ الحكم الأُموي بكلّ ما فيه من فساد وانحطاط ورجعية وظلم، والأُمّة المسلمة بذلّها وجوعها وحرمانها ومركزه العظيم في المسلمين، كلّ ذلك وضعه وجهاً لوجه أمام دوره التأريخي، وخطّط له المصير الذي يتحتّم عليه أن يضعه لنفسه، وعند ذلك أعلن ثورته بهذه الكلمات التي مرّت عليك، وقد أجمل فيها أسباب هذه الثورة؛ التهتك، والتطاول على الدين، والاستهتار بحقوق الشعب، هذه هي أسباب ثورة الحسين عليه السلام.

ويبدو أنّ يزيد بن معاوية أراد أن يخنق ثورة الحسين عليه السلام قبل اشتعالها، وذلك باغتياله في المدينة. وقد وردت إشارتان إلى ذلك في كتاب أورده اليعقوبي في تأريخه[2] من ابن عباس إلى يزيد بن معاوية صريحتان في الدلالة على أنّ يزيد دسّ رجالاً ليغتالوا الحسين عليه السلام في المدينة قبل مغادرته إيّاها إلى العراق؛ ولعلّ هذا ما يكشف لنا عن سبب خروج الحسين عليه السلام من المدينة بصورة سرّية.

---

(١) انظر: تأريخ الطبري ٤/٢٨٨، والكامل ٣/٢٧٦، وأنساب الأشراف ٤/١٤.

(٢) انظر: تأريخ اليعقوبي ٢/٢٣٤ - ٢٣٦، طبع النجف سنة ١٩٦٤ م.

بواعث الثورة عند الحسين عليه السلام

إنّ العنصر الاجتماعي شديد البروز في ثورة الحسين عليه السلام، ويستطيع الباحث أن يُلاحظه فيها من بدايتها حتّى نهايتها، ويرى أنّ الحسين عليه السلام ثار من أجل الشعب المسلم.

لقد ثار على يزيد باعتباره مُمثّلاً للحكم الأُموي. هذا الحكم الذي جوّع الشعب المسلم، وصرف أموال هذا الشعب في اللذات والرشا، وشراء الضمائر وقمع الحركات التحرّرية. هذا الحكم الذي اضطهد المسلمين غير العرب وهدّدهم بالإفناء، ومزّق وحدة المسلمين العرب، وبعث بينهم العداوة والبغضاء. هذا الحكم الذي شرّد ذوي العقيدة السياسيّة التي لا تنسجم مع سياسة البيت الأموي، وقتلهم تحت كلّ حجر ومدر، وقطع عنهم الأرزاق، وصادر أموالهم.

هذا الحكم الذي شجّع القبيلة على حساب الكيان الاجتماعي للأُمّة المسلمة. هذا الحكم الذي عمل عن طريق مباشر تارة، وعن طريق غير مباشر تارة أُخرى على تقويض الحس الإنساني في الشعب، وقتل كلّ نزعة إلى التحرّر بواسطة التخدير الديني الكاذب.

كلّ هذا الانحطاط ثار عليه الحسين عليه السلام، وها هو يقول لأخيه مُحمَّد بن الحنفيّة في وصيته له: « إنّي لم أخرج أشراً ولا بطراً، ولا مفسداً ولا ظالماً، وإنّما خرجت لطلب الإصلاح في أُمّة جدّي، أُريد أن آمر

بالمعروف وأنهى عن المنكر، فمَنْ قبلني بقبول الحقّ فالله أولى بالحقّ، ومَنْ ردّ عليّ هذا أصبر حتّى يحكم الله بيني وبين القوم بالحقّ، وهو خير الحاكمين »[1]. فالإصلاح في أُمّة جدّه ﷺ هو هدفه من الثورة.

وهنا شيء أُريد أن أنبه عليه في قوله: «... فمَنْ قبلني بقبول الحقّ فالله أولى بالحقّ ». إنّه لم يقل: فمَنْ قبلني لشرفي ومنزلتي في المسلمين، وقرابتي من رسول الله، وما إلى ذلك... لم يقل شيئاً من هذا، إنّ قبوله يكون بقبول الحقّ فهذا داع من دعاته، وحين يقبل الناس داعي الحقّ فإنّما يقبلونه لما يحمله إليهم من الحقّ والخير لا لنفسه، وفي هذا تعالٍ وتسامٍ عن التفاخر القبلي الذي كان رأس مال كلّ زعيم سياسي أو ديني في عصره عليه السلام.

* * *

وظهر العصر الاجتماعي في ثورة الحسين عليه السلام أيضاً حين التقى مع الحرّ بن يزيد الرياحي، وقد كان ذلك بعد أن علم الحسين عليه السلام بتخاذل أهل العراق عنه بعد بيعتهم له، وبعد أن انتهى إليه نبأ قتل رسوله وسفيره إليهم مسلم بن عقيل، وبعد أن تبيّن له ولمَنْ معه المصير الرهيب الذي ينتظرهم جميعاً، فقد خطب الجيش الذي مع الحرّ قائلاً: « أيّها الناس، إنّ رسول الله ﷺ قال: مَنْ رأى سلطاناً جائراً، مستحلاً لحرام الله، ناكثاً لعهد الله، مخالفاً لسنة رسول

(١) انظر: الفتوح - لابن أعثم ٥/٣٤، مناقب آل أبي طالب ٣/٢٤١.

الله، يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان، فلم يُغيّر ما عليه بفعل ولا قول كان حقّاً على الله أن يدخله مدخله.

ألا وإنّ هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان، وتركوا طاعة الرحمن، وأظهروا الفساد، وعطّلوا الحدود، واستأثروا بالفيء، وأحلّوا حرام الله، وحرّموا حلاله، وأنا أحقّ مَنْ غيّر. وقد أتتني كتبكم، وقدمت عليّ رسلكم ببيعتكم، وإنّكم لا تُسلموني ولا تخذلوني، فإن تممتم عليّ بيعتكم تصيبوا رُشدكم؛ فإنّي الحسين بن علي، وابن فاطمة بنت رسول الله ﷺ، نفسي مع أنفسكم، وأهلي مع أهليكم، فلكم فيّ أُسوة.

وإن لم تفعلوا ونقضتم عهدكم، وخلعتم بيعتي من أعناقكم، فلعمري ما هي لكم بنُكر؛ لقد فعلتموها بأبي وأخي وابن عمّي مسلم بن عقيل، والمغرور مَنْ اغترّ بكم، فحظّكم أخطأتم، ونصيبكم ضيّعتم، ومَنْ نكث فإنّما ينكث على نفسه »[1]. فهو هنا يبيّن لهم أسباب ثورته: إنّها الظلم، والاضطهاد والتجويع، وتحريف الدين، واختلاس أموال الأُمّة.

ثمّ انظر كيف لمح لهم إلى ما يخشون، لقد علم أنّهم يخشون الثورة لخشيتهم الحرمان والتشريد، فهم يؤثرون حياتهم على ما فيها من انحطاط وهوان على محاولة التغيير خشية أن يفشلوا فيعانوا القسوة والضّنك.

لقد علم منهم هذا، فقال لهم:

---

(١) انظر: تأريخ الطبري ٣/٣٠٧ و٤/٣٠٤ - ٣٠٥، والكامل في التأريخ ٣/٢٨٠.

« فإنّي الحسين بن علي، وابن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله ». فبيّن لهم مركزه أوّلاً، ثمّ قال لهم: « نفسي مع أنفسكم، وأهلي مع أهليكم، فلكم فيّ أُسوة »، فيما قد يحدث من اضطهاد وحرمان.

ويقف المتأمّل وقفة أُخرى عند قوله: « وأنا أحقّ من غيّر ». فيها تعبير عن شعوره بدوره التأريخي الذي يتحتّم عليه أن يقوم بأدائه.

ومرّة ثالثة حدّث الحسين عليه السلام أهل العراق عن ثورته ومبرراتها، وكانت خطبته هذه في الساعات الأخيرة التي سبقت اشتباك القتال بينه وبين الجيش الأموي. قالوا: إنّه عليه السلام ركب فرسه فاستنصتهم فلم ينصتوا، حتّى قال لهم: « ويلكم! ما عليكم أن تنصتوا لي فتسمعوا قولي؟! وإنّما أدعوكم إلى سبيل الرشاد، فمَنْ أطاعني كان من المرشدين، ومَنْ عصاني كان من المهلكين، وكلّكم عاصٍ لأمري، غير مستمع لقولي، فقد مُلئت [بطونكم] من الحرام، وطُبع على قلوبكم. ويلكم! ألا تنصتون؟ ألا تسمعون؟ ».

فتلاوم أصحاب عمر بن سعد بينهم، وقالوا: « أنصتوا له. فحمد الله وأثنى عليه وذكره بما هو أهله، وصلّى على مُحمَّد وعلى الملائكة والأنبياء والرسل، وأبلغ في المقال ».

ثمّ قال: « تبّاً لكم أيّها الجماعة وترحاً! أحين استصرختمونا والهين فأصرخناكم موجفين، سللتم علينا سيفاً لنا في أيمانكم، وحششتم علينا ناراً أوقدناها على عدوّنا وعدوّكم، فأصبحتم إلباً على أوليائكم، ويداً عليهم لأعدائكم، بغير عدل أفشوه فيكم، ولا أمل أصبح لكم فيهم، إلاّ الحرام من الدنيا أنالوكم، وخسيس عيش طمعتم فيه، من غير حدث كان منّا، ولا رأي تفيّل لنا.

فهلاّ - لكم الويلات! - إذ كرهتمونا وتركتمونا، [تجهزتموها] والسيف مشيم، والجأش طامن، والرأي لما يستحصف، ولكن أسرعتم إليها كطيرة الدُّبا، وتداعيتم إليها كتداعي الفراش. فسحقاً لكم يا عبيد الأُمّة، وشذّاذ الأحزاب، ونبذة الكتاب، ونفثة الشيطان، وعصبة الآثام، ومُحرّفي الكتاب، ومُطفئي السنن، وقتلة أولاد الأنبياء، ومُبيدي عترة الأوصياء، ومُلحقي العهار بالنسب، ومُؤذي المؤمنين، وصُراخ أئمّة المستهزئين الذين جعلوا القرآن عضين، ولبئس ما قدّمت لهم أنفسهم وفي العذاب هم خالدون!

وأنتم ابن حرب وأشياعه تعضدون، وعنّا تخاذلون! أجل والله، الخذل فيكم معروف؛ وشجت عليه أُصولكم، وتأزّرت عليه فروعكم، وثبتت عليه قلوبكم، وغشيت صدوركم، فكنتم أخبث ثمرة شجيّ للناظر، وأكلة للغاصب، ألا لعنة الله على الناكثين الذين ينقضون الأيمان بعد توكيدها، وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً، فأنتم والله هم.

ألا وإنّ الدّعيّ ابن الدّعيّ قد ركز بين اثنتين؛ بين السلّة والذلّة، وهيهات منّا الذلّة، يأبى الله لنا ذلك ورسوله والمؤمنون، وجدود طابت وحجور طهرت، وأُنوف حمية ونفوس أبيّة، لا تؤثر طاعة اللئام على مصارع الكرام...

ألا وإنّي

قد أعذرت وأنذرت، ألا وإنّي زاحف بهذه الأُسرة مع قلّة العدد، وكثرة العدوّ، وخذلان الناصر.

ثمّ قال:

فـــإن نهـــزِمِ فهزّامـــونَ قـــدماً وإن نُغلـــب فغـــير مُغلّبينـــا

ومـــا أن طبّنـــا جـــبنٌ ولكـــن منـــايانا ودولـــة آخرينـــا

إذا مـــا المـــوتُ رفّـــعَ عـــن أُناسٍ كلاكلَـــــه أناخَ بآخرينـــا

فـــأفنى ذلكـــمْ ســـرواتُ قـــومي كمـــا أفـــنى القـــرونَ الغابرينـــا

فلـــو خلـــدَ الملـــوكُ إذاً خلـــدنا ولـــو بقـــي الكـــرامُ إذاً بقينـــا

فقـــل للشـــامتينَ بنـــا أفيقـــوا ســـيلقى الشـــامتونَ كمـــا لقينـــا »[1]

في هذه الخطبة حدّثهم الحسين عليه السلام عن أنفسهم، وعن واقعهم، وعن زيف حياتهم. حدّثهم كيف أنّهم استصرخوه على جلاّديهم ثمّ انكفؤوا مع هؤلاء الجلاّدين عليه. هؤلاء الجلاّدون الذين لم يسيروا فيهم بالعدل وإنّما حملوهم على ارتكاب الحرام في مقابل عيش خسيس. خسيس في نفسه، قليل دون الكفاية، خسيس لأنّه يعمل على مدّ الأجل بحياة حقيرة ذليلة، خسيس باعتباره أجراً لعمل خسيس.

وحدّثهم عن مواقفهم المتكرّرة من الحركات الإصلاحية، إنّهم دائماً يُظهرون العزم على الثورة والرغبة فيها، يُظهرون العزم على تطوير واقعهم السيِّئ حتّى إذا جدّ الجدّ انقلبوا جلاّدين للثورة بدل أن يكونوا وقوداً لها.

---

(١) نجد هذه الأبيات تارة مجتمعة في مصدر واحد، وتارة متفرقة. انظر: الاحتجاج - الشيخ الطبرسي ٢/٢٥، شرح نهج البلاغة - لابن أبي الحديد ٣/٣٤٤، النزاع والتخاصم - المقريزي/١٣٩، اللهوف في قتلى الطفوف - السيد ابن طاووس/٥٩، تأريخ الطبري ٢/٢٩٢، البداية والنهاية ٥/٨٣، السيرة النبوية - لابن كثير ٤/١٣٧.

حدّثهم عن أعدائه باعتبارهم أعدائهم أيضاً، ولكنّهم يُزيّفون حياتهم بأيديهم، يُحاربون محرّريهم، مَنْ يعلمون أنّهم المحرّرون. مع مَنْ؟ مع أعدائهم مُذلّيهم وظالميهم.

هذه الخطبة، بهذا الأُسلوب الثائر، وبما فيها من تقريع، وبما فيها من فضح لهم، كانت ملائمة تمام الملاءمة للجو النفسي السائد آنذاك على الجيش الأموي. إنّ محاربي ذلك الجيش كانوا على علم بمَنْ يُحاربون، فأراد أن يُشعرهم بفداحة الإثم الذي يُقارفونه، وعظم الأمر الذي يُحاولونه، وأراد أن يُسمع المجتمع الإسلامي - هذا المجتمع الخاضع - صوته المدوّي. وبهذا اللون من البيان جعل الحسين عليه السلام من كلّ مسلم بركاناً مدمّراً على أهبة الانفجار.

بواعث الثورة لدى الرأي العام

ولم يكن المغزى الاجتماعي للثورة مُدركاً من قبل الحسين عليه السلام وحده، فقد كان المسلمون يحسّون بضرورة العمل على تطوير واقعهم السيّئ إلى واقع أحسن. أدرك هذا أُولئك الذين كتبوا إلى الحسين عليه السلام يطلبون منه القدوم إلى العراق، وأدرك هذا أُولئك الذين صبّروا أنفسهم على الموت معه.

والذين كتبوا إليه من العراق لم يكونوا أفراداً معدودين، وإنّما كانوا كثيرين جدّاً؛ ففي المؤرّخين مَنْ يقول: أنّ كُتب أهل العراق إلى الحسين عليه السلام زادت على مئة وخمسين كتاباً[1].

وقال مؤرّخون آخرون: إنّه قد اجتمع عند الحسين عليه السلام في نُوب

(١) انظر: الكامل في التاريخ ٣/٢٦٦ - ٢٦٧. اختلف المؤرّخون وأصحاب السير والمقاتل في =

مُتفرّقة اثنا عشر ألف كتاب من أهل العراق.

ونستطيع أن نكوّن فكرة صحيحة عن ضخامة عدد الكتب التي دعت الحسين عليه السلام إلى القيام بالثورة إذا قرأنا هذا الخبر الذي رواه أغلب المؤرّخين، وهو: أنّ الحسين عليه السلام لما لقي الحرّ بن يزيد كان من جملة ما قاله للحرّ ومَنْ معه: « أمّا بعد، أيّها الناس، فإنّكم إن تتقوا الله وتعرفوا الحقّ لأهله يكن أرضى لله، ونحن أهل البيت أولى بولاية هذا الأمر عليكم من هؤلاء المدّعين ما ليس لهم، والسائرين فيكم بالجور والعدوان. وإن أنتم كرهتمونا وجهلتم حقّنا، وكان رأيكم غير ما أتتني به كتبكم، وقدمت به عليّ رسلكم، انصرفت عنكم ».

فقال له الحرّ بن يزيد: إنّا والله ما ندري ما هذه الكتب التي تذكر.

فقال الحسين عليه السلام : « يا عقبة بن سمعان، أخرج الخرجين اللذين فيهما

= عدد الكتب التي وردت إلى الحسين عليه السلام من أهل الكوفة، وكذلك اختلفوا في بعض ألفاظها، وبيد مَنْ أرسلوها. ولسنا بصدد بيان كلّ ما جاء في بطون الكتب، بل نشير إلى نموذج واحد منها على سبيل المثال، ونحيل القارئ إلى مصادرها الأصلية؛ فقد ذكر ابن أعثم في الفتوح ٣٢/٣ نحو خمسين ومئة، كلّ كتاب من رجلين وثلاثة وأربعة، ومثله في مقتل الحسين - للخوارزمي ١٩٥/١، الإرشاد ٣٨/٢، وفي اللهوف/١٥ « فورد عليه في يوم واحد ستمئة كتاب، وتواترت الكتب حتّى اجتمع عنده في نوّب مُتفرّقة اثنا عشر ألف كتاب ».

انظر: مقتل الحسين - لأبي مخنف/١٦، بلفظ: فحملوا معهم نحواً من ثلاثة وخمسين صحيفة... ومثله في تأريخ الطبري ٢٦٢/٤، الكامل في التاريخ - ابن الأثير ١٠/٤ و٥٣٢/٢، سمط النجوم العوالي ٥٨/٣، الأخبار الطوال/٢٢٩، تأريخ اليعقوبي ٢٤٢/٢.

كتبهم إليّ ». فأخرج خرجين مملوءين صحفاً فنشرها بين أيديهم[1].

من هنا نستطيع أن نكوّن فكرة عن ضخامة عدد الكتب التي أُرسلت إلى الحسين عليه السلام تدعوه إلى الثورة وتعده بالنصر. ونلاحظ من ناحية أُخرى أنّ هذه الكتب ليست من أفراد؛ فقد كانت كتباً من الرجل والاثنين والأربعة والعشرة[2]، فلسنا أمام حركة فردية، وإنّما نحن أمام حركة جماعية قام بها المجتمع العراقي، أو الكثرة الساحقة من هذا المجتمع.

وهذا نموذج للكتب التي وردت إليه: « سلام عليكم. أمّا بعد، فالحمد لله الذي قصم عدوّك وعدوّ أبيك من قبل، الجبّار العنيد، الغشوم الظلوم، الذي انتزى على هذه الأمّة فابتزّها أمرها واغتصبها فيئها، وتأمّر عليها بغير رضاً منها، ثمّ قتل خيارها واستبقى شرارها، وجعل مال الله دولة بين جبابرتها وعتاتها، فبعداً له

---

(١) انظر: تأريخ الطبري ٣٠٣/٤، والكامل في التاريخ ٢٨٠/٣، أعلام الورى/٢٢٩، الأخبار الطوال/٢٤٩.

(٢) انظر: تأريخ الطبري ٢٦٢/٤، وجاء في أعيان الشيعة: « وأنفذوا قيس بن مسهر الصيداوي، وعبد الرحمن بن عبد الله بن شداد الأرحبي، وعمارة بن عبد الله السلولي إلى الحسين عليه السلام ومعهم نحو مئة وخمسين صحيفة من الرجل والاثنين والأربعة والعشرة، وهو مع ذلك يتأبّى ولا يجيبهم، فورد عليه في يوم واحد ستمئة كتاب، وتواترت الكتب حتّى اجتمع عنده في نوّب متفرّقة اثنا عشر ألف كتاب ».

انظر: مقتل الحسين - لأبي مخنف /١٦ بلفظ: فحملوا معهم نحواً من ثلاثة وخمسين صحيفة، ومثله في تأريخ الطبري ٢٦٢/٤، الكامل في التأريخ - ابن الأثير ١٠/٤ و٥٣٣/٢، سمط النجوم العوالي ٥٨/٣، الأخبار الطوال/٢٢٩، تأريخ اليعقوبي ٢٤٢/٢.

كما بعدت ثمود! وإنّه ليس علينا إمام غيرك فأقبل لعلّ الله يجمعنا بك على الحقّ. والنعمان بن بشير في قصر الإمارة، ولسنا نجتمع معه في جمعة، ولا نخرج معه إلى عيد، ولو قد بلغنا أنّك أقبلت أخرجناه حتّى يلحق بالشام إن شاء الله تعالى، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته يابن رسول الله».[1]

هذا نموذج للكتب التي أرسلت إلى الحسين عليه السلام تدعوه إلى الثورة، ويبرز العامل الاجتماعي فيه بوضوح عظيم، فسياسة الإرهاب والتجويع هي التي حملت هؤلاء الناس على الثورة، وكان الحسين عليه السلام هو الشخصيّة الوحيدة التي يمكن أن تتزعّم ثورة كهذه؛ إذ لم يكن في الزعماء المسلمين زعيم غيره يتجاوب مع آلام الشعب وآماله ومطامحه.

بواعث الثورة لدى الثائرين

فإذا نحن تجاوزنا هؤلاء الداعين إلى الثورة ثمّ المتخاذلين عنها إلى أُولئك الذين ثبتوا ثائرين مع الحسين عليه السلام إلى اللحظة الأخيرة. اللحظة التي توّجوا فيها عملهم الثوري بسقوطهم صرعى رأيناهم يحملون نفس الفكرة، ويبرّرون ثورتهم ويدعون الجيش الأُموي إلى تأييدهم بنفس تلك المبرّرات؛ الظلم الاجتماعي، وسياسة الإرهاب، والإذلال التي يمارسها الحاكمون.

هذا زهير بن القين خرج على فرس له في السلاح، فخطب الجيش الأموي

(١) انظر: تأريخ الطبري ٤/٢٦١ - ٢٦٢، الكامل في التاريخ ٣/٢٦٦.

قائلاً: « يا أهل الكوفة، نذارِ لكم من عذاب الله نذارِ، إنّ حقّاً على المسلم نصيحة أخيه المسلم، ونحن حتّى الآن إخوة على دين واحد، وملّة واحدة ما لم يقع بيننا وبينكم السيف، وأنتم للنصيحة منّا أهل، فإذا وقع السيف انقطعت العصمة، وكنّا نحن أُمّة وأنتم أُمّة.

إنّ الله قد ابتلانا وإيّاكم بذريّة نبيّه محمّد ﷺ ؛ لينظر ما نحن وأنتم عاملون، إنّا ندعوكم إلى نصرهم وخذلان الطاغية ابن الطاغية عبيد الله بن زياد؛ فإنّكم لا تدركون منهما إلاّ بسوء عمر سلطانهما كلّه؛ ليُسملان أعينكم، ويقطعان أيديكم وأرجلكم، ويُمثّلان بكم، ويرفعانكم على جذوع النخل، ويقتلان أماثلكم وقرّاءكم، أمثال حجر بن عدي وأصحابه، وهاني بن عروة وأشباهه »[1].

فسبّوه وأثنوا على ابن زياد، وقالوا: والله لا نبرح حتّى نقتل صاحبك ومَنْ معه، أو نبعث به وبأصحابه إلى الأمير عبيد الله سلماً.

---

(١) انظر: تأريخ الطبري ٤/٣٢٤، مقتل الحسين - لأبي مخنف/١١٩.

الفصل الثالث: آثار الثورة في الحياة الإسلاميّة

«... إنّ فاجعة كربلاء قد دخلت في الضمير الإسلامي آنذاك، وانفعل بها المجتمع الإسلامي بصفة عامّة انفعالاً عميقاً. ولقد كان هذا كفيلاً بأن يبثّ في النفس ما يدفعها إلى الدفاع عن كرامتها، وأن يبعث في الروح النضالية الهامدة جذوة جديدة، وأن يرسل في الضمير الشلو هزّة تحييه...».

تمهيد

لقد درسنا فيما تقدّم بعض جوانب ثورة الحسين عليه السلام على الحكم الأُموي، فدرسنا ظروفها الاجتماعيّة والنفسية، ودرسنا أسبابها وغاياتها، وفي خلال حديثنا هذا صحبنا الحسين عليه السلام وآله وصحبه في كثير من مراحل عملهم الثوري، ولم نتحدّث عن عنصر المأساة حديثاً واسعاً؛ لأنّ ذلك ليس من همّنا كما ذكرنا بين يدي هذه الفصول، واكتفينا من ذلك بالإشارة التي يقتضيها سياق البحث والاستنتاج.

ونريد الآن أن نتحدّث عن نتائج هذه الثورة وعن عطائها الإنساني، هل غيّرت هذه الثورة شيئاً من مواقع المجتمع الذي انفجرت فيه؟ وهل حققت نصراً لصانعيها؟ وهل حطّمت أعداءها؟

هذه أسئلة تثور على شفتي كلّ مَنْ يقرأ أو يسمع عن ثورة من الثورات، ويتوقّف الحكم على الثورة بالنجاح أو الفشل على ما تقدّمه الوثائق من أجوبة على هذا الأسئلة، فهل كانت ثورة الحسين عليه السلام ناجحة، أو أنّها كانت ثورة فاشلة ككثير من الثورات التي تشتعل ثمّ تنطفئ، ولا تخلف وراءها إلاّ ذكريات حزينة تراود بين الحين والحين أحبّاء صرعاها؟

قد يُقال: إنّها ثورة فاشلة تماماً؛ فهي لم تحقق نصراً سياسياً آنيّاً يُطوّر الواقع الإسلامي إلى حال أحسن من الحال التي كان عليها قبل هذه الثورة.

لقد بقي

المسلمون بعد الثورة كما كانوا قبلها قطيعاً يُساق بالقوّة إلى حيث يُراد له لا إلى حيث يُريد، ويُساس بالتجويع والإرهاب.

ولقد ازداد أعداء هذه الثورة قوّة على قوّتهم فلم تنل منهم شيئاً، وأمّا صانعوها فقد أكلتهم نارها، وشملت أعقابهم مئات من السنين؛ فحملت إليهم الموت والذلّ، والتشريد والحرمان، فهي فاشلة على الصعيد الاجتماعي، وهي فاشلة على الصعيد الفردي.

ولكنّ الحقّ غير ذلك في عين الباحث البصير، فإنّ علينا لكي نفهم ثورة الحسين عليه السلام أن نبحث عن أهدافها ونتائجها في غير النصر الآني الحاسم، وفي غير الاستيلاء على مقاليد الحكم والسلطان، فإنّ ما بين أيدينا من النصوص دالّ على أنّ الحسين عليه السلام كان عالماً بالمصير الذي ينتظره وينتظر مَنْ معه.

قال لابن الزبير حين طلب منه إعلان الثورة في مكة: « وأيم الله، لو كنت في جُحر هامة من هذه الهوام لاستخرجوني حتّى يقضوا بي حاجتهم. والله ليعتدنّ عليّ كما اعتدت اليهود في السبت »[(١)].

وكان يقول: « والله، لا يدعوني حتّى يستخرجوا هذه العلقة من جوفي، فإذا فعلوا سلّط الله عليهم مَنْ يذلّهم حتّى يكونوا أذلّ من فرام المرأة »[(٢)].

وأجمع نصحاؤه - حين شاع نبأ عزمه على المسير إلى العراق - على أنّه

---

(١) انظر: تأريخ الطبري ٢٨٩/٤ و٢٩٦، والكامل في التأريخ ٢٧٥/٣ - ٢٧٦، والأخبار الطوال/٢٢٣.

(٢) انظر المصادر نفسها.

فاشل حتماً في الوصول إلى نتيجة سريعة من ثورته، فقد كانت قوى المال والسلاح مُتّحدة ضدّه، فكيف ينتصر؟ وفزعوا إليه ينصحونه بالمكوث في مكة، أو الخروج عنها إلى غير العراق من بلاد الله؛ من هؤلاء عمر بن عبد الرحمن المخزومي، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر، ومُحَمَّد بن الحنفيّة، وعبد الله بن جعفر.

ولكنّه أبى عليهم ما أشاروا به، فقال لعبد الرحمن بن الحرث: « جزاك الله خيراً يابن عمّ، فقد والله علمت أنّك مشيت بنصح، وتكلّمت بعقل، ومهما يقضِ الله من أمر يكن، أخذتُ برأيك أو تركته، فأنت عندي أحمد مُشير، وأنصح ناصح »[1].

وقال لعبد الله بن عباس: « يابن عمّ، إنّي والله لأعلم أنّك ناصح مُشفق، ولكنّي قد أزمعت وأجمعت على المسير »[2].

وقال في موقف آخر: « لأن أُقتل بمكان كذا أو كذا أحبّ إليّ من أن تُستحلّ حرمتها بي - يعني الحرم - »[3].

وقال لعبد الله بن عمر وقد نصحه بالصلح والمهادنة مع يزيد:

---

(١) انظر: تأريخ الطبري ٤/٢٧٨، والكامل في التأريخ ٣/٢٧٥، والأخبار الطوال/٢٢٣.

(٢) انظر: تأريخ الطبري ٤/٢٧٨، والكامل في التأريخ ٣/٢٧٥ - ٢٧٦.

(٣) انظر: أخبار مكة - مُحَمَّد بن عبد الله الأزرقي ٢/١٣٢، طبعة دار الثقافة في مكة المكرمة.

« يا أبا عبد الرحمن، أما علمت أنّ من هوان الدنيا على الله أنّ رأس يحيى بن زكريّا أُهدي إلى بغي من بغايا بني إسرائيل؟ اتّق الله يا أبا عبد الرحمن ولا تدعَن نصرتي »[١].

وأجاب الفرزدق حين قال له: قلوب الناس معك وسيوفهم مع بني أُميّة: « صدقت، لله الأمر، والله يفعل ما يشاء، وكلّ يوم ربّنا في شأن. إن نزل القضاء بما نحبّ فنحمد الله على نعمائه، وهو المستعان على أداء الشكر، وإن حال القضاء دون الرجاء فلم يعتد مَنْ كان الحقّ نيّته، والتقوى سريرته »[٢].

وورد إليه كتاب عمر بن سعيد بن العاص عامل المدينة يُمنّيه في الأمان والصلة، والبرّ وحسن الجوار، وأرسله إليه مع أخيه يحيى بن سعيد وعبد الله بن جعفر، فجهدا أن يرجع فلم يفعل، ومضى وهو يقول: « قد غسلت يدي من الحياة، وعزمت على تنفيذ أمر الله ».

وهكذا ما نزل منزلاً إلاّ ولقي مَنْ ينصحه بعدم الخروج إلى العراق، ويذكر له من أنباء أهله ما يكشف عن خذلانهم له وانكفائهم عليه، حتّى أتاه خبر قتل مسلم بن عقيل وهانئ بن عروة وهو بالثعلبية، فأهاب به بعض أصحابه بالرجوع فأبى، فلمّا كان بزُبالة[٣] أتاه خبر قتل أخيه من الرضاعة

(١) انظر: الفتوح - لابن أعثم ٤٢/٥، مقتل الإمام الحسين عليه السلام ١٩٢/١، اللهوف/١٢.

(٢) انظر: تأريخ الطبري ٢٩٠/٤، والكامل في التأريخ ٢٧١/٣.

(٣) زُبالة (بضم الزاء المعجمة): منزل بطريق مكة من الكوفة، يبعد عن الشقوق أحد وعشرون ميلاً، فيها حصن وجامع لبني أسد، سمّي الموضع باسم زُبالة بنت مسعر، امرأة من العمالقة، ويوم زبالة من أيام =

عبد الله بن يقطر[1]، فخرج حينذاك إلى مَنْ صحبه من الناس وقال: « أمّا بعد، فإنّه قد أتاني خبر فظيع قتل مسلم بن عقيل، وهانئ بن عروة، وعبد الله بن يقطر، وقد خذلنا شيعتنا، فمَنْ أحبّ منكم الانصراف فلينصرف في غير حرج، ليس عليه منّا ذمام ».

فتفرّق عنه الناس تفرّقاً، فأخذوا يميناً وشمالاً حتّى بقي في أصحابه الذي جاؤوا معه من المدينة، وإنّما فعل ذلك لأنّه ظنّ إنّما اتّبعه الأعراب لأنّهم ظنّوا أنّه يأتي بلداً قد استقامت طاعة أهله، فكره أن يسيروا معه إلاّ وهم يعلمون علامَ يقدمون. وقد علم أنّهم إذا بيّن لهم لم يصحبه إلاّ مَنْ يريد مواساته والموت معه[2].

وأجاب مَنْ نصحه بالرجوع إلى مأمنه من منزله ذاك بعد أن تبيّن له الأمر، فقال له: « يا عبد الله، إنّه ليس يخفى عليّ أنّ الرأي ما رأيت، ولكنّ الله لا يُغلب على أمره »[3].

* * *

= العرب، ونسب إلى المكان جماعة من المحدّثين. انظر: معجم البلدان ١٢٩/٣ وذكر هذا الموضع الطبري في تأريخه ٢٢٦/٦ و٣٠٠/٤ طبعة أخرى، ومقتل الحسين - للخوارزمي ٢٢٩/١، ومقتل الحسين - لأبي مخنف/٧٨، اللهوف/٣٢، عوالم العلوم ٢٢٤/١٧.

(١) عبد الله بن يقطر: رضيع الحسين عليه السلام، كان أحد رسله إلى الكوفة، قبض عليه عبيد الله بن زياد ورمى به من فوق القصر فتكسّر، وقام إليه عمرو الأزدي فذبحه، ويُقال: بل فعل ذلك عبد الملك بن عمير اللخمي.

انظر: الإرشاد ٧٠/٢، وهو الذي بعثه الإمام الحسين عليه السلام إلى أهل الكوفة، علماً بأنّ الشيخ المفيد ذكره بلفظ: بل بعث أخاه من الرضاعة. الطبري في تأريخه ٣٩٨/٥، وقد ضبطه بالباء، وكذلك ابن الأثير في الكامل ٤٢/٤، القاموس المحيط/٣٧٦ مثله، وأبو داود في رجاله/١٢٥، ٩٢٠ أيضاً.

(٢) انظر: تاريخ الطبري ٣٠٠/٤، والكامل في التأريخ ٣٧٨/٣.

(٣) انظر المصدران نفساهما.

هذه النُذر كلّها تشير إلى أنّه كان عالماً بالمصير الذي ينتظره. وإذاً فليس لنا أن نبحث عن أهداف ثورة الحسين عليه السلام ونتائجها في الاستيلاء على مقاليد الحكم والسلطان؛ لأنّه لم يستهدف من ثورته نصراً آنيّاً، ولأنّه كان مُدركاً لاستحالة الحصول على نصر آني.

وقد يبدو لنا هذا غريباً جدّاً، فكيف يسير إنسان إلى الموت مع طائفة من أخلص أصحابه طائعاً مختاراً، وكيف يُحارب في سبيل قضية يعلم أنّها خاسرة، وكيف يمكّن لعدوّه من نفسه هذا التمكين؟ هذه علامات استفهام كثيرة نبحث عن أجوبتها.

والذي اعتقده هو أنّ وضع المجتمع الإسلامي إذ ذاك كان يتطلّب القيام بعمل انتحاري فاجع يلهب الروح النضالية في هذا المجتمع، ويتضمّن أسمى مراتب التضحية ونكران الذات في سبيل المبدأ؛ لكي يكون مناراً لجميع الثائرين حين تلوح لهم وعورة الطريق، وتضمحلّ عندهم احتمالات الفوز، وتُرجّح عندهم إمارات الفشل والخذلان.

لقد كان قادة المجتمع وعامّة أفراده إذ ذاك يقعدون عن أي عمل إيجابي لتطوير واقعهم السيّئ بمجرد أن يلوح لهم ما قد يُعانون في سبيل ذلك من عذاب، وما قد يضطّرون إلى بذله من تضحيات. وكانوا يقعدون عن القيام بأي عمل إيجابي بمجرد أن تُحقّق لهم السلطة الحاكمة بعض المنافع القريبة.

ولم يكن هذا خُلق السادة وحدهم، بل كان خُلق عامّة الناس أيضاً؛ لذا رأينا تخاذل مجتمع بأسره عن نصر قضيته حين أوقع ابن زياد بمسلم بن عقيل، وكيف أخذت المرأة تخذّل ابنها وزوجها وأخاها، وكيف أخذ الرجل يخذّل ابنه وأخاه وأباه.

لقد كان أُولئك الذين قالوا للحسين عليه السلام: « قلوبهم معك وسيوفهم عليك »[1] صادقين في تصوير ذلك المجتمع؛ فإنّ قلوب الناس كانت معه لأنّهم يحبّون أن يصيروا إلى حال أحسن من حالهم، ولكنّهم حين علموا أنّ ذلك موقوف على بذل تضحيات قد تصل إلى بذل الحياة، انكمشوا وسلّموا سيوفهم في خدمة الذين يدفعون لهم أجر قتالهم لهذا الذي جاء بدعوة منهم ليحرّرهم.

فحين استيقن ابن زياد أنّ الحسين عليه السلام ماضٍ فيما اعتزمه جمع الناس في مسجد الكوفة وخطبهم، ومدح يزيد وأباه وذكر حسن سيرتهما وجميل أثرهما، ووعد الناس بتوفير العطاء لهم وزادهم في أُعطياتهم مئة مئة، وأمرهم بالاستعداد والخروج لحرب الحسين عليه السلام[2]. هذا هو موقف الشعب من الحركات العامّة التي يتوقّف نجاحها على التضحيات، وأمّا موقف الزعماء فقد عرفته.

وهذه صورة أُخرى منها قدّمها لنا عمر بن سعد أمير الجيش الأُموي؛ فلقد دار أمره بين أن يُحارب الحسين عليه السلام وبين أن يفقد إمرة الرّي، فاختار الأولى على الثانية[3].

ولقد حاوره الحسين عليه السلام في كربلاء، فقال له: « ويلك يابن سعد! أما تتّقي الله الذي إليه معادك؟ أتقاتلني وأنا ابن عمّك؟ ذر هؤلاء القوم وكن معي؛ فإنّه أقرب لك إلى الله ».

فقال ابن سعد: أخاف أن تُهدم داري.

---

(١) انظر: تأريخ الطبري ٢٩٠/٤ و٢١٨/٦ و٢٩٦/٣ طبعة أُخرى، الكامل في التاريخ - لابن الأثير ١٦/٤ و٥٤٧/٢، الفتوح - لابن أعثم ٧٩/٣، مقتل الحسين - للخوارزمي ٢٢٣/١.

(٢) انظر: تأريخ الطبري ٣٤١/٤، الكامل في التاريخ - لابن الأثير ٥٥٤/٤، الفتوح - لابن أعثم ١٧٩/٣، مقتل الحسين - للخوارزمي ٣٢٣/١.

(٣) انظر: تأريخ الطبري ٣٠٩/٤.

فقال الحسين عليه السلام: « أنا أبنيها لك ».

فقال: أخاف أن تؤخذ ضيعتي.

فقال الحسين عليه السلام: « أنا أخلف عليك خيراً منها من مالي بالحجاز ».

فقال: لي عيال وأخاف عليهم.

وهنا اتّضح للحسين عليه السلام أنّه رجل ميّت القلب، ميّت الضمير؛ فإنسان يقيس مصير مجتمعه بهذا اللون من القياس ليس إنساناً سوي التكوين النفسي، فقال له الحسين عليه السلام: « ما لك! ذبحك الله على فراشك عاجلاً، ولا غفر لك يوم حشرك، فوالله إنّي لأرجو ألاّ تأكل من بُرّ العراق إلاّ يسيراً ».

فقال مستهزئاً: في الشعير كفاية[1].

هذا هو المجتمع الإسلامي في أيام الحسين عليه السلام. مجتمع مريض يُشترى ويُباع بقليل من المال وكثير من العذاب والإرهاب، وما كان من الممكن أن تُردّ إلى هذا المجتمع إنسانيته وكرامته، وما كان من الممكن أن يُنبّه إلى زيف وحقارة وجوده، وما كان من الممكن أن تُوقظ فيه روحه النضالية الهامدة إلاّ بعمل انتحاري فاجع يتضمّن أسمى آيات التضحية والكرامة والدفاع عن المبدأ والموت في سبيله، وهكذا كان.

إنّ الحسين عليه السلام لم يكن ذا مال ليُنافس الأمويّين وبيدهم خزائن الأموال، ولم يكن ليتجافى عن روح الإسلام وتعاليمه فيجلب الناس إليه بالعنف والإرهاب؛

---

(١) انظر: تأريخ الطبري ٣٤١/٤، الكامل في التاريخ - لابن الأثير ٢٨٣/٣ و٥٥٤/٤، الفتوح - لابن أعثم ١٠٣/٥، مقتل الحسين - للخوارزمي ٢٤٥/١، البداية والنهاية ١٨٩/٨.

ولذا فليس من المعقول أن يطلب نصراً سياسياً آنيّاً في مجتمع لا يُحارب إلاّ في سبيل المال وبالمال، أو بالقسر والإرهاب، ولكن كان في وسعه أن يقوم بعمله الذي قام به ليهزّ أعماق هذا المجتمع، وليُقدّم له مثلاً أعلى طُبع في ضمائر أفراده بدم ونار.

وإذا نحن تقصّينا أسماء مَنْ قُتل مع الحسين عليه السلام في كربلاء وجدنا أصحابه ينتمون إلى معظم القبائل العربيّة، فقلّ أن توجد قبيلة عربية لم يُقتل مع الحسين عليه السلام منها واحد أو اثنان.

ومن هنا يمكن القول بأنّ فاجعة كربلاء دخلت في الضمير الإسلامي آنذاك، وانفعل بها المجتمع الإسلامي بصفة عامّة انفعالاً عميقاً. ولقد كان هذا كفيلاً بأن يبعث في الروح النضالية الهامدة جذوة جديدة، وأن يبعث في الضمير الشّلو هزّة تُحييه، وأن يبعث في النفس ما يبعثها إلى الدّفاع عن كرامتها.

وهذه الملاحظات تجعل من المعيّن علينا ألاّ نبحث عن نتائج ثورة الحسين **عليه السلام** فيما تعوّدناه في سائر الثورات، وإنّما نلتمس نتائجها في الميادين التالية:

١ - تحطيم الإطار الديني المزيّف الذي كان الأُمويّون وأعوانهم يُحيطون به سلطانهم، وفضح الرّوح اللادنية الجاهليّة التي كانت تُوجّه الحكم الأُموي.

٢ - بثّ الشعور بالإثم في نفس كلّ فرد، وهذا الشعور الذي يتحوّل إلى نقد ذاتي من الشخص لنفسه يقوم على ضوئه موقفه من الحياة والمجتمع.

٣ - خلق مناقبية جديدة للإنسان العربي المسلم، وفتح عيني هذا الإنسان على عوالم مضيئة باهرة.

٤ - بعث الرّوح النضالية في الإنسان المسلم من أجل إرسال المجتمع على قواعد جديدة، ومن أجل ردّ اعتباره الإنساني إليه.

تحطيم الإطار الديني

قد رأينا في فصل سابق كيف استغل الأُمويّون الدين لإيهام رعاياهم أنّهم يحكمون بتفويض إلهي، وأنّهم خلفاء رسول الله حقّاً، هادفين من وراء ذلك إلى أن يجعلوا من الثورة عليهم عملاً محظوراً وإن ظلموا وجوّعوا وشرّدوا المؤمنين، وأن يجعلوا لأنفسهم باسم الدين الحقّ في قمع أيّ تمرّد تقوم به جماعة من الناس وإن كانت محقّة في طلباتها.

وقد رأينا أنّهم استعانوا على ذلك بطائفة كبيرة من الأحاديث المكذوبة على النبي ﷺ، وقد وضعها ونسبها إلى النبي أُولئك النفر من تجّار الدين الذين تقدّم ذكر بعضهم والذين كانوا يؤلّفون جهاز الدعاية عند معاوية بن أبي سفيان، واستعان معاوية بهؤلاء وغيرهم في عقد مجالس القصص والوعظ التي دأب القصّاصون والوعّاظ على أن يدسّوا فيها هذه الأحاديث، ويبشّروا فيها بهذه الأفكار فيؤيّدون بها الحكم الأُموي عن طريق الدين.

وقد جعل معاوية القصص عملاً رسميّاً تابعاً للدولة، فرتّب قصّاصاً يومية في المحافل والمساجد، وأنفق عليهم من مال الدولة. قال الليث بن سعد: « وأمّا قصص الخاصّة فهو الذي أوجده معاوية، ولّى

رجلاً على القصص فإذا سلّم من صلاة الصبح، جلس وذكر الله عزّ وجلّ وحمده ومجّده، وصلّى على النبي صلى الله عليه وآله، ودعا للخليفة ولأهل بيته وحشمه وجنوده، ودعا على أهل حربه وعلى المشركين كافة »[١].

وعن طريق هذه المؤسسات (الأحاديث النبوية، الشعر، الفرق الدينية، القصص) آمن الناس إيماناً غيبيّاً بالحكم الأُموي، وبحرمة الثورة عليه وإن خرج عن حدود الدين الذي هو المبرّر الوحيد لوجوده.

ولقد عملت هذه المؤسسات عملها السّام، وأعطت ثمارها الخبيثة في صورة تسليم تام، وخضوع أعمى للحكم الأُموي مهما اقترف من مظالم. وهذه بعض الشواهد على ذلك من ثورة الحسين عليه السلام نفسها؛ فهذا ابن زياد يقول للناس في خطبته التي خذّل فيها عن مسلم بن عقيل: « اعتصموا بطاعة الله وطاعة أئمّتكم »[٢].

وهذا مسلم بن عمرو الباهلي - وهو من أصحاب ابن زياد - طلب منه مسلم بن عقيل بعد أن قبض عليه أن يسقيه من جرّة بباب القصر، فقال له: « أتراها ما أبردها؟ والله لا تذوق منها قطرة حتّى تذوق الحميم في نار جهنّم ».

فقال له مسلم: مَنْ أنت؟

فقال: أنا مَنْ عرف الحقّ إذ تركته، ونصح الأُمّة والإمام إذ غششته، وسمع

---

(١) انظر: فجر الإسلام/١٥٩.

(٢) انظر: تأريخ الطبري ٤/٢٧٥.

وأطاع إذ عصيته[1].

وهذا عمرو بن الحجاج الزبيدي - من قادة الجيش الأُموي في كربلاء - صاح قائلاً حين رأى بعض أفراد جيشه ينسلّون إلى الحسين عليه السلام ويقاتلون دونه: « يا أهل الكوفة، الزموا طاعتكم وجماعتكم، ولا ترتابوا في قتل مَنْ مرق من الدين وخالف الإمام »[2].

هذه الشواهد وغيرها كثير تكشف عن أنّ المسؤولين الأُمويّين وأعوانهم كانوا يطالبون الناس بالقيام بفرض ديني حين طلبوا منهم أن يحاربوا الحسين عليه السلام . ولا بدّ أنّهم استندوا في طلبهم هذا إلى ما عهدوه من السند الديني للحكم الأُموي في نفوس المسلمين.

وقد كان حريّاً بهذه العقيدة - إذا عمّت جميع طبقات المجتمع، واستحكمت في أذهان الناس دون أن تُكافح، ودون أن يظهر في الناس مَنْ يفضح زيفها وبُعدها عن الدين - أن تقضي تماماً على كلّ محاولة مقبلة يُراد منها تطوير الواقع الإسلامي، وتقويض أركان الحكم الفاسد الذي يُمارسه الأُمويّون وأعوانهم.

وكلّما تقدّم الزمن بهذه العقيدة دون أن تجد مُناوئاً تزداد استحكاماً وتأصّلاً في النفوس، وذلك كفيل في النهاية بحمل المجتمع على مُناوئة كلّ حركة تحرّرية.

ويقتضينا الإنصاف للواقع أن نُنبه إلى أنّ دعايات الأُمويّين الدينية التي هدفوا منها إلى دعم حكمهم الفاسد فشلت في التأثير على الخوارج؛ فقد كان الخوارج يشكّلون القوّة الثورية الوحيدة في المجتمع الإسلامي، وكانوا وحدهم - تقريباً -

---

(١) انظر: تأريخ الطبري ٢٨١/٤ - ٢٨٢.

(٢) انظر: تاريخ الطبري ٣٣١/٤، الدولة العربيّة وسقوطها؛ فلقد ذكر شواهد من تغلغل هذه الفكرة في المجتمع السوري.

القائمين بجميع الحركات التحرريّة ضدّ الحكم الأُموي منذ استتباب الأمر لمعاوية حتّى ثورة الحسين عليه السلام ، إلاّ أنّ حركات الخوارج التمرّدية لم تكن هي تلك الثورة التي يُرجى منها بثّ قوى جديدة ومفاهيم جديدة في المجتمع الإسلامي، ولم تكن هي الثورة التي يُرجى منها تحطيم الإطار الديني للحكم الأُموي، ولم تكن هذه الحركات التمرّدية لتُؤثّر سوى هزّات خفيفة جدّاً في السطح الاجتماعي ولا تصل إلى القاع أبداً.

وكانت هذه الهزّات تحدث في نطاق ضيّق لا يتعدّى حدود المدينة أو القرية التي يحدث فيها التمرّد والاشتباك المسلح بينهم وبين الفرق العسكرية الأُمويّة، ثمّ لا يلبث السطح الاجتماعي أن يعود إلى ما كان عليه دون أن يتغيّر من حياة الناس ومفاهيمهم - حتّى في مركز الحركة - أي شيء. والسبب في ذلك هو أنّ المجتمع الإسلامي لم يكن يتجاوب معهم، بل كان يُحاربهم ويقف ضدّهم.

ويمكن أن نقول بوثوق: إنّ المجتمع الإسلامي لم يُحارب مع حكّامه الأُمويّين عن رغبة واندفاع إلاّ ضدّ الخوارج. وطبيعي أنّه حين لا يتجاوب المجتمع نفسيّاً وعقائديّاً مع القائمين بالثورة، لا يمكن أن تنجح تلك الثورة مطلقاً على الصعيد الاجتماعي والفكري، فلا يمكن أن تُحدث تغييراً في التركيب الاجتماعي؛ لأنّ المجتمع يخذلها ويُناوئها، ولا يمكن أن تُحدث تغييراً في المفاهيم الثقافية العقائديّة؛ لأنّ المجتمع يرفض تعاليمها ونزعتها العقائديّة.

يُضاف إلى هذا أنّ الخوارج كانوا قُساة جدّاً، وعلى جانب كبير من الرعونة والرغبة في سفك الدم؛ فلم يكونوا يعفون عن قتل أيّ إنسان يُصادفونه دون أن يلقوا بالاً إلى كونه مُحارباً أو مُسالماً، رجلاً أو امرأة أو طفلاً.

وإنّ تشكيلات الخوارج كانت تمتصّ كثيراً من المجرمين ونهّازي الفرص والطامعين في النّهب[1].

كلّ هذا جعل المجتمع الإسلامي يقف ضدّهم؛ ولذلك فلم تكن ثوراتهم المتكررة لتُحطّم الإطار الديني الذي أحاط به الأُمويّون سلطانهم.

لقد كان أضمن السبل لتحطيم هذا الإطار الديني هو أن يثور عليه رجل ذو مركز ديني مسلّم به عند الأُمّة المسلمة بأسرها؛ فثورة مثل هذا الرجل كفيلة بأن تفضح الزخرف الديني الذي يتظاهر به الحكّام الأُمويّون، وأن تكشف هذا الحكم على حقيقته وجاهليّته وبُعده الكبير عن مفاهيم الإسلام.

ولم يكن هذا الرجل إلاّ الحسين عليه السلام ؛ فقد كان له في قلوب المسلمين جميعاً رصيد من الحبّ والإجلال عظيم، وقد رأيت مصداق ذلك عند الحديث عن إقامته في مكة، ثمّ عند الحديث عن خروجه منها إلى العراق. كان هو الرجل الوحيد الذي يستطيع أن يفضح الحكّام الأُمويّين ويكشف حقائقهم.

وقد وضع موقف الأُمويّين من ثورة الحسين عليه السلام خطّاً فاصلاً بين الدين الإسلامي والحكم الأُموي، وأظهر هذا الحكم بمظهره الحقيقي وكشف زيفه؛ فالأُمويّون الذين لم يرضوا من الحسين عليه السلام إلاّ بالقتل، قتله وقتل آله آل علي وآل عقيل وأبنائهم، وقتل طائفة من صفوة أصحابهم تُقىً وديناً وحرصاً على مصلحة المسلمين، ثمّ منعهم الماء عنهم حتّى قتلوهم عطشاً، وفيهم الطفل الرضيع والمرأة المرضع، ثمّ ما فعلوه بعد ذلك من رضّ أجسادهم بحوافر الخيل، وسبي

(١) انظر: الدولة العربيّة/١٠٣، « وكان قسم منهم ليس خيراً من اللصوص العادين إلاّ بالاسم، بحيث يستحقّون أن يُعاملوا كاللصوص ». وبروكلمان - تأريخ الشعوب الإسلاميّة/٢١٦، الطبعة الخامسة - دار العلم للملايين - بيروت/١٩٦٨.

بنات النبوّة على الوجه المعروف، حاسرات بلا غطاء ولا وطاء، ونقل رؤوس القتلى مع السبايا من كربلاء إلى الكوفة إلى الشام، كلّ ذلك جرّد الأُمويّين من كلّ صبغة دينية وإنسانيّة، بل جعلهم ضدّ الدين والإنسانيّة.

لقد كانت الرؤوس والسبايا، وأحاديث الجنود العائدين دلائل حيّة بليغة الأداء، تعمل على تقويض كلّ ركيزة دينية للحكم الأُموي في نفوس المسلمين.

* * *

ولقد زاد الحسين عليه السلام حراجة مركزهم حين لم يصرّ على القتال، لقد طلب من الحرّ بن يزيد - وهو أوّل قائد أُموي واجه الحسين عليه السلام بألف مُحارب - أن يتركه ليرجع من حيث أتى، فلم يُجبه الحرّ غلى ذلك، وكانت الأوامر تقضي عليه ألاّ يُفارق الحسين عليه السلام حتّى يُقدمه الكوفة إلى ابن زياد.

ومن نافلة القول أن نذكر أنّ الحسين عليه السلام رفض ذلك[1]، حتّى إذا قدم عمر بن سعد قائد الجيش الأُموي فاوضه الحسين عليه السلام طويلاً، وأقنعه بأن يُمسك الطرفان عن القتال ويرجع الحسين من حيث أتى، أو يذهب إلى حيث يريد من بلاد الله.

وكتب عمر بن سعد إلى عبيد الله بن زياد فأبى ابن زياد ذلك، وكتب إليه: « أمّا بعد، فإنّي لم أبعثك إلى الحسين لتكفّ عنه، ولا تطاوله ولا لتُمنيه السلامة والبقاء، ولا لتقعد له عندي شافعاً. انظر: فإن نزل حسين وأصحابه على الحكم واستسلموا فابعث بهم سلماً، وإن أبوا فازحف إليهم حتّى

---

(١) انظر: تأريخ الطبري ٣٠٣/٤ - ٣٠٤، والكامل في التأريخ ٢٨٠/٣.

تقتلهم وتُمّثل بهم؛ فإنّهم لذلك مستحقّون. فإن قُتل الحسين فأوطئ الخيل صدره وظهره؛ فإنّه عاقّ مُشاق، قاطع ظلوم، وليس في هذا أن يضرّ بعد الموت شيئاً، ولكن عليّ قول لو قد قتلته فعلت هذا به »[1].

لقد أعطاهم الحسين عليه السلام فرصة يتّقون بها ارتكاب قتله وقتل آله وصحبه، ولكنّهم أبوا إلاّ القتل، وأصروا عليه، فزادهم ذلك فضيحة في المسلمين.

وأغتنم هذه المناسبة هناك فأقول: يتحدّث بعض المؤرّخين عن أنّ الحسين عليه السلام قال لابن سعد: اذهب بي إلى يزيد أضع يدي في يده. والذي نقطع به هو أنّ الحسين عليه السلام لم يقل هذا، ولو أراد ذلك لما صار إلى حالته التي صار إليها. إنّ جميع الدلائل تشير إلى أنّ هذا الخبر إنّما هو من وضع الأُمويّين وأعوانهم، أرادوا أن يُوهموا الناس أنّ الحسين عليه السلام خشع وخضع وحنى رأسه لسلطان يزيد؛ ليشوّهوا بذلك الموقف البطولي الذي وقفه هو وأصحابه في كربلاء.

وقد حرص الأُمويّون وأعوانهم على إخفاء كثير من ملامح ثورة الحسين عليه السلام ومُلابساتها، وأذاعوا كثيراً من الأخبار المكذوبة عنها؛ ليوقفوا عملها التدميري في ملكهم وسلطانهم، ولكنّهم لم يفلحوا.

والذي يدلّ على هذا الخبر ما رواه كثير من المؤرّخين عن عقبة بن سمعان أنّه قال: صحبت الحسين من المدينة إلى مكة، ومن مكة إلى العراق، ولم أفارقه حتّى قُتل، وسمعت جميع مُخاطباته الناس

---

(١) انظر: تأريخ الطبري ٣١٤/٤، والكامل في التأريخ ٢٨٤/٣.

إلى يوم مقتله، فوالله ما أعطاهم ما يتذاكر به الناس من أنّه يضع يده في يد يزيد، ولا أن يُسيّروه إلى ثغر من ثغور المسلمين، ولكنّه قال: « دعوني أرجع إلى المكان الذي أقبلت منه، أو دعوني أذهب في هذه الأرض العريضة حتّى ننظر إلى ما يصير إليه أمر الناس »، فلم يفعلوا[١]. ولقد جعلهم موقفهم هذا من الحسين عليه السلام بمثابة الثائرين على الإسلام نفسه.

وقد استغل الحسين عليه السلام هذه النقطة - إصرارهم على قتله، وامتناعهم عن الاستجابة لكلّ حلّ سلمي، ومركزه في المسلمين - استغلالاً رائعاً؛ فقد دأب في كلّ فرصة تُؤاتيه للكلام على تأكيد هذه الحقيقة للجيش الأموي. وهذا نموذج من كلامه معهم في هذا الشأن: « أيّها الناس، اسمعوا قولي ولا تعجلوني حتّى أعظكم بما يجب لكم عليّ، وحتّى أعتذر إليكم من مقدمي عليكم، فإن قبلتم عذري، وصدّقتم قولي، وأنصفتموني كنتم بذلك أسعد، ولم يكن لكم عليّ سبيل. وإن لم تقبلوا منّي العذر ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلاَ تُنْظِرُونِ﴾، ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾.

أمّا بعد، فانسبوني فانظروا مَنْ أنا، ثمّ ارجعوا إلى أنفسكم فعاتبوها، وانظروا هل يصلح لكم قتلي وانتهاك حرمتي؟ ألست ابن بنت نبيّكم صلى الله عليه وآله، وابن وصيّه وابن عمّه، وأوّل المؤمنين بالله، والمصدّق لرسوله بما جاء به من عند ربّه؟

أو ليس حمزة سيد الشهداء عمّ أبي؟ أو ليس جعفر الشهيد الطيار عمّي؟ أو

---

(١) انظر: تأريخ الطبري ٣١٣/٤، والكامل في التأريخ ٢٨٣/٣.

لم يبلغكم قولٌ مُستفيضٌ فيكم أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال لي ولأخي: هذان سيدا شباب أهل الجنّة[1]؟ فإن صدّقتموني بما أقول - وهو الحقّ - والله ما تعمّدت كذباً مُذ علمت أنّ الله يمقت عليه أهله، ويضرّ به مَنْ اختلقه. وإن كذّبتموني فإنّ فيكم مَنْ إن سألتموه عن ذلك أخبركم؛ سلوا جابر بن عبد الله الأنصاري، أو أبا سعيد الخدري، أو سهل بن سعد الساعدي، أو زيد بن أرقم، أو أنس بن مالك يُخبروكم أنّهم سمعوا هذه المقالة من رسول الله صلى الله عليه وآله لي ولأخي. أفما في هذا حاجز لكم عن سفك دمي؟ ».

فقال له شمر بن ذي الجوشن: هو يعبد الله على حرف إن كان يدري ما تقول.

فقال له حبيب بن مظاهر:

---

(١) انظر: كنز العمال ٢٢٠/٦ و٢٢١ و٢١٧ و١٠٧/٧ و١١١ و١٠٨ و٩٦/١٢ و٣٤٢٤٦/١٢ و٣٧٦٨٢/١٣، صحيح الترمذي ٣٠٦/٢ و٣٠٧، مسند أحمد ٣/٣ و٦٢ و٨٢، حلية الأولياء ٧١/٥ و١٣٩ و١٣٩/٤ و١٩٠، مجمع الزوائد ١٨٢/٩ - ١٨٤ و١٨٧، تأريخ بغداد ٢٣١/٩ و٢٣٢ و٩٠/١٠ و٢٣٠ و١٤٠/١ و١٨٥/٢ و٤/١٢ و٣٧٢/٦، الإصابة ١/ق٢٦٦/١ و٦/ق١٨٦/٤، مناقب أمير المؤمنين - مُحَمَّد بن سليمان الكوفي ٢٥٩/٣، الجامع الصغير - للسيوطي ١٩/١.

وانظر: ذخائر العقبى/١٣٥ و١٣٠ و١٢٩، كنوز الحقائق/١١٨ و٨١ و٣٦، خصائص النسائي/٣٤ و٣٦، سنن ابن ماجه ١١٨/٤٤/١، باب فضائل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله ، وأورده الحاكم في المستدرك ١٦٧/٣ و٣٨١، تأريخ مدينة دمشق ١٠٣/٧، أُسد الغابة ٥٧٤/٥، ابن حبّان في صحيحه/٢١٨، تهذيب التهذيب ٣/في ترجمة زياد بن جبير، سنن الترمذي ٣٨٥٦/٣٢١/٥ و٣٨٧٠/٣٢٦، الفضائل - لأحمد ١٣٨٤/٧٧٩/٢، الصواعق/١٨٧ و١٩١ ب١١ فصل ٢، الجامع الصغير ٣٨٢٠/٥٨٩/١ و٣٨٢١ و٣٨٢٢، منهاج السنّة ٢٠٩/٤، فرائد السمطين ٣٥/٢ و١٤٠ و١٣٤ و١٥٣ و٢٥٩، الخرائج والجرائح/٢٨٩، ينابيع المودّة/٣٦٩ و٣٧٢.

والله إنّي لأراك تعبد الله على سبعين حرفاً، وأنا أشهد أنّك صادق ما تدري ما يقول، قد طبع الله على قلبك.

ثمّ قال لهم الحسين عليه السلام: « فإن كنتم في شكّ من هذا القول، أفتشكّون في أنّي ابن بنت نبيّكم؟ فوالله ما بين المشرق والمغرب ابن بنت نبيٍّ غيري منكم ولا من غيركم، وأنا ابن بنت نبيّكم خاصّة. أخبروني، أتطلبوني بقتيلٍ منكم قتلته، أو مال لكم استهلكته، أو بقصاص من جراحة؟ ».

فأخذوا لا يكلّمونه، فنادى: « يا شبث بن ربعي، ويا حجّار بن أبجر، ويا قيس بن الأشعث، ويا يزيد بن الحارث، ألم تكتبوا إليّ أن قد أينعت الثمار، وأخضرّ الجناب، وطمت الجمام، وإنّما تقدم على جُند لك مُجند، فأقبل؟ ».

قالوا له: لم نفعل.

فقال: « سبحان الله! بلى والله لقد فعلتم ».

ثمّ قال: « أيّها الناس، إذ كرهتموني فدعوني أنصرف عنكم إلى مأمني من الأرض ».

فقال له قيس بن الأشعث: أوَ لا تنزل على حكم بني عمّك؛ فإنّهم لن يروك إلاّ ما تحبّ، ولن يصل إليك منهم مكروه؟

فقال له الحسين عليه السلام: « أنت أخو أخيك[1]، أتريد أن يطلبك بنو هاشم بأكثر من دم مسلم بن عقيل؟ لا والله، لا أُعطيهم بيدي إعطاء الذليل، ولا أقرّ إقرار العبيد.

عباد الله، إنّي عذت بربّي وربّكم أن ترجمون. أعوذ بربّي وربّكم من كلّ متكبّر لا يؤمن بيوم

---

(١) محمّد بن الأشعث - أخو قيس - هو الذي آمن مسلم بن عقيل ثم لم يفِ بأمانه. تأريخ الطبري ٤/٢٨٠ - ٢٨١.

الحساب »[1].

بهذا الكلام فضح الحسين عليه السلام الزُّخرف الديني في الحكم الأُموي؛ فليس إنساناً عادياً هذا الذي ثار على هذا الحكم، إنّه ركيزة من الركائز التي قام عليها الإسلام.. الدين الذي يُبرّر به هذا الحكم وجوده. ومن ناحية أُخرى أشعرهم أنّ الظلم يجب أن يُقابل بالثورة والاحتجاج.. بالعمل الانتحاري (الاستشهادي) حتّى ولو كان هذا الظلم صادراً من جهاز حكم يحكم باسم الدين؛ لأنّ الحكم بمُجرّد أن يظلم يتنكّر للدين.

إنّ بعض أدعياء البحث العلمي يرون أنّ الحسين عليه السلام وقف هذا الموقف ليستدرّ الرحمة، ثمّ يقولون: ما كان أغناه عن ذلك. ولكنّهم بعيدون جدّاً عن فهم هذا اللون من مواقف الأبطال العقائديين؛ لو أراد الحسين عليه السلام أن يستدرّ الرحمة وينجو بحياته لاكتفى بأدنى من هذا، لبايع يزيد، لذهب إلى عبيد الله بن زياد، لكتب إلى يزيد يستأمنه ويعطيه البيعة، لكلّم في ذلك عمر بن سعد سرّاً.

لو أراد الرحمة لفعل شيئاً من ذلك، ولكنّه توجّه بخطابه إلى الجنود... الجنود الذين يعلم أنّهم مأمورون، وأنّهم لا يملكون أن يفعلوا ما يُريدون، توجّه إليهم ليؤكّد في أذهانهم ومشاعرهم الحقيقة التي ستُرعبهم وستُرعب المجتمع الإسلامي كلّه بعد قليل.

الحقيقة الصارخة بأنّه ومَنْ معه منحدرون من هذه الأُصول العريقة في تاريخ الإسلام؛ مُحمَّد رسول الله صلى الله عليه وآله ، علي، فاطمة، جعفر، حمزة عليهم السلام . إنّه يُقرّر في أذهانهم أنّهم لا يطلبونه بقتيل قتله منهم، ولا بمال احتجبه عنهم، ولا بجراحة أصاب بها أحدهم، وإنّما يطلبونه لأنّه ثار على الحكم الأُموي الفاسد، هذا الحكم الذي

---

(١) انظر: تأريخ الطبري ٥/٤٢٥ - ٤٢٦ طبعة سنة ١٩٦٤ م، الكامل في التأريخ ٣/٢٨٧ - ٢٨٨.

يُصرّ على قتله باسم الدين وهو في مركزه الديني العظيم. على هذا النحو ينبغي أن يُفهم هذا النصّ وغيره من النصوص.

وانتهت فاجعة كربلاء بمصرع الحسين عليه السلام وآله وصحبه، ولكنّ نضال بقية آل البيت عليهم السلام في سبيل إشعار المسلمين بالزيف الديني الذي يقوم عليه الحكم الأموي، وفي سبيل بثّ الوعي في هذه الجماهير لم ينته، ولكنّ النضال مُنذ اليوم لن يأخذ شكل الثورة المسلحة؛ فقد صُرع في كربلاء جميع الثائرين، إنّه مُنذ اليوم نضال كلامي، ولقد واصلت ثورة الحسين عليه السلام في هذا الاتجاه أُخته زينب عقيلة آل أبي طالب.

وقد انكشف هذا الزيف الديني - الذي موّه الأُمويّون به حكمهم - سريعاً بعد مصرع الحسين عليه السلام وآله؛ فقد نشر الجنود العائدون تفاصيل الملحمة المروّعة في طول البلاد الإسلاميّة وعرضها، فكان لذلك فعل النار بالنسبة إلى السلطان الأُموي.

وقد روى المؤرّخون لما وصل رأس الحسين عليه السلام إلى يزيد حسُنت حال ابن زياد عنده، ووصله وسرّه ما فعل، ثمّ لم يلبث إلاّ يسيراً حتّى بلغه بغض الناس له ولعنهم وسبّهم، فندم على قتل الحسين[١].

لقد تحطّم منذ ذلك اليوم الإطار الديني الذي أحاط به الحكّام الظالمون حكمهم الفاسد، لم تعُد لهذا الحكم حرمة دينية عند الجماهير المسلمة. وقد عرفت فيما سبق أنّ الأُمويّين أنشؤوا جماعة فكرية تتّخذ من نشاطها الفكري وسيلة لتغطية نشاطها السياسي، ولإسباغ صفة مشروعة على هذا النشاط، وهي فرقة المرجئة التي تُؤيّد حكومة بني أُميّة، وتسبغ على تصرّفاتهم صفة دينية، وتقدّم للناس تفسيراً دينياً خاصّاً يجعل الحاكمين بمأمن من أن ينظر المسلمون إلى أفعالهم المنافية للدين نظرة غضب واستنكار.

---

(١) تأريخ الطبري ٣٨٨/٤، الكامل في التأريخ ٣٠٠/٣، تأريخ الخلفاء/٢٠٨ وغيرها.

وقد دأب الفقهاء الرسميون على إصدار الفتاوى التي تحرّم على الجماهير الثورة على الحكم الفاسد. قال الشربيني في كتاب مغني المحتاج إلى معرفة ألفاظ المنهاج: « وقد عرّف المصنّف البُغاة بقوله: هم مسلمون مُخالفوا الإمام ولو جائراً، وهم عادلون كما قال القفّال، وحكاه ابن القشيري عن معظم الأصحاب، وما في الشرح والروضة من التقييد بالإمام العادل، وكذا هو في الأمّ والمختصر مرادهم إمام أهل العدل، فلا ينافي ذلك.

ويدلّ لذلك قول المصنّف في شرح مسلم: إنّ الخروج على الأئمّة وقتالهم حرام بإجماع المسلمين وإن كانوا فسقة ظالمين »[١].

وقال الشيخ عمر النسفي في كتابه « العقائد النسفية »: « ولا ينعزل الإمام بالفسق - أي الخروج على طاعة الله تعالى - والجور - أي الظلم على عباده تعالى -؛ لأنّ الفاسق من أهل الولاية عند أبي حنيفة... ». وقد علّل ذلك بأنّه قد ظهر الفسق واشتهر الجور من الأئمّة والأمراء بعد الخلفاء الراشدين، والسلف كانوا ينقادون لهم ولا يرون الخروج عليهم[٢].

وقال الباجوري في حاشيته على شرح الغزّي: « فتجب طاعة الإمام ولو جائراً. وفي شرح مسلم: يحرم الخروج على الإمام الجائر إجماعاً »[٣].

وهذا فقيه آخر يقول في كتاب مجمع الأنهر وملتقى الأبحر:

---

(١) انظر: مغني المحتاج ٤/١٣٠.

(٢) انظر: شرح العقائد النسفية/١٨٠.

(٣) انظر: حاشية الباجوري على شرح الغزي ٢/٢٥٩.

« والإمام يصير إماماً بالمبايعة معه من الأشراف والأعيان، وبأن ينفذ حكمه في رعيته؛ خوفاً من قهره وجبروته، فإن بويع ولم ينفذ حكمه فيهم لعجزه عن قهرهم لا يصير إماماً، فإذا صار إماماً فجار لا ينعزل إن كان له قهر وغلبة، وإلاّ ينعزل »[1].

هذه الفتاوى وأمثالها التي تُحرّم ثورة العادلين على الظالمين الفاسقين، والتي تجعل مبرّر السيطرة على الحكم القدرة على قهر الرعية وظلمها والجور فيها، ما أنزل الله بها من سلطان، وإنّما هي النتاج الخبيث للنظرة الدينية إلى الحكم الأُموي وكلّ حكم ظالم، وهي نتيجة التبرير الديني لتصرّفات الحكّام الظالمين.

ولكن هذه الفتاوى التخديرية التي ما أنزل الله بها من سلطان بقيت في بطون الكتب، ولم تعد الجماهير المسلمة تستمع إليها إلاّ قليلاً... لقد بدأت تتربّص للثورة في كلّ حين.

---

(١) راجع بحثاً مفصلاً عن هذا الموضوع في كتابنا (نظام الحكم والإدارة في الإسلام) في الصفحات/٩٧ - ٩٩ و١٠٣ - ١٠٤ و١٠٧ - ١١٢ وغيرها. انظر مجمع الأنهر وملتقى الأبحر ٦٩٩/٢، الأشباه والنظائر/٢٠٥، المسامرة/٢٧٨، مآثر الإنافة ٧١/١.

الشعور بالإثم

وكان لثورة الحسين عليه السلام ونهايته في كربلاء أثر آخر، هو ما سبّبته هذه النهاية وهذا المصير من إثارة الشعور بالإثم في ضمير كلّ مسلم استطاع نصره فلم ينصره، وسمع واعيته فلم يُجبها. ولقد كان هذا الشعور أقوى ما يكون في ضمائر أُولئك الذين كفّوا أيديهم عن نصره بعد أن وعدوه النصر وعاهدوه على الثورة.

ولهذا الشعور بالإثم طرفان؛ فهو من جهة يحمل صاحبه على أن يكفّر عن إثمه الذي ارتكبه وجرمه الذي قارفه، وهو من جهة أُخرى يُثير في النفس مشاعر الحقد والكراهية لأُولئك الذي دُفعوا إلى ارتكاب الإثم.

وهذا ما نراه جليّاً في الشعب المسلم بعد ثورة الحسين عليه السلام، فقد دفع الشعور بالإثم كثيراً من الجماعات الإسلاميّة إلى العمل للتفكير، وزادهم بغضاً للأُمويّين وحقداً عليهم. وكان التعبير الطبيعي للرغبة في التكفير وللحقد هو الثورة، وهكذا كان؛ فقد استُهدف الأُمويّون لثورات أجّجها مصرع الحسين عليه السلام، وكان باعثها التكفير عن القعود عن نصره والرغبة في الانتقام من الأمويّين، وسنرى في فصل آت نماذج من هذه الثورات.

وبسبب هذا الشعور بالإثم لم يُعد موقف المسلمين من الحكم الأُموي موقفاً

عقلياً نابعاً من إدراك بُعد الأُمويِّين عن الدين وظلمهم، وإنّما غدا موقفاً عاطفياً أيضاً؛ حيث إنّ هذا الشعور حدا بالكثيرين إلى الثورة كعمل انتقامي يقصد به التشفّي.

وهذا يُفسّر لنا كثيراً من الثورات الفاشلة التي كان من البيّن فشلها قبل اشتعالها؛ فقد كان سببها هو الرغبة في الانتقام، هو تلبية هذا الدّاعي العاطفي، وعندما يقع الإنسان تحت وطأة موقف عاطفي طاغ تغيب عنه احتمالات الفشل والنجاح.

وممّا لا ريب فيه أنّ هذا العامل النفسي جعل موقف المسلمين من الحكم الأُموي أكثر إيجابية وحرارة، وأسبغ عليه صفة انتقامية، وجعله عاملاً يحسب له حساب عند الحاكمين.

إنّ الموقف العقلي فقط يُمكن السيطرة عليه والتشكيك فيه بأساليب كثيرة، أمّا حين يكون الموقف عاطفياً فإنّ الأمر يختلف تماماً؛ وذلك لأنّ العاطفة الصادقة تمتاز بالاشتعال والفوران والديمومة، ورفض وجهات النظر المقابلة، ولقد كان الشعور بالإثم عند هؤلاء المسلمين عميقاً وصادقاً.

* * *

ولقد قدّر لبقية آل البيت عليهم السلام أن تُلهب هذا الشعور بالإثم، وأن تزيده حدّة وحرارة. هذه زينب بنت علي (عليها السلام) وقفت في أهل الكوفة، وقد احتشدوا يحدقون في موكب الرؤوس والسبايا ويبكون، فأشارت إليهم أن اسكتوا، فسكتوا ومضت تقول: « أمّا بعد يا أهل الكوفة، أتبكون! فلا سكنت العبرة، ولا هدأت الرنّة، إنّما مثلكم مثل التي نقضت غزلها من بعد قوّة أنكاثاً، تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم، ألا ساء ما تزرون!

أي والله، فابكوا كثيراً واضحكوا قليلاً، فلقد ذهبتم

بعارها وشنارها، فلن ترحضوها بغسل أبداً، وكيف ترحضون قتل سبط خاتم النبوّة، ومعدن الرسالة، ومدار حجّتكم، ومنار محجتكم، وهو سيّد شباب أهل الجنّة؟! لقد أتيتم بها خرقاء شوهاء، أتعجبون لو أمطرت دماً؟! ألا ساء ما سوّلت لكم أنفسكم أن سخط الله عليكم وفي العذاب أنتم خالدون.

أتدرون أيّ كبد فريتم، وأيّ دم سفكتم، وأيّ كريمة أبرزتم؟! لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً، تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدّاً ».

قال مَنْ سمعها: « فلم أرَ والله خفرة أنطق منها، كأنّما تنزع عن لسان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب. فلا والله ما أتمّت حديثها حتّى ضجّ الناس بالبكاء وذُهلوا، وسقط ما في أيديهم من هول تلك المحنة الدهماء »[1].

وتكلّمت فاطمة بنت الحسين عليهما السلام ، فقالت في كلام لها: « أمّا بعد يا أهل الكوفة، يا أهل المكر والغدر والخيلاء، فإنّا أهل بيت ابتلانا الله بكم وابتلاكم بنا، فكذبتمونا وكفّرتمونا، ورأيتم قتالنا حلالاً، وأموالنا نهباً.

ويلكم! أترون أيّ يدٍ طاعنتنا منكم، وأيّة نفس نزعت

(١) انظر: أمالي الشيخ المفيد/٣٢١، أمالي الشيخ الطوسي/٩٢، بلاغات النساء - لابن طيفور/٢٣.

إلى قتالنـا، أم بأيّـة رجـل مشـيتم إلينـا تبغـون مُحاربتنـا؟! قسـت قلـوبكم، وخـتم علـى سمعكـم وبصركم، وسوّل لكم الشيطان، وأملى لكم، وجعل على بصركم غشاوة فأنتم لا تهتدون.

تبّاً لكم يا أهل الكوفة! أيّ ترات لرسول الله قبلكم، وذحول له لديكم بما غدرتم بأخيه علي بن أبي طالب وعترته الطيّبين الأخيار؟! »[١].

* * *

وتكلّم علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام ، فقال: « أيها الناس، ناشدتكم الله، هل تعلمون أنكم كتبتم إلى أبي وخدعتموه، وأعطيتموه من أنفسكم العهد والميثاق والبيعة وقاتلتموه؟ فتبّاً لكم لما قدّمتم لأنفسكم! وسوأة لرأيكم! بأيّ عين تنظرون إلى رسول الله إذ يقول لكم: قتلتم عترتي، وانتهكتم حرمتي، فلستم من أمتي؟! »[٢].

* * *

ولما نودي بقتل الحسين عليه السلام في المدينة، وعلم الناس بذلك ضجّت المدينة بأهلها، ولم تُسمع واعية قطّ مثل نساء بني هاشم في دورهنّ على الحسين عليه السلام .

وخرجت ابنة عقيل بن أبي طالب حاسرة ومعها نساؤها، وهي تلوي بثوبها وتقول[٣]:

---

(١) انظر: الاحتجاج - الطبرسي ٢/٢٧، اللهوف في قتلى الطفوف/٨٩.

(٢) انظر: اللهوف في قتلى الطفوف/١٨٦.

(٣) انظر: اللهوف - لابن طاووس/٩٦، الكامل - لابن الأثير ٤/٣٦، الآثار الباقية - للسيروني/٣٢٩، =

مــاذا تقولــونَ إنْ قــالَ النــبيُّ لكــمْ		مــاذا فعلــتم وأنــتم آخــرُ الأُمــمِ
بعـــترتي وبأهلـــي بعـــد مُفتقـــدي		مـــنهم أُســـارى وقتلـــى ضُـــرّجوا بـــدمِ
مـا كـان هـذا جزائـي إذ نصـحتُ لكـمْ		أن تخلفـــوني بســـوءٍ في ذوي رحمـــي

فلمّا سمع عمرو بن سعيد - والي المدينة - أصواتهنّ، ضحك وقال:

عجّـــت نســـاءُ بـــني زيادٍ عجّـــةً		كعجـــيجِ نســـوتِنا غـــداةَ الأرنـــبِ

ثمّ قال: هذه واعية كواعية عثمان[1].

وقد عبّر هذا الشعور بالإثم عن نفسه بالشعر الذي يتفجّر سخطاً ونقمة على الأُمويّين، وحنيناً وولاء للحسين عليه السلام، وانفعالاً بثورته.

وثمّة نماذج معاصرة للثورة تكشف لنا بصدق وحرارة عن هذا الأثر الذي خلّفته الثورة في المجتمع الإسلامي، ولعلّ من أصدق النماذج التي حفظها لنا تأريخ تلك الفترة قول عبد الله بن الحرّ الذي فرّ من الكوفة حين اتّهمه عبيد الله بن زياد بعدم الولاء للسلطة، وقدم إلى كربلاء فنظر إلى مصارع الشهداء وقال:

يقـــولُ أمـــيرٌ غـــادرٌ حـــقّ غـــادرِ		ألا كنـــتَ قاتلـــتَ الشـــهيدَ ابـــنَ فاطمـــهْ

= تأريخ الطبري ٦/٢٦٨ و٤/٣٥٧ طبعة أُخرى، عيون الأخبار - لابن قتيبة ١/٢١٢، مجمع الزوائد - للهيثمي ٩/٢٠٠، كفاية الطالب في مناقب علي بن أبي طالب - للحافظ محمّد بن يوسف الكنجي الشافعي/٤٤١، تأريخ ابن عساكر ٤/٣٤٢، ذخائر العقبى - لأحمد بن عبد الله الطبري/١٥٠.

(١) انظر: تأريخ الطبري ٤/٣٤٦ - ٣٥٧، الكامل في التأريخ ٣/٣٠٠، والشماتة في أبغض مظاهرها بيّنة في موقف عمرو بن سعيد الأُموي.

فيـــا نـــدمي ألاّ أكـــونُ نصـــرتَهُ ألا كـــلّ نفـــسٍ لا تُســـدّدُ نادمـــهْ

وإنّي لآســـي لم أكـــن مـــن حماتِـــهِ لـــذو حســـرةٍ مـــا إنْ تُفـــارق لازمـــهْ

ســـــقى اللهُ أرواحَ الـــــذين تآزروا علـى نصـرهِ سـقياً مـن الغيـثِ دائمـهْ

وقفـــتُ علـــى أجـــداثِهم ومحـــالِهمْ فكـادَ الحشـى يـنفضُّ والعـينُ سـاجمهْ

لَعمـري لقـد كـانوا مصـاليتَ في الـوغى ســراعاً إلى الهيجــا حمــاةً خضــارمهْ

تآسـوا علـى نصـرِ ابـنِ بنـتِ نبيّهمْ بأســـيافِهم آســـادُ غيـــلٍ ضـــراغمه

فـــإنْ يُقتلـــوا فكـــلُّ نفـــسٍ تقيّـــةٍ على الأرضِ قـد أضـحت لـذلكَ واجمـهْ

ومـــا إنْ رأى الـــراؤونَ أفضـــلَ مـــنهمُ لـدى المـوتِ سـاداتٍ وزهـراً قماقمـهْ

أتقلـــتُهم ظلمـــاً وترجـــو ودادنا فـــدع خطّـــةً ليســـت لنـــا بملائمـــهْ

لَعمـــري لقـــد راغمتمـــونا بقـــتلِهمْ فكـــم ناقـــمٌ منّـــا علـــيكم وناقمـــهْ

أهـــمُّ مـــراراً أن أســـيرَ بجحفـــلٍ إلى فئـــةٍ زاغـــتْ عـــن الحـــقّ ظالمـــهْ
فكفّـــوا وإلاّ زرتُكـــم بكتائـــبٍ أشـــدّ علـــيكم مـــن زحـــوفِ الديالمـــهْ[١]

ومن هؤلاء الذين استيقظت ضمائرهم على جريمتهم الرهيبة رضي بن منقذ العبدي، فقال:

لـــو شـــاءَ ربّي مـــا شـــهدتُ قتـــالهُمْ ولا جعـــلَ النعمـــاءَ عنـــد ابـــن جـــابرِ[٢]
لقـــد كـــانَ ذاكَ اليـــوم عـــاراً وسُـــبّةً تُعـــيّرهُ الأبنـــاءُ بعـــدَ المعاشـــرِ
فياليـــتَ أنيّ كنـــتُ مـــن قبـــل قتلِـــهِ ويـــومَ حســـينٍ كنـــتُ في رمـــسِ قـــابرِ[٣]

وقد قدّر لهذا الشعور بالإثم أن يبقى مشتعل الأوار، حافزاً دائماً إلى الثورة والانتقام، وقدّر له أن يدفع الناس إلى الثورات على الأمويّين كلّما سنحت الفرصة، ثمّ لا يرتوي ولا يهدأ ولا يستكين وإنّما يطلب من صاحبه ضريبة الدم باستمرار، وكان سبيل ذلك هو الثورة على الظالمين.

---

(١) انظر: تأريخ الطبري ٦٣/٣ و٣٦٠/٤ و٤٦٩/٥، البداية والنهاية ٢٢٠/٨، مقتل الحسين - لأبي مخنف/٢٤٥، تأريخ مدينة دمشق ٤٣٠/٢٧.

(٢) كعب بن جابر: أحد جنود الجيش الأموي، قالت له زوجته أو أُخته لما رجع من المعركة: « أعنت على ابن فاطمة وقتلت سيد القرّاء؟! لقد أتيت عظيماً من الأمر، والله لا أُكلمك من رأسي كلمة أبداً ». فأجابها بشعر يفتخر فيه بفعله تضمّن بيتاً يذكر فيه أنّه أنقذ رضي بن منقذ من القتل حين أعانه على خصمه في المعركة:

قتلـــتُ بُريـــراً ثمّ حمّلـــتُ نعمـــةً أبا منقـــذٍ لمـــا دعـــا مَـــنْ يماصـــعُ

ونلفت النظر إلى عقيدة الجبر الظاهر عند رضي بن منقذ العبدي في البيت الأوّل في قوله: (لو شاء ربّي ما شهدت قتالهمْ). انظر: تأريخ الطبري ٤٣٢/٥ - ٤٣٣. منه رحمه الله.

(٣) انظر: تأريخ الطبري ٣٣٠/٤ و٤٣٣/٥.

الثورة الصحيحة هي الاحتجاج النهائي الحاسم على الواقع المعاش، فبعد أن تخفق جميع الوسائل الأُخرى في تطوير الواقع تصبح الثورة قدراً حتميّاً لا بدّ منه. والقائمون بالثورة هم دائماً أصح أجزاء الأمّة؛ هم الطليعة، هم النُّخبة التي لم يأسرها الواقع المعاش، وإنّما بقيت في مستوى أعلى منه وإن كانت تدركه وتعيه، وترصده وتنفعل به وتتعذّب بسببه.

تُصبح الثورة قدر هذه النُّخبة ومصيرها المحتوم حين تخفق جميع وسائل الصلاح الأُخرى، وإلاّ فإنّ النُّخبة إذا لم تثر تفقد مُبررات وجودها، ولا يمكن أن يُقال عنها إنّها نُخبة، إنّها تكون نُخبة حين يكون لها دور تأريخي وحين تقوم بهذا الدور.

ولا بدّ أن تُبشر الثورة بأخلاق جديدة إذا حدثت في مجتمع ليس له تُراث ديني وإنساني يضمن لأفراده - إذا اتّبع - حياة إنسانيّة متكاملة، أو تُحيي المبادئ والقيم التي هجرها المجتمع أو حرّفها إذا كان للمجتمع مثل هذا التُراث كما هو الحال في المجتمع الإسلامي الذي كانت سياسة الأمويّين المجافية

للإسلام تحمله على هجر القيم الإسلاميّة، واستلهام الأخلاق الجاهليّة في الحياة.

وتُوفر هذا الهدف في الثورة الصحيحة من جملة مقوّمات وجودها؛ لأنّ العلاقات الإنسانيّة في الواقع علاقات مُنحطّة وفاسدة، وموقف الإنسان من الحياة موقف مُتخاذل وموسوم بالانحطاط والانهيار؛ ولذلك انتهى الواقع إلى حدّ من السوء بحيث غدت الثورة علاجه الوحيد.

وإذاً، فالدعوة إلى نموذج من الأخلاق أسمى ممّا يُمارسه المجتمع ضرورة لازمة؛ لأنّه لا بدّ أن تتغيّر نظرة الإنسان إلى نفسه وإلى الآخرين وإلى الحياة ليمكن إصلاح المجتمع.

ولقد قدّم الحسين عليه السلام وآله وأصحابه - في ثورتهم على الحكم الأُموي - الأخلاق الإسلاميّة العالية بكلّ صفاتها ونقائها، ولم يُقدّموا إلى المجتمع الإسلامي هذا اللون من الأخلاق بألسنتهم، وإنّما كتبوه بدمائهم وحياتهم.

لقد اعتاد الرجل العادي إذ ذاك أن يرى الزعيم القبلي أو الزعيم الديني يبيع ضميره بالمال، وبعرض الحياة الدنيا. لقد اعتاد أن يرى الجباه تعنوا خضوعاً وخشوعاً لطاغية حقير لمجرد أنّه يملك أن يُحرم من العطاء.

لقد خضع الزعماء الدينيون والسياسيون ليزيد على علمهم بحقارته وانحطاطه، وخضعوا لعبيد الله بن زياد على علمهم بأصله الحقير ومنبته الوضيع، وخضعوا لغير هذا وذاك من الطغاة؛ لأنّ هؤلاء الطغاة يملكون الجاه والمال والنفوذ، ولأنّ التقرّب منهم والتودّد إليهم كفيل بأن يجعلهم ذوي نفوذ في المجتمع وإن عليهم النعمة والرفاه.

وكان هؤلاء الزعماء يرتكبون كلّ شيء في سبيل نيل هذه الحظوة. كانوا يخونون مجتمعهم فيتمالون مع هؤلاء الطغاة على إذلال هذا المجتمع وسحقه

وحرمانه، وكانوا يخونون ضمائرهم فيبتدعون من ألوان الكذب ما يدعم هذه العروش، وكانوا يخونون دينهم الذي يأمرهم بتحطيم الطغاة بدل عبادتهم.

كان الرجل العادي في المجتمع الإسلامي آنذاك يعرف هذا اللون من الرجال، ويعرف لوناً آخر منهم وهم أُولئك الزُّهّاد الدّجّالون الذين يتظاهرون بالزهد رياء ونفاقاً، حتّى إذا تقربوا من الطغاة كانوا لهم أعواناً وأنصاراً.

إنّهم هذا الصنف الذي وصفه الإمام علي عليه السلام بقوله: « ومنهم مَنْ يطلب الدنيا بعمل الآخرة، ولا يطلب الآخرة بعمل الدنيا. قد طامن من شخصه، وقارب من خطوه، وشمّر من ثوبه، وزخرف من نفسه للأمانة، واتّخذ ستر الله ذريعة إلى المعصية »[1].

هؤلاء هم الزعماء الذين كان الرجل العادي يعرفهم وقد اعتادهم وأفهم، بحيث غدا يرى عملهم هذا طبيعياً لا يثير التساؤل، ولذلك فقد كان غريباً جدّاً على كثير من المسلمين آنذاك أن يروا إنساناً يُخيّر بين حياة رافهة فيها الغنى وفيها المتعة، وفيها النفوذ والطاعة، ولكن فيها إلى جانب ذلك كلّه الخضوع لطاغية والإسهام معه في طغيانه، والمساومة على المبدأ والخيانة.

وبين الموت عطشاً مع قتل الصفوة الخلّص من أصحابه وأولاده، وإخوته وأهل بيته جميعاً أمامه، وحيث تنظر إليهم عينه في ساعاتهم الأخيرة وهم يلوبون ظمأ، وهم يكافحون بضراوة وإصرار عدواً هائلاً يريد لهم الموت أو هذا اللون من الحياة، ثم يرى مصارعهم واحداً بعد واحد، وإنّه ليعلم أيّ مصير فاجع محزن ينتظر آله ونساءه من بعده؛ سبي وتشريد، ونقل من بلد

(١) انظر: نهج البلاغة - الخطبة ٣٢.

إلى بلد، وحرمان... يعلم ذلك كله ثمّ يختار هذا اللون الرهيب من الموت على هذا اللون الرغيد من الحياة. لقد كان غريباً جدّاً على هؤلاء أن يروا إنساناً كهذا؛ لقد اعتادوا على زعماء يُمرّغون جباههم في التراب خوفاً من مصير أهون من هذا بكثير، أمثال عمر بن سعد، والأشعث بن قيس ونظائرهما. تعودوا على هؤلاء فكان غريباً عليهم أن يشاهدوا هذا النموذج العملاق من الإنسان، هذا النموذج الذي يتعالى ويتعالى حتّى ليكاد القائل أن يقول: ما هذا بشر.

ولقد هزّ هذا اللون من الأخلاق، هذا اللون من السلوك الضميرَ المسلم هزّاً مُتداركاً، وأيقظه من سُباته المَرَضي الطويل؛ ليشاهد صفحة جديدة مُشرقة يكتبها الإنسان بدمه في سبيل الشرف والمبدأ، والحياة العارية من الذلّ والعبودية.

ولقد كشف له عن زيف الحياة التي يحياها، وعن زيف الزعماء - أصنام اللحم - الذين يعبدهم، وشق له طريقاً جديداً في العمل، وقدّم له أُسلوباً جديداً في العمل، وقدّم له أُسلوباً جديداً في مُمارسة الحياة، فيه قسوة وفيه حرمان، ولكنّه طريق مُضيء لا طريق غيره جدير بالإنسان.

ولقد غدا هذا اللون المشرق من الأخلاق، وهذا النموذج الباهر من السلوك خطراً رهيباً على كلّ حاكم يُجافي روح الإسلام في حكمه. إنّ ضمائر الزعماء قليلاً ما تتأثّر بهذه المثل المضيئة، ولكنّ الذي يتأثّر هي الأُمّة، وهذا هو ما كان يريده الحسين عليه السلام. لقد كان يريد شقّ الطريق للأُمّة المستعبدة لتناضل عن إنسانيتها.

* * *

وفي جميع مراحل الثورة، منذ بدايتها في المدينة حتّى ختامها الدامي في كربلاء، نلمح التصميم على هذا النمط العالي من السلوك.

ها هو الحسين عليه السلام يقول لأخيه مُحَّد بن الحنفيّة وهما بعد في المدينة: « يا أخي، والله لو لم يكن في الدنيا ملجأ ولا مأوى لما بايعت يزيد بن معاوية »[1].

وها هو يتمثل بأبيات يزيد بن مفرغ الحميري[2] حين انسلّ من المدينة في جنح الليل إلى مكة:

لا ذُعــرت السّــوام في فلــقِ الصبــ ... ـــحِ مُغـــيراً ولا دُعيـــت يزيـــدا

يـــوم أُعطـــي علـــى المهانـــةِ ضـــيماً ... والمنـــايا ترصـــدنني أن أحيـــدا[3]

وها هو يجيب الحرّ بن يزيد الرياحي حين قال له: « أذكرك الله في نفسك؛ فإنّي أشهد لئن قاتلت لتُقتلن، ولئن قوتلت لتهلكن ».

فقال له الإمام الحسين عليه السلام: « أبالموت تخوفني؟ وهل يعدو بكم الخطب أن تقتلوني؟ ما أدري ما أقول لك، ولكن أقول كما قال أخو الأوس لابن عمّه ولقيه وهو يريد نصرة رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال له: أين تذهب فإنّك مقتول. فقال:

سأمضـي ومـا بالمـوتِ عـارٌ علـى الفـتى ... إذا مـــا نـــوى خـــيراً وجاهـــدَ مســـلما

---

(١) انظر: الفتوح - لابن أعثم ٥/٢٣، مقتل الحسين - للخوارزمي ١/١٨٨.

(٢) تقدّمت ترجمته.

(٣) انظر: تأريخ الطبري ٤/٢٥٣، الكامل في التأريخ ٣/٢٦٥، تأريخ مدينة دمشق ١٤/٢٠٤.

وواســـى رجـــالاً صـــالحينَ بنفســـه وخـــالفَ مثبـــوراً وفـــارقَ مجرمـــا

فـــإن عشـــتُ لم أنـــدم وإن مُـــتُّ لم أُلَمْ كفـــى بـــك ذُلاً أن تعـــيشَ وتُرغمـــا »[١]

وها هو وقد أُحيط به، وقيل له: انزل على حكم بني عمّك، يقول: « لا والله، لا أُعطيهم بيدي إعطاء الذليل، ولا أقرّ إقرار العبيد. عباد الله، إنّي عذت بربّي وربّكم أن ترجمون، أعوذ بربّي وربّكم من كلّ مُتكبّر لا يؤمن بيوم الحساب.

ألا وإنّ الدّعي ابن الدّعي قد ركز بين اثنتين؛ بين السّلة والذلّة، وهيهات منّا الذلّة، يأبى الله لنا ذلك ورسوله والمؤمنون، وجدود طابت، وحجور طهرت، وأُنوف حميّة، ونفوس أبيّة لا تؤثر طاعة اللئام على مصارع الكرام »[٢].

وها هو يخطب أصحابه فيقول: « أمّا بعد، فقد نزل من الأمر بنا ما ترون، وإنّ الدنيا قد تغيّرت وتنكّرت، وأدبر معروفها، ولم يبقَ منها إلاّ صبابة كصبابة الإناء، وخسيس عيش كالمرعى الوبيل. ألا ترون إلى الحقّ لا يُعمل به، وإلى الباطل لا يُتناهى عنه؟ ليرغب المؤمن في لقاء الله؛ فإنّي لا أرى الموت إلاّ سعادة، والحياة مع الظالمين إلاّ برماً »[٣].

---

(١) انظر: تأريخ الطبري ٣٠٥/٤، الكامل في التاريخ ٢٧٠/٣.

(٢) انظر: تأريخ الطبري ٤٢٥/٥ - ٤٢٦ طبعة سنة ١٩٦٤ م، الكامل في التأريخ ٢٨٧/٣ - ٢٨٨.

(٣) انظر: تأريخ الطبري ٣٠٧/٣ و٣٠٥/٤ طبعة أُخرى، و٤٢٥/٥ - ٤٢٦ طبعة سنة ١٩٦٤ م، ابن عساكر (ترجمة الإمام الحسين عليه السّلام)/٢١٤.

وكان يقول كثيراً: « موت في عزّ خير من حياة في ذلّ »[١].

كلّ هذا يكشف عن طبيعة السلوك الذي اختطّه الحسين عليه السلام لنفسه ولمنْ معه في كربلاء، وألهب به الروح الإسلاميّة بعد ذلك، وبثّ فيها قوّة جديدة.

* * *

لقد عرفت كيف كان الزعماء الدينيون والسياسيون يُمارسون حياتهم. وهنا نرسم لك صورة عن نوع الحياة التي كان يُمارسها الإنسان العادي إذ ذاك. لقد كان همّ الرجل العادي هو حياته الخاصّة يعمل لها ويكدح في سبيلها، ولا يُفكّر إلاّ فيها، فإذا اتّسع أُفقه كانت القبيلة محلّ اهتمامه.

أمّا المجتمع وآلامه - المجتمع الكبير - فلم يكن ليستأثر من الرجل العادي بأيّ اهتمام، كانت القضايا العامّة بعيدة عن اهتمامه. لقد كان العمل فيها وظيفة زعمائه الدينيين والسياسيين؛ يُفكّرون ويرسمون خطّة العمل وعليه أن يسير فقط، فلم تكن للرجل العادي مشاركة جدّية إيجابية في قضايا المجتمع العامّة.

وكان يهتم غاية الاهتمام بعطائه فيحافظ عليه، ويطيع توجيهات زعمائه خشية أن يُمحى اسمه من العطاء، ويسكت عن نقد ما يراه جوراً بسبب ذلك[٢].

وكان يهتم بمفاخر قبيلته ومثالب غيرها من القبائل، ويروي الأشعار في هذا وذاك.

---

(١) انظر المصدر السابق.

(٢) قال حميد بن مسلم: قلت لشمر: أتريد أن تجمع على نفسك خصلتين؛ تُعذّب بعذاب الله، وتقتل النساء والولدان. والله إنّ في قتلك الرجال لما تُرضي به أميرك. فقال: مَنْ أنت؟ قلت: لا أُخبرك مَنْ أنا. قال: وخشيت والله أن لو عرفني أن يصرني عند السلطان. انظر: تأريخ الطبري ١٨٩/٤، البداية والنهاية ١٩٨/٨. منه رحمه الله.

هذا مُخطط لحياة الرجل العادي إذ ذاك.

أمّا أصحاب الحسين عليه السلام فقد كان لهم شأن آخر، لقد كانت العُصبة التي رافقت الحسين عليه السلام ، وشاركته في مصيره رجالاً عاديين، لكلّ منهم بيت وزوجة وأطفال وصداقات، ولكلّ منهم عطاء من بيت المال، وكان كثير منهم لا يزال في ميعة الصبا، في حياته مُتّسع للاستمتاع بالحُبّ وطيّبات الحياة، ولكنّهم جميعاً خرجوا عن ذلك كلّه وواجهوا مجتمعهم بعزمهم الكبير في سبيل مبدأ آمنوا به، وصمموا على الموت في سبيله.

ولا أستطيع أن أقدّم هنا صورة كاملة وافية لسُلوك آل الحسين وأصحابه في هذه الثورة، وعليك لكي تخرج بهذه الصورة الوافية أن تقرأ قصّة كربلاء بتمامها، وغاية ما أستطيعه هنا هو أن أقدّم لك لمحات من سلوكهم العالي.

ـ في زُبالة استبان للحسين عليه السلام مصيره حين علم بقتل رسوله إلى أهل الكوفة مسلم بن عقيل، وأخيه من الرضاعة عبد الله بن يقطر، فأخبر مَنْ معه بذلك، وقال: « أمّا بعد، فإنّه قد أتاني خبر فظيع؛ قتل مسلم بن عقيل، وهانئ بن عروة، وعبد الله بن يقطر، وقد خذلنا شيعتنا، فمَنْ أحبّ منكم الانصراف فلينصرف في غير حرج، ليس عليه منّا ذمام »[1].

فتفرّق عنه الناس يميناً وشمالاً حتّى بقي في أصحابه الذين يُريدون الموت معه، واستمروا على عزمهم هذا إلى اللحظة الأخيرة لكلّ منهم. اللحظة التي أدّى

---

(١) انظر: تأريخ الطبري ٤/٣٠٠، الكامل في التأريخ ٣/٢٧٨.

فيها ضريبة الدم كاملة.

. في كربلاء أقبل على أصحابه فقال: « الناس عبيد الدنيا، والدين لعق على ألسنتهم، يَحوطونه ما درّت معايشهم، فإذا مُحِّصوا بالبلاء قلّ الديّانون ».

ثمّ قال: « أمّا بعد، فقد نزل من الأمر بنا ما ترون، وإنّ الدنيا قد تغيّرت وتنكّرت وأدبر معروفها، ولم يبقَ منها إلاّ صبابة كصبابة الإناء، وخسيس عيش كالمرعى الوبيل. ألا ترون إلى الحقّ لا يُعمل به، وإلى الباطل لا يُتناهى عنه؟ ليرغب المؤمن في لقاء الله؛ فإنّي لا أرى الموت إلاّ سعادة، والحياة مع الظالمين إلاّ برماً »[1].

فقال زهير بن القين: « سمعنا يابن رسول الله مقالتك، ولو كانت الدنيا لنا باقية وكنا فيها مخلّدين لآثرنا النهوض معك على الإقامة فيها ».

وقال برير بن خضير: « يابن رسول الله، لقد منّ الله بك علينا أن نُقاتل بين يديك، نقطع فيك أعضاؤنا ثمّ يكون جدّك شفيعنا يوم القيامة ».

---

(١) انظر: تأريخ الطبري ٣/٣٠٧ و٤/٣٠٥ طبعة أُخرى و٥/٤٢٥ - ٤٢٦ طبعة سنة ١٩٦٤ م، ابن عساكر (ترجمة الإمام الحسين عليه السلام)/٢١٤.

وقال نافع بن هلال: « سر بنا راشداً مُعافى، مشرقاً إن شئت أو مغرباً، فوالله ما أشفقنا من قدر الله، ولا كرهنا لقاء ربّنا، وإنّا على نيّاتنا وبصائرنا نوالي مَنْ والاك، ونعادي مَنْ عاداك »[1].

ومرّة أُخرى جمع الحسين عليه السلام أصحابه قرب المساء - مساء يوم العاشر - فخطبهم قائلاً: «... أمّا بعد، فإنّي لا أعلم أصحاباً أوفى ولا خيراً من أصحابي، ولا أهل بيت أبرّ ولا أوصل من أهل بيتي، فجزاكم الله عنّي جميعاً. ألا وإنّي أظنّ أنّ يومنا من هؤلاء الأعداء غداً، وإنّي قد أذنت لكم فانطلقوا جميعاً في حلٍّ، ليس عليكم منّي ذمام. وهذا الليل قد غشيكم فاتّخذوه جملاً، وليأخذ كلّ رجل منكم بيد رجل من أهل بيتي، فجزاكم الله جميعاً خيراً، وتفرّقوا في سوادكم ومدائنكم؛ فإنّ القوم إنّما يطلبوني، ولو أصابوني لذهلوا عن طلب غيري... ».

هذه فرصة أخيرة منحهم إيّاها الحسين عليه السلام، فماذا كان ردّ الفعل؟ قال له إخوته وأبناؤه، وبنو أخيه وأبناء عبد الله بن جعفر: ولِمَ نفعل؟ لنبقى بعدك؟! لا أرانا الله ذلك أبداً.

والتفت الحسين عليه السلام إلى بني عقيل، وقال:

---

(١) انظر: تأريخ الطبري ٣/٢٣٤ و٤/٣٠٥ طبعة أُخرى، ٥/٤٢٥ - ٤٢٦ طبعة سنة ١٩٦٤ م، ابن عساكر (ترجمة الإمام الحسين عليه السلام)/٢١٤.

« حسبكم من القتل بمسلم، اذهبوا فقد أذنت لكم ».

فقالوا: فما يقول الناس، وما نقول لهم؟! إنّا تركنا شيخنا وسيّدنا وبني عمومتنا خير الأعمام، ولم نرمِ معهم بسهم، ولم نطعن برمح، ولم نضرب بسيف، ولا ندري ما صنعوا. لا والله لا نفعل، ولكن نفديك بأنفسنا وأموالنا وأهلينا، نقاتل معك حتّى نرد موردك، فقبّح الله العيش بعدك.

وجاء دور أصحابه، فقال مسلم بن عوسجة: أنحن نُخلي عنك ولما نُعذر إلى الله في أداء حقّك؟ أما والله لا أُفارقك حتّى أطعن في صدورهم برمحي، وأضربهم بسيفي ما ثبت قائمه في يدي، ولو لم يكن معي سلاح أُقاتلهم به لقذفتهم بالحجارة دونك حتّى أموت معك.

وقال سعد بن عبد الله الحنفي: والله، لا نُخليك حتّى يعلم الله أنّا قد حفظنا غيبة رسول الله صلّى الله عليه وآله فيك. والله لو علمت أنّي أُقتل ثمّ أُحيا، ثمّ أُحرق حيّاً ثمّ أُذرى، يُفعل ذلك بي سبعين مرّة ما فارقتك حتّى ألقى حمامي دونك، فكيف لا أفعل ذلك وإنّما هي قتلة واحدة.

وقال زهير بن القين: والله، لوددت أنّي قُتلت ثمّ نُشرت، ثمّ قُتلت حتّى أُقتل كذا ألف قتلة وإنّ الله يدفع بذلك القتل عن نفسك وعن

أنفس هؤلاء الفتية من أهل بيتك.

وتكلّم جماعة من أصحابه بكلام يشبه بعضه بعضاً في وجه واحد، فقالوا: والله لا نفارقك، ولكن أنفسنا لك الفداء، نقيك بنحورنا، وجباهنا وأيدينا، فإذا نحن قُتلنا كنّا وفينا وقضينا ما علينا[1].

وقال الحسين عليه السلام لنافع بن هلال في جوف الليل: « ألا تسلك بين هذين الجبلين في جوف الليل وتنجو بنفسك؟ ». فوقع نافع على قدميه يُقبّلها ويقول: ثكلتني أُمّي! إنّ سيفي بألف، وفرسي بمثله، فوالله الذي مَنْ عليّ بك لا فارقتك حتّى يكلاّ عن فري وجري.

وصاح شمر بن ذي الجوشن بأعلى صوته: أين بنو أُختنا؟ فخرج إليه العباس وجعفر وعثمان بنو علي، فقالوا له: ما لك، وما تريد؟

قال: أنتم يا بني أُختي آمنون.

فقال له الفتية: لعنك الله ولعن أمانك لئن كنت خالنا! أتؤمننا وابن رسول الله لا أمان له[2]؟!

هذا هو مستوى السلوك الذي ارتفع إليه الثائرون، وهذه هي الأخلاق الجديدة التي قدّموها لمجتمعهم. هذا المجتمع الذي قدر لكثير من فئاته فيما بعد أن تأخذ نفسها بالسير على هذا المستوى العالي من الأخلاق ومُمارسة الحياة.

* * *

(١) انظر: تأريخ الطبري ٤/٣١٧ - ٣١٨.

(٢) انظر: تأريخ الطبري ٤/٣١٥.

ولنا أن نتساءل هنا عن دور المرأة المسلمة في ثورة كربلاء؛ لقد كان في الثائرين الزوج والأخ والولد، فما كان موقف المرأة من مصارع هؤلاء؟

ويأتينا الجواب من التأريخ فنهتزّ لموقف المرأة في كربلاء، لقد كانت المرأة أُمّاً وأُختاً وزوجة في طليعة الثائرين المناضلين المضحين الباذلين لضريبة الدم. ولا أتحدّث هنا عن زينب وعن أخواتها؛ فمستوى سلوكهن لم يبلغه بشر، وإنّما أتحدّث عن نساء عاديات جدّاً كنّ إلى أيّام قليلة قبل يوم كربلاء يشغلهن ما يشغل كلّ امرأة من شؤون بيتها وزينتها، وتربية أولادها والتحدّث مع جاراتها. نساء لا تربطهن بالثائرين رابطة دم، ولكن تربطهن بهم رابطة مبدأ ورابطة عقيدة، فضحّين بالولد والزوج مستبشرات، ثمّ ضحّين بأنفسهن في النهاية.

* * *

هذا عبد الله بن عمير قال لزوجته إنّه يريد المسير إلى الحسين عليه السلام، فقالت له: أصبت، أصاب الله بك أرشد أُمورك، افعل وأخرجني معك. فخرج بها حتّى أتى حسيناً فأقام معه.

ثمّ برز ليُقاتل، فأخذت امرأته عموداً ثمّ أقبلت نحو زوجها تقول: فداك أبي وأُمّي! قاتل دون الطيبين ذرّية مُحَمَّد. فأقبل إليها يردّها نحو النساء، فأخذت تجاذب ثوبه، ثمّ قالت: إنّي لن أدعك دون أن أموت معك.

فناداها الحسين عليه السلام، فقال: « جُزيتم من أهل بيت خيراً، ارجعي رحمك الله إلى النساء فاجلسي معهنّ ». فانصرفت، ثمّ قُتل زوجها، فخرجت تمشي إليه حتّى جلست عند رأسه تمسح التراب عنه وتقول:

هنيئاً لك الجنّة. فقال شمر بن ذي الجوشن لغلام يُسمّى رستم: اضرب رأسها بالعمود. فضرب رأسها فشدخه فماتت مكانها، وهي أوّل امرأة قُتلت من أصحاب الحسين عليه السلام [(١)].

وهذا وهب بن حبّاب الكلبي، قالت له أُمّه: قم يا بُني فانصر ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله. فقال: أفعل. فحمل على القوم، ولم يزل يُقاتل حتّى قتل جماعة، ثمّ رجع وقال: يا أُمّاه، هل رضيتِ؟ فقالت: ما رضيت حتّى تُقتل بين يدي الحسين عليه السلام. فقالت له امرأته: بالله عليك لا تفجعني بنفسك. فقالت له أُمّه: يا بُني، اعزب عن قولها، وارجع فقاتل بين يدي ابن بنت نبيّك تنل شفاعة جدّه يوم القيامة. فرجع، ولم يزل يُقاتل حتّى قُطعت يداه ثمّ قُتل[(٢)].

وبرز جنادة بن الحارث السلماني - وكان خرج بعياله وولده إلى الحسين عليه السلام - فقاتل حتّى قُتل، فلمّا قُتل أمرت زوجته ولدها عمراً - وهو شاب - أن ينصر الحسين عليه السلام، فقالت له: اخرج يا بُني وقاتل بين يدي ابن بنت رسول الله.

فخرج واستأذن الحسين عليه السلام، فقال الحسين عليه السلام: « هذا شاب قُتل أبوه، ولعلّ أُمّه تكره خروجه ».

فقال الشاب: أُمّي أمرتني بذلك. فبرز وقاتل حتّى قُتل وحُزّ رأسه، ورُمي به إلى عسكر

---

(١) انظر: تاريخ الطبري ٤/٣٢٦ و٣٣٣.

(٢) انظر: تأريخ الطبري ٤/٣١٥.

الحسين عليه السلام، فحملت أُمّه رأسه وقالت: أحسنت يا بُني. وأخذت عمود خيمة وهي تقول:

أنا عجـــوزٌ ســـيدي ضـــعيفهْ خاويـــــةٌ باليــــةٌ نحيفـــــهْ

أضـــربكم بضـــربةٍ عنيفـــهْ دونَ بـــني فاطمـــةَ الشـــريفهْ

وضربت رجلين فقتلتهما، فأمر الحسين عليه السلام بصرفها، ودعا لها(١).

هذه نماذج من سلوك الثائرين في كربلاء.

* * *

ولقد أهمل التأريخ ذكر كثير من بطولات هؤلاء الثائرين؛ فإنّ المؤرّخين يحرصون غالباً على تجنّب ذكر التفاصيل الدقيقة، ويقصرون اهتمامهم على ما يلوح لهم أنّه جليل، ولا ينال الناس العاديون شيئاً من اهتمامهم، بينما يقصرون هذا الاهتمام على البارزين من القادة وإن كان الدور الحقيقي في المعركة هو ما يقوم به هؤلاء الناس العاديون. على أنّ أخبار ثورة كربلاء استهدفت لحملة من السلطة الحاكمة فأهمل المؤرّخون الرسميون ذكر كثير من تفاصيلها الدقيقة ذات المغزى.

* * *

ولقد عملت هذه الأخلاق الجديدة عملها في اكتساب الحياة الإسلاميّة سمة كانت قد فقدتها قبل ثورة الحسين عليه السلام بوقت طويل، وذلك هو الدور الذي غدا الرجل العادي يقوم به في الحياة العامّة بعد أن تأثّر وجدانه بسلوك الثائرين في كربلاء، وقد بدأ الحكّام المجافون للإسلام يحسبون حساباً لهؤلاء الرجال العاديين، وبدأ المجتمع الإسلامي يشهد من حين لآخر ثورات عارمة يقوم بها

---

(١) انظر: تأريخ الطبري ٤/٣٣٣.

الرجال العاديون على الحاكمين الظالمين وأعوانهم؛ لبُعدهم عن الإسلام، وعدم استجابتهم لأوامر الله ونواهيه في سلوكهم. ثورات كانت روح كربلاء تلهب أكثر القائمين بها، وتدفعهم إلى الاستماتة في سبيل ما يرونه حقّاً.

ولقد تحطّمت دولة أُميّة بهذه الثورات، وقامت دولة العباسيِّين بوحي من الأفكار التي تُبشّر بها هذه الثورات، ولما تبيّن للناس أنّ العباسيين كمَنْ سبقهم لم يسكنوا بل ثاروا... واستمرت الثورات التي تقودها روح كربلاء بدون انقطاع ضدّ كلّ ظلم وطغيان وفساد.

انبعاث الروح النضاليّة

كانت ثورة الحسين عليه السلام السبب في انبعاث الرّوح النضالية في الإنسان المسلم من جديد بعد فترة طويلة من الهمود والتسليم، ولقد كانت الآفات النفسية والاجتماعيّة تحول بين الإنسان المسلم وبين أن يُناضل عن ذاته وعن إنسانيته، فجاءت ثورة الحسين عليه السلام وحطّمت كلّ حاجز نفسي واجتماعي يقف في وجه الثورة.

كان الإطار الديني الذي أحاط به الأمويّون حكمهم العفن الفاسد يحول بين الشعب وبين أن يثور، فجاءت ثورة الحسين عليه السلام وحطّمت هذا الإطار وكشفت الحكم الأموي على حقيقته، فإذا هو حكم جاهلي لا ديني، لا إنساني، تجب الثورة عليه وتحطيمه.

وكانت المسلّمات الأخلاقية تحول بين الإنسان المسلم وبين أن يثور، كانت قوانينه الأخلاقية تقول له: حافظ على ذاتك، حافظ على عطائك، حافظ على منزلتك الاجتماعيّة، فجاءت ثورة الحسين عليه السلام وقدّمت للإنسان المسلم أخلاقاً جديدة تقول له: لا تستسلم، لا تُساوم على إنسانيتك، ناضل قوى الشرّ ما وسعك، ضحِ بكلّ شيء في سبيل مبدئك.

كان الرضا عن النفس يحول بينه وبين أن يثور، ويغريه بالقعود عن النضال

فجاءت ثورة الحسين عليه السلام وخلّفت في أعقابها لجماهير كثيرة شعوراً بالإثم، وتأنيباً للنفس وبرماً بها، ورغبة عارمة في التكفير. كانت كلّ هذه الأسباب تحول بين الناس وبين الثورة، فجاءت ثورة الحسين عليه السلام ونسفت هذه الأسباب كلّها، وأعدّت الناس إعداداً كاملاً للثورة.

وللرّوح النضالية شأن كبير وخطير في حياة الشعوب وحكّامها؛ فحين تكون الرّوح النضالية هامدة، وحين يكون الشعب مُستسلماً لحكّامه يشعر حكّامه بالأمان فيفعلون كلّ شيء، ويرتكبون ما يشاؤون دون أن يحسبوا حساب أحد. هذا من جهة الحاكمين.

وأمّا المحكومون فتلاحظ أنّه كلّما امتد الزمن بهمود الرّوح النضالية سهل التسلّط على الشعب، واستشرت فيه روح التواكل والخنوع، واستمرأ الرضا بحياته القائمة، ولم يعُد بحيث يُرجى منه القيام بمحاولة جدّية لتطوير واقعه وإثبات وجوده أمام حاكميه، وهذا يجعل إصلاحه وتطويره أمراً بالغ الصعوبة.

ولقد كان الإمام علي عليه السلام حريصاً على أن تبقى روح النضال حيّة نامية في الشعب؛ لتبقى للشعب القدرة على الثورة حين تدعو الأحوال للثورة، وتشهد لذلك هذه الكلمة التي قالها وهو على فراش الموت، ومن جملة وصيته: « لا تُقاتلوا الخوارج بعدي؛ فليس مَنْ طلب الحقّ فأخطأه كمَنْ طلب الباطل فأدركه »[1]. معرّضاً بمعاوية بن أبي سفيان.

وعلّة هذا واضحة، فقد حارب هو الخوارج؛ لأنّهم تمرّدوا على حكم

---

(١) انظر: نهج البلاغة - الحكمة ٦١.

يتجاوب مع مصالح الشعب العليا، انسياقاً مع أفكار خاطئة وسخيفة، ولكن هذا لم يغيّر موقفهم من الحكم الأُموي الذي كانوا لا يزالون يرونه حكماً بغير حقّ، فكان يريد ألاّ يتكتّل المجتمع ضدّهم بعده؛ إذ سيُمكنهم سكون المجتمع عنهم من وخز الحكم الأُموي دائماً، وبذلك لا يخلو الجو تماماً للحكّام الأمويّين.

ولكن وصيته لم تُمتثل، فتكتّل المجتمع ضدّهم وحاربهم، ومع ذلك ظلّوا شوكة في جنب الحكم الأُموي دائماً، ولكنّهم لم يُؤثّروا فيه لأسباب تقدّم ذكرها.

* * *

ولكي نخرج بفكرة واضحة عن مدى تأثير ثورة الحسين عليه السلام في بعث روح الثورة في المجتمع الإسلامي، يحسن بنا أن نلاحظ أنّ هذا المجتمع أخلد إلى السكون عشرين عاماً كاملة قبل ثورة الحسين عليه السلام، لم يقم خلالها بأيّ ثورة على توفر الدواعي إلى الثورة خلال هذه الأعوام الطوال.

فمنذ قتل أمير المؤمنين علي عليه السلام، وغدا أمر الحكم للأُمويّين خالصاً، إلى حين ثورة الحسين عليه السلام لم يقم في هذا المجتمع أيّ احتجاج جدّي جماعي على ألوان الاضطهاد والتقتيل وسرقة أموال الأمّة التي كان يقوم بها الأُمويّون وأعوانهم، بل كان موقف السادة من هذه الأفاعيل هو إيجاد المبرّرات الدينية والسياسية، وكان موقف الجماهير هو موقف الخضوع والتسليم. عشرون عاماً على هذا المجتمع - من سنة أربعين إلى سنة ستين للهجرة - وهذه هي حالته.

وتغيّرت هذه الحالة بعد سنة ستين، بعد ثورة الحسين عليه السلام؛ فقد بدأ الشعب يثور، وبدأت الجماهير ترقب زعيماً يقودها، هي مستعدة للثورة وللتمرّد على الأُمويّين في كلّ حين، ولكنّها تحتاج إلى قائد، وكلّما وجد القائد وجدت الثورة على حكم الأُمويّين.

التمرّد الوحيد الذي كان يُصادفه الأمويّون طيلة هذه العشرين عاماً وعلى فترات متعاقبة هو تمرّد الخوارج، ولكنّه - كما قدّمنا - لم يكن مُتجاوباً مع المجتمع الإسلامي فلم يكن ناجحاً، وكانت السلطة تقمعه بجيوش تُؤلّفها من سكّان البلاد التي ينجم التمرّد فيها.

ولكن ما حدث بعد ثورة الحسين عليه السلام كان شيئاً آخر، كان تمرّداً يحظى بعطف المجتمع الإسلامي كلّه، مَنْ شارك فيه ومَنْ لم يشارك، وكانت أسبابه بعيدة عن تلك التي تدفع الخوارج إلى الثورة.

كانت أسباباً تنبع من واقع المجتمع؛ من الظلم والاضطهاد والتجويع، ولم يتمكّن الحكّام الأمويّون من قمع هذه الثورات بجيوش من سكّان المناطق الثائرة، فقد كانوا يعرفون أنّ ثمّة تجاوباً نفسياً بين الثائرين وبين القاعدين، فاضطروا إلى قمع هذه الثورات بجيوش أجنبية عن مناطق الثائرين، اضطروا إلى جلب جيوش سورية، وإقرار حاميات دائمة في مراكز الحكم.

هذه صورة مجملة لوضع المجتمع الإسلامي بعد ثورة الحسين عليه السلام فلنأخذ بشيء من التفصيل.

ثورة التوّابين

كان أوّل رد فعل مباشر لقتل الحسين (عليه السلام) هو حركة التوّابين في الكوفة، فلمّا قُتل الحسين (عليه السلام) ورجع ابن زياد مع معسكره بالنخيلة تلاقت الشيعة بالتلاؤم والتندّم، ورأت أنّها قد أخطأت خطأً كبيراً بدعاء الحسين (عليه السلام) إلى النصرة وتركهم إجابته، ومقتله إلى جانبهم ولم ينصروه، ورأوا أنّه لا يغسل عارهم والإثم عنهم في مقتله إلاّ بقتل مَنْ قتله أو القتل فيه.

ففزعوا بالكوفة غلى خمسة نفر من رؤوس الشيعة: سليمان بن صرد الخزاعي، والمسيب بن نجيّة الفزاري، وعبد الله بن سعد بن نفيل الأزدي، وعبد الله بن وائل التميمي، رفاعة بن شداد البجلي، فاجتمعوا، وبدأ المسيب بن نجيّة الكلام فقال: «... وقد كنّا مُغرمين بتزكية أنفسنا، وتقريظ شيعتنا حتّى بلا الله خيارنا فوجدنا كاذبين في موطنين من مواطن ابن بنت نبيّنا (صلى الله عليه وآله) ، وقد بلغتنا كتبه، وقدمت علينا رسله، وأعذر

إلينا يسألنا نصره، عوداً وبدءاً، وعلانية وسرّاً، فبخلنا عنه بأنفسنا حتّى قُتل إلى جانبا؛ لا نحن نصرناه بأيدينا، ولا جادلنا عنه بألسنتنا، ولا قوّيناه بأموالنا، ولا طلبنا له النصرة إلى عشائرنا، فما عذرنا عند ربّنا وعند لقاء نبيّنا؟ لا والله لا عذر دون أن تقتلوا قاتليه والموالين عليه، أو تُقتلوا في طلب ذلك؛ فعسى ربّنا أن يرضى عنّا عند ذلك ».

وتكلّم سليمان بن صرد الخزاعي - وقد جعلوه زعيماً لهم - فقال: « إنّا كنّا نمدّ أعناقنا إلى قدوم آل نبيّنا ونُمنّيهم النصر ونحثهم على القدوم، فلمّا قدموا ونينا وعجزنا وأدهنّا وتربصنا وانتظرنا ما يكون، حتّى قُتل فينا ولد نبيّنا وسلالته وبضعة من لحمه ودمه. ألا انهضوا قد سخط ربّكم، ولا ترجعوا إلى الحلائل والأبناء حتّى يرضى الله، وما أظنّه راضياً حتّى تُناجزوا مَنْ قتله أو تُبيروا، ألا لا تهابوا الموت؛ فوالله ما هابه امرؤ قطّ إلاّ ذلّ. كونوا كالأوّل من بني إسرائيل إذ قال لهم نبيّهم: (إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ) ».

وكتب سليمان بن صرد إلى سعد بن حذيفة بن اليمان ومَنْ معه من الشيعة بالمدائن يأمرهم فأجابوه إلى دعوته، وكتب إلى المثنى بن مخرمة العبدي في البصرة وللشيعة هناك فأجابوه إلى ذلك.

وكان أوّل ما ابتدؤوا به أمرهم بعد قتل الحسين عليه السلام سنة إحدى وستين، فما

زالوا بجمع آلة الحرب ودعاء الناس في السرّ إلى الطلب بدم الحسين عليه السلام، فكان يجيبهم القوم بعد القوم، والنفر بعد النفر من الشيعة وغيرها، فلم يزالوا كذلك [حتّى] مات يزيد، فخرجت طائفة دعاة يدعون الناس، فاستجاب لهم ناس كثير بعد هلاك يزيد أضعاف مَنْ كان استجاب لهم قبل ذلك.

وخرجوا يشترون السلاح ظاهرين، ويجاهرون بجهازهم وما يصلحهم، حتّى إذا كانت ليلة الجمعة لخمس مضين من شهر ربيع الآخر سنة خمس وستين خرجوا وتوجّهوا إلى قبر الحسين عليه السلام، فلمّا وصلوا إليه صاحوا صحية واحدة فما رُئي يوم أكثر باكياً منه، وقالوا: « يا ربّ، إنّا قد خذلنا ابن بنت نبيّنا فاغفر لنا ما مضى وتب علينا إنّك أنت التواب الرحيم، وارحم حسيناً وأصحابه الشهداء الصدّيقين، وإنّا نُشهدك يا ربّ إنّا على مثل ما قُتلوا عليه، فإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكوننّ من الخاسرين ».

وغادروا القبر مُستقتلين، فقاتلوا جيوش الأمويّين حتّى أُبيدوا جميعاً(1).

---

(1) انظر: تأريخ الطبري ٤/٤٢٦ - ٤٣٦ و٤٤٩ - ٤٧٣. سجل ثورة التوابين، والتي ظهرت سنة (٦١ هـ) وانتهت بالفشل سنة (٦٥ هـ)، وكان قائد النهضة يلقّب بشيخ الشيعة.

انظر: الصلة بين التصوّف والتشيّع ١/٢٢، وتأريخ العراق - للخربوطلي/١٢٣، وتأريخ العرب - فيليب حتّي ٢/٢٥٣، مروج الذهب ٣/١٠٠، تاريخ الطبري ٧/٤٦، ابن الأثير في الكامل ٤/٥٨، البلاذري في أنساب الأشراف ٥/٥١٠.

لقي التوابون الهزيمة في موقعة عين الوردة على يد الجيش الأُموي بقيادة عبيد الله بن زياد سنة ٦٥ هـ انظر: البداية والنهاية ٨/٣٢٢، نظم درر السمطين/٢١٩، المعجم الكبير ٣/١٢٥، مسند أبي يعلى ٥/٥٤، مجمع الزوائد ٩/١٩٦، فرق الشيعة/٢٤، تأريخ ابن الأثير ٤/٨٢ - ١٠٨، تاريخ الطبري ٧/١٤٦، الحور العين/١٨٢، الأخبار الطوال/٢٨٢، مروج الذهب ٣/٩٨، تأريخ الإسلام - للذهبي ٢/٣٦٩، المصنّف - للكوفي ٢/٥٥.

ولقد اعتبر التوابون أنّ المسؤول الأول والأهم عن قتل الحسين عليه السلام هو النظام وليس الأشخاص، وكانوا مُصيبين في هذا الاعتقاد؛ ولذا نراهم توجّهوا إلى الشام ولم يلقوا بالاً إلى مَنْ في الكوفة من قتلة الحسين عليه السلام.

ونلاحظ هنا أنّ هذه الثورة قد انبعثت عن شعور بالإثم والندم وعن رغبة في التكفير، فمَنْ يقرأ أقوالهم وكتبهم وخطبهم يلمس فيها الشعور العميق بالإثم والندم والرغبة الحارة في التكفير، وكونها صادرة عن هذه البواعث جعلها ثورة انتحارية استشهادية؛ فالثائرون هنا يريدون الانتقام والتكفير ولا يستهدفون شيئاً آخر وراء ذلك، فلا يريدون نصراً ولا ملكاً ولا مغانم، وإنّما يريدون انتقاماً فقط، وقد خرجوا من ديارهم وهم على مثل اليقين بأنّهم لا يرجعون إليها، كانوا يريدون أن يموتوا، ولقد بُذل لهم الأمان فلم يقبلوا(١).

وإذاً، فلم تكن لهذه الثورة أهداف اجتماعية واضحة ومُحدّدة، لقد كان الهدف الواضح منها هو الانتقام والتكفير. وإنّ الفقرة التي في صدر خطاب سليمان بن صرد لتصوّر لنا بدقة متناهية حالة المجتمع قبل ثورة الحسين عليه السلام وموقفه من الحركات الإصلاحية كما عكسه موقف هذا المجتمع من ثورة الحسين عليه السلام نفسها.

وإنّ الكلمات في هذه الفقرة لتكاد تختلج حياء بما تحمل من معاني الوني والعجز والإدهان والتربّص والخذلان، كما إنّ بقيّة الخطاب وسائر ما قيل في الحثّ على هذه الثورة يُصوّر كيف كانت ثورة الحسين عليه السلام بركاناً عصف بكلّ هذا الركام من معاني العجز والانهيار والتلوّن، وأحلّ محلّه الرغبة العارمة في الثورة والاستشهاد.

وقد رأيت فيما مرّ عليك من نصّ الطبري أنّ الاستجابة للثورة لم تقتصر على الشيعة وحدهم، بل شاركهم فيها

---

(١) انظر المصادر السابقة.

غيرهم ممّن يأملون تغيير الأوضاع عن طريق إزالة النير الأُموي بالثورة.

وكون هذه الثورة انتقامية انتحارية استشهادية لا هدف للقائمين بها إلاّ الانتقام والموت في سبيله يُفسّر لنا قلّة عدد المستجيبين لها إلى النهاية؛ فقد أحصى ديوان سليمان بن صرد ستة عشر ألف رجل لم يخرج معه منهم أربعة آلاف[1]، ولم يستجب للدعوة من المدائن إلاّ مئة وسبعون رجلاً، ومن البصرة إلاّ ثلاثمئة رجل[2]، فالعمل الانتحاري الاستشهادي لا يستهوي إلاّ أفراداً على مستوى عالٍ من التضحية [والتشبّع] بالمبدأ، وهؤلاء قلّة في كلّ زمان.

هذا، ولكنّ الإنصاف للواقع يقتضينا أن نسجّل أنّ هذه الثورة وإن كانت ثورة انتحارية استشهادية ولم تكن لها أهداف اجتماعية واضحة، إلاّ إنّها أثّرت في مجتمع الكوفة تأثيراً عميقاً؛ فقد عبّأت خطب قادات هذه الثورة وشعاراتهم الجماهير في الكوفة للثورة على الحكم الأُموي؛ ولذلك فلم يكد يبلغهم خبر هلاك يزيد حتّى ثاروا على العامل الأُموي عمرو بن حريث فأخرجوه من قصر الإمارة، واصطلحوا على عامر بن مسعود الذي بايع لابن الزّبير[3]، فكان ذلك مطلع العهد الذي زال فيه سلطان الأمويّين عن العراق إلى حين.

---

(١) انظر: تأريخ الطبري ٤/٤٥٢.

(٢) انظر: تأريخ الطبري ٤/٤٦٦.

(٣) انظر: تأريخ الطبري ٤/٤٠٤.

ثورة المدينة

وكانت ثورة المدينة ردّ فعل آخر لمقتل الحسين عليه السلام، إلاّ إنّنا هنا نشاهد لوناً آخر من الثورات، ثورة تختلف عن ثورة التوابين في الدوافع والأهداف. لقد كانت الدوافع إلى هذه الثورة شيئاً غير الانتقام، كانت ثورة تستهدف تقويض سلطان الأُمويّين الظالم الجائر البعيد عن الدين.

وما نشكّ في أنّ شُعلة هذه الثورة كانت مُتأجّجة ولكنّها كانت تبحث عن مُبرّر للانفجار، والذي أجّج شُعلة الثورة أسباب منها مقتل الحسين عليه السلام ولعلّه كان أهمّها؛ فإنّ زينب بنت علي عليهما السلام دأبت بعد وصولها إلى المدينة على العمل للثورة، وعلى تعبئة النفوس لها، وتأليب الناس على حكم يزيد، حتّى لقد خاف عمرو بن سعيد الأشدق والي يزيد على المدينة انتقاض الأمر، فكتب إلى يزيد عن نشاطها كتاباً قال فيه: إنّ وجودها بين أهل المدينة مُهيّج للخواطر، وإنّها فصيحة عاقلة لبيبة، وقد عزمت هي ومَنْ معها على القيام للأخذ بثأر الحسين.

فأتاه كتاب يزيد بأن يُفرّق بينها وبين الناس[1].

---

(١) انظر: زينب الكبرى - جعفر النقدي/١٢٠ - ١٢٢ نقلاً عن النسابة العبيدلي في (أخبار الزينبات)، والدكتورة بنت الشاطئ في كتابها بطلة كربلاء.

وقد كان السبب المباشر لاشتعال الثورة هو وفد أهل المدينة إلى يزيد؛ فقد أوفد عثمان بن مُحَمَّد بن أبي سفيان والي المدينة إلى زيد وفداً من أهلها فيهم عبد الله بن حنظلة الأنصاري غسيل الملائكة، وعبد الله بن أبي عمرو بن حفص بن المغيرة المخزومي، والمنذر بن الزّبير، ورجالاً من أشراف أهل المدينة، فقدموا على يزيد فأكرمهم وأحسن إليهم وأعظم جوائزهم، فلمّا رجعوا قدموا المدينة كلّهم إلاّ المنذر بن الزّبير؛ فإنّه قدم العراق.

فلمّا قدم أُولئك النفر الوفد المدينةَ قاموا في أهل المدينة وأظهروا شتم يزيد وعيبه، وقالوا: قدمنا من عند رجل ليس له دين؛ يشرب الخمر، ويضرب بالطنابير، ويعزف عنده القيان، ويلعب بالكلاب، ويسعر عنده الحراب - وهم اللصوص - وإنّا نشهدكم أنّا قد خلعناه.

وقام عبد الله بن حنظلة الغسيل، فقال: جئتكم من عند رجل لو لم أجد إلاّ بنيّ هؤلاء لجاهدته بهم، وقد أعطاني وأكرمني وما قبلت عطاءه إلاّ لأتقوى به. فخلعه الناس وبايعوا عبد الله بن حنظلة الغسيل على خلع يزيد وولّوه عليهم.

وأمّا المنذر بن الزّبير فقدم المدينة فكان ممّن يُحرّض الناس على يزيد، وقال: « إنّه قد أجازني بمئة ألف، ولا يمنعني ما صنع بي أن أخبركم خبره وأصدقكم عنه؛ والله إنّه ليشرب الخمر، والله إنّه ليسكر حتّى يدع الصلاة ».

وعابه بمثل ما عابه به أصحابه وأشدّ.

وثارت المدينة على الحكم الأُموي، وطرد الثائرون عامل يزيد والأُمويِّين، وقدرهم ألف رجل، ولم ينفع الوعد ولا الوعيد في ردّهم عن ثورتهم، فقُمعت الثورة بجيش من الشام بوحشيّة متناهية، ودعا القائد الأُموي مسلم بن عقبة المرّي لبيعة يزيد بن معاوية كما نقل الطبري وغيره: دعا الناس للبيعة على أنّهم خول ليزيد بن معاوية، يحكم في دمائهم وأموالهم وأهليهم ما شاء[1].

* * *

وهلك يزيد، وقد باشر جيشه بقمع ثورة ابن الزّبير في مكة بعد أن فرغ من قمع ثورة المدينة، وكان ابن الزّبير قد أعلن الخلاف بعد ما بلغه مقتل الحسين عليه السلام، ولا يمكن أن نعتبر ثورة ابن الزّبير امتداداً لثورة الحسين عليه السلام؛ فقد كان ابن الزّبير يعد العدّة للثورة قبل مقتل الحسين عليه السلام، وكانت أطماعه الشخصيّة في الحكم هي بواعثه على الثورة، وكان يرى في الحسين عليه السلام منافساً خطيراً كما عرفت.

فلمّا بلغ خبر مقتل الحسين عليه السلام أهل مكة وثب إليه أصحابه وقالوا: أظهر بيعتك؛ فإنّه لم يبقَ أحد إذ هلك الحسين ينازعك الأمر، ولكنّه قال لهم: لا تعجلوا. حتّى إذا كانت سنة خمس وستين بُويع له في الحجاز والعراق، والشام والجزيرة[2].

وما نشكّ في أنّ استجابة الناس للثورة التي دعا لها ابن الزّبير كان مبعثها

---

(١) انظر: تأريخ الطبري « ثورة المدينة » ٤/٣٦٦ - ٣٨١ و١٣/٧، الفتوح - لابن أعثم ٥/٣٠٠، التنبيه والأشراف/٦٤، ومروج الذهب ٧١/٣، وطبقات ابن سعد ٢١٥/٥، فتح الباري ٧٠/١٣، كتاب المحن ١٥٥/١.

(٢) انظر المصادر السابقة.

هذه الروح الجديدة التي بثّتها ثورة الحسين عليه السلام الدامية في نفوس الجماهير، وقد مرّ عليك آنفاً كيف أثّر التوابون في الكوفة على الحكم الأُموي بحيث أعدّوا الناس لتقبّل حكم ابن الزّبير وطرد عامل بني أُميّة على العراق.

ثورة المختار الثقفي

ودخلت سنة ست وستين للهجرة، فثار المختار بن أبي عبيدة الثقفي بالعراق طالباً ثأر الحسين عليه السلام . ولكي نعرف السرّ في استجابة جماهير العراق لابن الزّبير أوّل الأمر ثمّ انقلابها عليه واستجابتها لدعوة المختار، لا بدّ أن نلاحظ أنّ مجتمع العراق كان يطلب إصلاحاً اجتماعياً، وكان يطلب الثأر من الأمويّين وأعوانهم؛ وعلى أمل الإصلاح الاجتماعي والانتقام استجاب مجتمع العراق لابن الزّبير، فهو عدو الأمويّين من جهة، وهو يتظاهر بالإصلاح والزهد والرغبة عن الدنيا من جهة أُخرى، فلعلّ سلطانه أن يُحقّق كلا الأمرين.

ولكنّ سلطان ابن الزّبير لم يكن خيراً من سلطان الأمويّين؛ لقد أخرج العراق عن سلطانهم، ولكن قاتلي الحسين عليه السلام كانوا مُقرّبين إلى السلطة كما كانوا في عهد الأمويّين.

إنّ شمر بن ذي الجوشن، وشبث بن ربعي، وعمر بن سعد، وعمرو بن الحجّاج، وغيرهم كانوا سادة المجتمع في ظلّ سلطان ابن الزّبير، كما كانوا سادته في ظلّ سلطان يزيد. كما إنّه لم يُحقّق لهم العدل الاجتماعي الذي يطلبونه، لقد كانوا يحنّون إلى

سيرة علي بن أبي طالب عليه السلام فيهم، هذه السيرة التي حقّقت لهم أقصى ما يمكن من رفاه وعدل.

هذا عبد الله بن مطيع العدوي عامل ابن الزّبير على الكوفة يقول للناس إنّه أمر أن يسير بسيرة عمر وعثمان، فيقول له المتكلّم بلسان أهل الكوفة: «... أمّا حمل فيئنا برضانا فإنّا نشهد أنّا لا نرضى أن يُحمل عنّا فضله، وألاّ يُقسم إلاّ فينا، وأن لا يُسار فينا إلاّ بسيرة علي بن أبي طالب التي سار بها في بلادنا هذه، ولا حاجة لنا في سيرة عثمان في فيئنا ولا في أنفسنا، ولا في سيرة عمر بن الخطّاب فينا وإن كانت أهون السيرتين علينا »[١].

كان هذا أو ذاك سبباً في انخذال الناس عن ابن الزّبير وتأييدهم لثورة المختار عليه، ولقد ربط المختار دعوته بمحمد بن الحنفيّة بن علي بن أبي طالب عليهما السلام، وهذا ما جعلهم يطمئنون إلى عدل السيرة والإصلاح، لقد جعل شعاره « يا لثارات الحسين » وهذا يُحقّق لهم الهدف الثاني.

ولقد حارب عبد الله بن مطيع عامل ابن الزّبير في الكوفة الثائرين مع المختار بالرجال الذين تولّوا قتل الحسين عليه السلام. لقد حاربهم بشمر بن ذي الجوشن، وعمرو بن الحجّاج، وشبث بن ربعي وأمثالهم، وكان هذا كافياً في حفز الثائرين على المضي في ثورتهم والتصميم على النصر.

وقد أنصف المختار عندما تولّى الحكم طبقة في المجتمع الإسلامي كانت مُضطهدة في عهد الأُمويّين واستمر اضطهادها في عهد ابن الزّبير، وهي طبقة

---

(١) انظر: أنساب الأشراف ٥/٢٢٠ - ٢٢١.

الموالي « المسلمين غير العرب »، فقد كانت عليهم واجبات المسلمين ولم تكن لهم حقوقهم، فلمّا استتب الأمر للمختار أنصفهم فجعل لهم من الحقوق مثل ما لغيرهم من عامّة المسلمين.

وقد أثار هذا العمل الأشراف وسادة القبائل فتكتّلوا ضدّ المختار، وتآمروا عليه، وأجمعوا على حربه، وكان على رأس هؤلاء المتمردين قتلة الحسين عليه السلام، ولكنّهم فشلوا في حركتهم[1].

وكانت حركة التمرّد هذه سبباً في حفز المختار على التعجيل بتتبع قتلة الحسين عليه السلام وآله في كربلاء وقتلهم؛ فقتل منهم في يوم واحد مئتين وثمانين رجلاً[2]، ثمّ تتبعهم فقتل كثيراً منهم، ولم يفلت من زعمائهم أحد؛ فقتل شمر بن ذي الجوشن، وعمر بن سعد، وعمرو بن الحجّاج، وشبث بن ربعي، وغيرهم[3].

---

(١) انظر: تأريخ الطبري ٤/٥١٧.

(٢) انظر: تأريخ الطبري ٤/٤٢٤.

(٣) انظر: تأريخ الطبري « ثورة المختار » ٤/٤٨٧ - ٥٧٧.

ثورة مطرف بن المغيرة

وفي سنة ٧٧ للهجرة ثار مطرف بن المغيرة بن شعبة على الحجّاج بن يوسف وخلع عبد الملك بن مروان. كان هذا الرجل والياً للحجّاج على المدائن، وكان حيّ الضمير، فلم يعمِ عينيه السلطان الذي حباه به الأُمويّون عن إدراك الظلم الفادح الذي ينزلونه بالأمّة المسلمة، وقد اتصل به دعاة الخوارج فأرادوه على أن ينظمّ إليهم ويسلّم بإمرة المؤمنين لزعيمهم شبيب، وأرادهم على أن ينظمّوا إليه ليعيدوا الأمر شورى في المسلمين، فأبى وأبوا، واستشار نصحاءه في الثورة فلم ينصحه بها أحد منهم، ولكنّه ثار بمَنْ أجابه.

وكلّم رؤوس أصحابه، فقال: « أمّا بعد، فإنّ الله كتب الجهاد على خلقه، وأمر بالعدل والإحسان، وقال: فيما أنزل علينا: ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾[1]، وإنّي أُشهد الله أنّي خلعت عبد الملك بن مروان والحجّاج بن يوسف، فمَنْ أحبّ منكم صحبتي

---

(١) سورة المائدة/٢.

وكان على مثل رأيي فليبايعني؛ فإنّ له الأسوة وحُسن الصحبة، ومَنْ أبى فليذهب حيث شاء؛ فإنّي لست أحبّ أن يتبعني مَنْ ليس له نيّة في جهاد أهل الفجور. أدعوكم إلى كتاب الله وسنّة نبيّه وإلى قتال الظلمة، فإذا جمع الله لنا أمرنا كان هذا الأمر شورى بين المسلمين يرتضون لأنفسهم مَنْ أحبّوا ».

وكتب إلى سويد بن سرحان الثقفي وبُكير بن هارون البجلي: « أمّا بعد، فإنّا ندعوكم إلى كتاب الله وسنّة نبيّه، وإلى جهاد مَنْ عَنِدَ عن الحقّ، واستأثر بالفيء، وترك حكم الكتاب، فإذا ظهر الحقّ ومنع الباطل، وكانت كلمة الله هي العليا، جعلنا هذا الأمر شورى بين الأمّة؛ يرتضي المسلمون لأنفسهم الرضا، فمَنْ قبل هذا منّا كان أخانا في ديننا، وولّينا في محيانا ومماتنا، ومَنْ ردّ ذلك علينا جاهدناه واستنصرنا الله عليه »[1].

هذا هو منهج ثورة مطرف، وفيه عبير من روح كربلاء.

---

(١) انظر: تاريخ الطبري ٥١٧/٤ « ثورة مطرف ».

وفي سنة ٨١ للهجرة ثار عبد الرحمن بن مُحَمَّد بن الأشعث على الحجّاج وخلع عبد الملك بن مروان. وسبب هذه الثورة التي هزّت الحكم الأموي على حدّ تعبير ولهاوزن[١] هو الفتوح الاستعمارية التي أدرك الشعب أنّها ليست في مصلحته؛ فقد أرسل الحجّاج عبد الرحمن إلى سجستان على رأس جيش عراقي في الوقت الذي كان جيش الشام الذي قضى على حركة الخوارج لا يزال مرابطاً في العراق[٢]، وقد أبدى عبد الرحمن مهارة عسكرية فائقة؛ ففتح قسماً من البلاد[٣]، فكتب إلى الحجّاج يُعرّفه ذلك، وأنّ رأيه أن يتركوا التوغّل في بلاد رتبيل حتّى يعرفوا طريقها ويجبوا خراجها.

فكتب إليه الحجّاج يوبّخه على ذلك، ويتّهمه بالعجز، ويأمره بالتوغّل، وكتب إليه بذلك ثانياً وثالثاً. وعرض عبد الرحمن على جنوده أمر الحجّاج بعد أن بيّن لهم رأيه الذي

(١) انظر: الدولة العربيّة/١٩٠.

(٢) انظر: الدولة العربيّة/٢٠٢.

(٣) انظر: الدولة العربيّة/١٩٠.

استقر عليه بعد أن استشار قوّاده وأُمراء جنده، ثمّ قال: وإنّما أنا رجل منكم؛ أمضي إذا مضيتم، وآبى إذا أبيتم. فثار إليه الناس وقالوا: بل نأبى على عدوّ الله، ولا نسمع له ولا نطيع.

وقام أبو الطفيل عامر بن واثلة الكناني[1]، وله صحبة، فقال: أمّا بعد، فإنّ الحجّاج يرى بكم ما رأى القائل الأوّل:

---

(١) هو الصحابي أبو الطفيل عامر بن واثلة، القائل له معاوية: ألست من قتلة عثمان؟

قال أبو الطفيل: لا، ولكنّي لم أنصره.

قال معاوية: وما منعك من نصره؟

قال: لم ينصره المهاجرون والأنصار.

قال معاوية: كان حقّاً واجباً عليهم أن ينصروه.

قال له أبو الطفيل: وما منعك أن تنصره ومعك أهل الشام؟

قال معاوية: أما طلبي بدمه فنصرة له.

فضحك أبو الطفيل وقال: أنت وعثمان كما قال الشاعر:

لا ألفينّكَ بعدَ الموتِ تندبني وفي حياتيَ ما زوّدتني زادا

يُنسب هذا الشعر إلى عبيد الله بن الأبرص، والقصّة بذاتها هكذا: قدم أبو الطفيل يوماً على معاوية فقال له: كيف وجدك على خليلك أبي الحسن؟ قال: كوجد أُمّ موسى لموسى، وأشكو إلى الله التقصير.

فقال معاوية: وكنت فيمَنْ حصر عثمان؟ قال: لا، ولكنّي فيمَنْ حضره.

قال: فما منعك من نصره... إلخ. ثم قال له: أنت وعثمان كما قال الشاعر.

انظر: تأريخ الخلفاء/١٣٣، الاستيعاب ١٦٩٦/٤، الإمامة والسياسة ٢١٥/١، مروج الذهب، ولكن نسب الشعر إلى النابغة الجعدي. ديوان عبيد/٦٣، الشعر والشعراء/٢٦٩، الأغاني ٨٩/١٩، الإصابة ٤١٥/١، تأريخ ابن عساكر ١١٦/٢٦، الطبقات الكبرى ١٦٣/٣، فصل المقال/٢٤١ الطبعة الثانية. وانظر: كتاب العقاد الموسوم بـ (معاوية بن أبي سفيان)/١٠٠، طبع بمطابع مؤسسة دار الهلال.

احمل عبدك على الفرس، فإن هلك هلك، وإن نجا فلك.

إنّ الحجّاج ما يبالي أن يُخاطر بكم فيُقحمكم بلاداً كثيرة، ويغشي اللهوب واللصوب؛ فإن غنمتم وظفرتم أكل البلاد وحاز المال، وكان ذلك زيادة في سلطانه، وإن ظفر عدوّكم بكم كنتم أنتم الأعداء البُغضاء الذين لا يُبالي عنتهم. اخلعوا عدوّ الله الحجّاج وبايعوا الأمير عبد الرحمن، فإنّي أُشهدكم أنّي أوّل خالع. فنادى الناس من كلّ جانب: فعلنا، فعلنا، قد خلعنا عدوّ الله.

وقال عبد المؤمن بن شبث بن ربعي: « عباد الله، إنّكم إن أطعتم الحجّاج جعل هذه البلاد بلادكم، وجمركم تجمير فرعون الجنود. ولن تعاينوا الأحبّة أو يموت أكثركم فيما أرى، فبايعوا أميركم، وانصرفوا إلى عدوّكم الحجّاج فانفوه عن بلادكم ».

فوثب الناس إلى عبد الرحمن فبايعوه على خلع الحجّاج ونفيه من أرض العراق، وقفلوا راجعين، حتّى إذا بلغوا فارس خلعوا عبد الملك على كتاب الله وسنّة نبيّه، وعلى جهاد أهل الضلالة وخلعهم، وجهاد المحلّين.

فلمّا بلغ البصرة بايعه جميع أهلها وقرّائها وكهولها، مُستبصرين في قتال الحجّاج ومَنْ معه من أهل الشام وخلع عبد الملك. وسبب إسراع أهل البصرة إلى مساندة الثورة هو الظلم والجوع؛ فقد كتب عمّال الحجّاج إليه أنّ الخراج قد انكسر، وأنّ أهل الذمّة قد أسلموا ولحقوا بالأمصار.

فكتب إلى البصرة وغيرها: مَنْ كان له أصل في قرية فليخرج إليها، فخرج الناس فعسكروا، فجعلوا يبكون

وينادون: يا مُحَمَّداه! يا مُحَمَّداه! وجعلوا لا يدرون أين يذهبون، فجعل قرّاء أهل البصرة يخرجون إليهم مُتقنّعين فيبكون لما يسمعون منهم ويرون، فقدم ابن الأشعث على مجتمع معبّأ ينتظر قائداً، فاستجاب المجتمع هذه الاستجابة السريعة، واستبصر قرّاء البصرة في قتال الحجّاج مع عبد الرحمن بن الأشعث.

وقد استمرت هذه الثورة من سنة ٨١ هـ إلى سنة ٨٣ هـ، وأحرزت انتصارات عسكرية، ثمّ قضى عليها الحجّاج بجيوش سورية[١].

هذه هي ثورة عبد الرحمن بن الأشعث، وهي ثورة قام بها العرب ولم يقم بها الموالي. قام بها العرب العراقيون الذين ساءت حالتهم الاقتصادية إلى حدّ مروّع، والذين استُخدموا في الفتوح الاستعمارية دون أن يحصلوا على غنائمها، والذين كان عليهم أن يُحاربوا مقابل جرايات ضئيلة لا تكفي، بينما يفوز بالمغانم والأعطيات الكثيرة الجنود السوريون الذين تركهم الحجّاج في العراق؛ ليستعين بهم على قمع الثورات التي يقوم بها العراقيون[٢].

---

(١) انظر: تأريخ الطبري « ثورة ابن الأشعث ».

(٢) كتب ولهاوزن عن هذه الثورة بوعي وفهم. راجع الدولة العربيّة/١٨٩ - ٢٠٣.

ثورة زيد بن علي بن الحسين عليهما السلام

وفي سنة ١٢١ هـ تهيّأ زيد بن علي بن الحسين عليهما السلام[1] للثورة في الكوفة، وثار في سنة ١٢٢ هـ. وخُنقت الثورة في مهدها بسبب الجيش الأُموي الذي كان مُرابطاً

---

(١) ينتسب عليه السلام من قبل أبيه إلى الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، ابن عمّ الرسول صلى الله عليه وآله، وإلى فاطمة الزهراء البتول بنت رسول الله عليها السلام، فهو إذاً ذو نسب رفيع شريف لا يساويه ولا يدانيه نسب؛ فوالده علي زين العابدين عليه السلام الذي كان يلهج بذكر الله، وكان ورعاً تقياً كثير العبادة حتّى سُمّي زين العابدين لكثرة عبادته.

انظر: تأريخ الطبري ٢٦٠/٨، خطط المقريزي ٣٠٧/٤، ينابيع المودّة ١٠٥/٣ طبعة أسوة، الصواعق المحرقة - لابن حجر/٢٠٠، تهذيب التهذيب - للعسقلاني ٣٠٦/٧، شدرات الذهب - لابن العماد ١٠٤/١.

وقد ترعرع الإمام زيد عليه السلام بعد استشهاد أبيه عليه السلام في كنف العلم، ونبل الهداية، وشدّة الإباء، والشرف الهاشمي، ألا وهو أخوه الإمام محمّد الباقر عليه السلام، باقر علوم الأولين والآخرين، ومَنْ هو في زهده وورعه وتقواه ليس له نظير؛ لذا يتّضح أنّ زيداً عليه السلام نشأ في أعرق بيوتات العلم والزهد والتقوى؛ حيث ترعرع في كنف الإمام علي بن الحسين، ومحمّد الباقر عليهما السلام، فأخذ عنهما معالم الإمامة والقيادة قبل فيض الأبوّة وسداد الأُخوّة.

انظر: الروض النضير شرح مجموع الفقه الكبير - لشرف الدين الحسين بن أحمد بن صالح السّياغي ٧٧/١، التحفة الاثني عشرية (مخطوط)، حياة الإمام زيد. انظر: تأريخ الطبري ١٩٤/٨، سر السلسلة العلوية (مخطوط)، حياة الإمام زيد. =

في العراق.

(يا أهل الكوفة، اخرجوا من الذلّ إلى العزّ، أُخرجوا إلى الدين والدنيا؛ فإنّكم لستم في دين ولا دنيا[*]...)[١].

ويبدو أنّ الدعوة إلى الثورة لقيت استجابة واسعة من الجماهير المسلمة في أقطار كثيرة من بلاد الإسلام؛ فقد بويع زيد على الثورة في الكوفة والبصرة، وواسط والموصل، وخراسان والرّي وجرجان. ولقد كان حريّاً بثورته أن تنجح لولا اختلال التوقيت؛ فقد حدث ما دفع زيداً إلى إعلان الثورة قبل الموعد الذي بينه وبين أهل الأمصار[٢].

وقد تكوّن بفضل هذه الثورة جهاز ثوري دائم على استعداد للمساهمة في كلّ عمل ثوري ضدّ السلطة، وهو طائفة الزيدية الذين يرون أنّ الإمام المفترض الطاعة هو كلّ قائم بالسيف ذوداً عن الدين ضدّ الظالمين.

قال ولهاوزن:

= اختلفت الروايات في سنة ولادته عليه السلام، قيل: إنّه ولد بالمدينة المنوّرة بعد طلوع الفجر سنة (٦٦ أو ٦٧ من الهجرة)، وقيل: (سنة ٧٥ هـ)، وقيل: (سنة ٧٨ هـ)، وقيل: (سنة ٨٠ هـ). انظر: الحدائق الوردية في مناقب الأئمّة الزيدية - لأبي عبد الله حميد بن أحمد المحلي التميمي الوادعي ١/١٤٣، ومخطوطة مكتبة آل كاشف الغطاء برقم « ٧١٣ ».

انظر: تأريخ ابن عساكر ٦/١٨، انظر: تهذيب التهذيب ٢/٢٤٤، بغية الطالب ٩/٤٠٢٧، الوافي الوفيات ١٥/٣٣/مقاتل الطالبيّين/١٢٧، سير أعلام النبلاء ٥/٣٨٩، تأريخ مدينة دمشق ١٩/٤٥٠، تاريخ الكوفة/٣٢٧، فوات الوفيات ١/١٦٤، تأريخ الطبري ٨/٢٦٠، تأريخ اليعقوبي ٣/٦٦، وكتابنا، الزيدية بين الإمامية وأهل السنة.

(*) هكذا وردت هذه الفقرة هنا، ويبدو أن هناك حلقة مفقودة وقعت سهواً من قِبل الناسخ، وإلاّ فاقحامها في هذا المكان بيّن الغرابة. **(موقع معهد الإمامين الحسنين)**

(١) انظر: تأريخ الطبري ٤/٢٠٥، أنساب الأشراف ٣/٢٠٣، البداية والنهاية ٩/٣٣٠، الكامل في التأريخ ٤/٢٤٧.

(٢) انظر: مقاتل الطالبيّين/١٣٥ - ١٣٦.

« ولئن كان عُصيان زيد قد انتهى انتهاء مُفجعاً فإنّه مُهمّ؛ ذلك أنّ ثورات الشعب التي حدثت بعده والتي أدّت إلى انهيار دولة دمشق انهياراً نهائياً كانت ذات علاقة بها، وسرعان ما ظهر أبو مسلم بعد وفاة يحيى آخذاً بثأره، قاتلاً قتلته »[1].

وهذا يبرز بوضوح عظيم تأثير ثورة الحسين عليه السلام في تغذية الرّوح الثورية ومدّها بالعطاء، فما ثورة زيد إلاّ قبس من ثورة جدّه في كربلاء.

(١) انظر: الدولة العربيّة/٢٧١.

ثورة أبي السرايا

هذه نماذج للرّوح الثورية التي بثّتها ثورة الحسين عليه السلام في الشعب المسلم، فقضت بذلك على روح التواكل والخنوع والتسليم للحاكمين، وجعلت من الشعب المسلم قوّة معبّأة وعلى أهبة الانفجار دائماً.

ولقد استمرت طيلة الحكم الأُموي ضدّ هذا الحكم حتّى قضت عليه بثورة العباسيّين، هذه الثورة التي لم تكن لتنجح لو لم تعتمد على إيحاءات ثورة كربلاء، وعلى منزلة الثائرين في كربلاء في نفوس المسلمين. ولم تُبدّل هذه الثورة كثيراً من واقع الشعب المسلم، بل لعلّنا لا نعدوا الحقّ إذا قلنا أنّها لم تُبدل شيئاً سوى وجوه الحاكمين. ولكن هذا لم يخمد الرّغبة في الثورة بقدر ما كان حافزاً عليها، فاستمرت الثورات على حالتها ومضى العباسيّون وجاءت دول بعدهم.

ولم تخمد الثورات بل بقيت ناشبة أبداً، يقوم بها الإنسان المسلم دائماً، فيُعبّر بها عن إنسانيته التي خنقها الحاكمون وزيّفوها. ولقد كانت هذه الثورات كما رأينا صادرة عن وعي للواقع، وإحساس بانحطاطه وقسوته، واحتجاج عليه ومحاولة لتطويره.

حدث هذا في ظلّ الحكم الأُموي وقد رأيت بعض نماذجه، وحدث في ظلّ

الحكم العباسي أيضاً.

ونضرب مثلاً بثورة أبي السرايا مع مُحَّد بن إبراهيم بن طباطبا العلوي الحسني على المأمون(١).

كان مُحَّد بن إبراهيم هذا يمشي في بعض طريق الكوفة إذ نظر إلى عجوز تتبع أحمال الرطب فتلقط ما يسقط منها فتجمعه في كساء عليها رثّ، فسألها عمّا تصنع بذلك، فقالت: إنّي امرأة لا رجل لي يقوم بمُؤنتي، ولي بنات لا يعدنَ على أنفسهنَّ بشيء، فأنا أتتبع هذا من الطريق وأتقوّته أنا وولدي. فبكى بكاءً شديداً، وقال: « أنتِ وأشباهك تُخرجوني غداً حتّى يُسفك دمي. ونفذت بصيرته في الخروج »(٢).

فلمّا أعلن أمره خطب الناس ودعاهم إلى البيعة، وإلى الرضا من آل مُحَّد، والدعاء إلى كتاب الله وسنّة نبيّه صلى الله عليه وآله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والسيرة بحكم الكتاب، فبايعه جميع الناس حتّى تكابسوا وازدحموا عليه(٣).

ومات إبراهيم بن مُحَّد بعد نشوب الثورة بقليل فلم تخمد، وإنّما قام عليها من بعده علي بن عبيد الله العلوي(٤).

---

(١) هو مُحَّد بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليهم السلام والذي اشتهر باسم (ابن طباطبا). انظر: الإفادة في تاريخ الأئمّة السادة/١٠٨، الكامل في التأريخ ٦/٨٢.

(٢) انظر: مقاتل الطالبيّين/٥٢١.

(٣) انظر: مقاتل الطالبيّين/٥٢٣.

(٤) انظر: مقاتل الطالبيّين/٥٣١.

وشملت الثورة العراق والشام، والجزيرة واليمن[١].

ونقرأ عن هذه الثورة فنعجب بأخلاق الثائرين الجياع، وبضبطهم لأنفسهم؛ لقد أمسك هؤلاء الثائرون عن النهب والسلب بعد أن هزموا عدوّهم واستولوا على حصنه بمجرد أن أمرهم قائدهم بأن يُمسكوا[٢].

وأقبل أهل بغداد - جنود السلطة - يصيحون: « يا أهل الكوفة، زينوا نساءكم وأخواتكم وبناتكم للفجور، والله لنفعلنّ [بهن] كذا وكذا. ولا يُكنون. والثائرون يذكرون الله ويقرؤون القرآن، وقائدهم يقول لهم: اذكروا الله وتوبوا إليه، واستغفروه واستعينوه. صحّحوا نيّاتكم وأخلصوا الله ضمائركم، واستنصروه على عدوّكم، وابرؤوا إليه من حولكم وقوّتكم »[٣].

---

(١) انظر: مقاتل الطالبيّين/٥٣٣.

(٢) انظر: مقاتل الطالبيّين/٥٢٥.

(٣) انظر: مقاتل الطالبيّين/٣٥٠ و٢٢٦.

ماذا أفادت الأُمّة من انبعاث الروح النضاليّة؟

وقد يقول قائل إنّ الرّوح النضالية التي بعثتها ثورة الحسين عليه السلام في الشعب المسلم لم تطوّر واقع هذا الشعب بواسطة الثورات التي أشعلتها. لقد كانت الثورات تنشب دائماً، ولكنّها تخفق دائماً ولا تسوق إلى الشعب إلاّ مزيداً من الضحايا ومزيداً من الفقر والإرهاب.

وتقول: نعم، إنّها لم تطوّر واقع هذا الشعب تطويراً آنيّاً، ولم تقدّم في الغالب أيّة نتائج ملموسة، ولكنّها حفظت للشعب إيمانه بنفسه وبشخصيته وبحقّه في الحياة والسيادة وهذا نصر عظيم.

إنّ أخطر ما يُبتلى به شعب هو أن يُقضى على روح النضال فيه، إنّه حينئذ يفقد شخصيته ويذوب في خضمّ الفاتحين كما قدّر لشعوب كثيرة أن تضمحلّ وتذوب وتفقد كيانها؛ لأنّها فقدت روح النضال، ولأنّها استسلمت وفقدت شخصيتها ومقوّمات وجودها المعنوي فأذابها الفاتحون.

إنّ هذه الشعوب التي لم يحفظ لنا التأريخ إلاّ أسماءها لم تأت من ضعفها العسكري أو الاقتصادي، وإنّما أُتيت من فلسفة الهزيمة والتواكل والخنوع التي وجدت سبيلها إلى النفوس بعد أن خبت روح النضال في هذه النفوس.

ولو أنّها بقيت مؤمنة بشخصيتها وثقافاتها ومقوّماتها، ولو احتفظت بروح النضال حيّة في أعماقها لما استطاع الغزاة إبادتها، ولشقّت لنفسها طريقاً جديداً في التأريخ. وهذا ما حقّقته ثورة الحسين عليه السلام. لقد أجّجت ثورة الحسين عليه السلام تلك الرّوح التي حاول الأُمويّون إخمادها، وبقيت مستترة تعبّر عن نفسها دائماً في انفجارات ثورية عاصفة ضدّ الحاكمين مرّة هنا ومرّة هناك.

وكانت الثورات تفشل دائماً ولكنّها لم تخمد أبداً؛ لأنّ الرّوح النضالية كانت باقية تدفع الشعب المسلم إلى الثورة دائماً، إلى التمرّد، وإلى التعبير عن نفسه قائلاً للطغاة: إنّي هنا.

حتى جاء العصر الحديث وتعدّدت وسائل إخضاع الشعوب، وحُكم الشعب المسلم بطغمة لا تستوحي مصالحه، وإنّما تخدم مصالح آخرين، ومع ذلك لم يهدأ الشعب ولم يستكن، ولم تفلح في إخضاعه وسائل القمع الحديثة، وإنّما بقي ثائراً معبّراً عن إنسانيته دائماً بالثورة، بالدم المسفوح. وهكذا أثبتت الأُمّة الإسلاميّة وجودها ولم يجرفها التاريخ، وإنّما بقيت لتصنع التاريخ. هذا صنيع ثورة الحسين عليه السلام. لقد كانت هذه الثورة رأس الحرية في التطوّر.

إنّ الأفكار والمشاعر والرّوح التي خلقتها هذه الثورة، والتي نمّتها وأثرتها الثورات التي جاءت بعدها، والتي هي امتداد لها، هي التي صنعت تاريخ الكفاح الدامي من أجل التحرر لهذه البقعة من العالم. ولا ندري تماماً ماذا كان سيحدث لو لم يقم الحسين عليه السلام بثورته هذه.

غير إنّنا نستطيع أن نحدس ذلك الآن؛ لقد كان يحدث أن يستمر الحكم الأُموي دائماً نفسه بالدجل الديني، وبفلسفة التواكل والخنوع والتسليم.

وكان يحدث أن تستحكم هذه الفلسفة وهذا الجدل الديني في الشعب فيطأطئ دائماً لحاكميه، ويستكين الحاكمون لموقف الشعب منه فيلهون، ويضعفون عن القيام بأعباء الحكم وصيانة الدولة، ويغرقون في اللهو والترف.

وعاقبة ذلك هي الانحلال، انحلال الحاكمين والمحكومين، وكان يحدث أن يكتسح البلاد الفاتحون، فلا يجدون مقاومة ولا نضالاً بل يجدون انحلالاً من الحاكمين والمحكومين، ثم يجرف التاريخ أُولئك وهؤلاء. ولكن ما حدث غير ذلك؛ لقد انحلّ الحاكمون حقّاً، ولقد اكتسحت الدولة حقّاً، ولكنّ المحكومين لم ينحلّوا بل ظلّوا صامدين. وكان ذلك بفضل الرّوح التي بثّتها ثورة الثائرين في كربلاء.

خاتمة

ما نريده ونلح على أنّه ضروري لنا في مرحلتنا الثورية الراهنة هو ألسنة التاريخ، هو جعله ذا صلة بحياة الإنسان ومطامحه، هو إعداده ليندمج مع الكائن الإنساني في تركيب عضوي مُتفاعل مُتكامل وليس مجرّد انعكاس خاوٍ لحياة إنسانيّة سابقة.

لقد دأب مدوّنو التأريخ العرب على الاهتمام بالتأريخ الشخصي للملوك والقادة؛ فسجّلوا بإسهاب عظيم حروبهم وانتصاراتهم، ومجالس مجونهم ولهوهم، ولم يولوا الجانب الاجتماعي من الحياة الإسلاميّة - وهو ما يتّصل بحياة الأمّة - اهتماماً وإن كان ضئيلاً.

ومن هنا أضحى التأريخ عندنا - بالنسبة إلى الجماهير - مجرّد انعكاس لحيوات سابقة لا يُسهم في تكوين الشخصيّة الإنسانيّة. إنّه قد يُسهم في إثارة الحماس الخلاّق تارة والغرور المدمر أُخرى، ولكنّه لا يُسهم أبداً في تكوين شخصيّة إنسانيّة سوية مُتكاملة ترتكز على أصول إنسانيّة عريقة، فلا تفقد محور الارتكاز حين تتعرّض لامتحان قاسٍ لا يجتازه إلاّ الإنسان... الإنسان.

وإن حُقبتنا الحياتية الراهنة لتُحتم علينا أن نتناول التاريخ تناولاً إنسانياً،

تناولاً يُتيح له أن يكون عاملاً مطوّراً فيما يتعلّق بموقفنا من الحياة والكون.

إنّ أُمّتنا الإسلاميّة تجتاز في هذه الحقبة أدق وأخطر مرحلة من مراحل كفاحها الطويل عبر العصور. لقد حقّقت انتصارات باهرة يجب أن تُحافظ عليها، وتعمل في الوقت نفسه لتحقيق انتصارات جديدة. وهنا تكمن الخطورة في هذه المرحلة؛ إنّها الآن حين تقنع بالانتصارات التي حقّقتها وتقعد عن محاولة تحقيق غيرها تتعرّض لخطر فقد هذه الانتصارات نفسها، ولذلك فيجب أن تحمي هذه الأمّة نفسها من تطرق الوهن والاستسلام إليها. يجب ألا ترضى عن نفسها. هذه واحدة.

وأُخرى وهي أنّها إذا صمّمت على السير ولم تهن ولم تنكل يخشى عليها أن تزيغ وتنحرف في تطوّرها إذا لم يكن عندها... في أعماقها محور ترتكز عليه وترجع إليه، محور نابع من شخصيّتها التأريخيّة وذاتيتها العقائديّة.

وما يُؤمنها من أنفسها، وما يُؤمنها من الزيغ والانحراف في تطوّرها هو أن تعي تأريخها بعد تطهيره، وتأريخها هي - تأريخ الأُمم - ليس تأريخ حروب حكّامها، وانتصاراتهم ومجالس لهوهم، وإنّما هو تأريخ ثوراتها على هؤلاء الحكّام.

إنّ ثورات الأُمم هي التي تمثّل روحها ونضالها وإيمانها، أمّا الحكّام الذين ثارت عليهم فليسوا منها؛ لو كانوا منها لما ثارت عليهم، لو كانوا منها لأحسوا بعذابها، ولما خلقوا بتصرّفاتهم مبرّرات ثوراتها.

إنّ تأريخ الثورات هو تأريخ الشعوب. ولكي تبقى هذه الشعوب في يقظة دائمة لئلاّ تخدع عن انتصاراتها، ولكي تبقى في وعي دائم لعملها التطويري الذي تمارسه يجب أن تكون في ثورة دائمة

على أعدائها في الخارج والداخل لتحتفظ بانتصاراتها، وثورة دائمة على نفسها تتناول نفسها بالنقد، وتفحص موقفها دائماً؛ لئلاّ تنحرف وتزيغ. ولكي تبقى في ثورة دائمة تُصحح بها أوضاعها من الداخل والخارج يجب أن تُلقن تاريخ نفسها تاريخ ثوراتها؛ ففي هذا التأريخ تجد الأساس التأريخي لشخصيتها العقائديّة والنضاليّة فتعصمها شخصيتها العقائديّة من الزيغ والانحراف، وتعصمها شخصيتها النضاليّة من الوهن والنكول.

ولقد أهمل المؤرّخون الأقدمون تأريخ الثورات أو زيّفوه؛ لأنّهم - بوحي من أنفسهم أو حكّامهم - كانوا يعتبرون هذه الثورات حركات تمرّد وعصيان ضدّ السلطة الشرعية. أمّا الآن، فيجب أن يُصحح الوضع، يجب أن يُكتب التأريخ النضالي لأمّتنا كتابة صحيحة، يجب أن يكشف عن العذاب والاضطهاد والجوع الذي كان يدفع الناس إلى الثورة، إلى الموت احتجاجاً على واقعهم.

يجب أن يكشف عن الشخصيّة التأريخيّة لهذه الأمّة، ومحور ارتكازها العقائدي والنضالي غير التاريخ. يجب أن يكشف عن مناقبيّة الثائرين التي كانت تعصمهم دائماً من أن ينقلبوا إلى لصوص، أو سفّاحي دماء لا هدف لهم ولا يشعرون بمسؤوليتهم.

وتأريخ أمّتنا النضالي تأريخ مضيء؛ فالثورات التي قامت بها أمّتنا عبر العصور كانت دائماً تعبّر تعبيراً تلقائياً حرّاً عن هذه الأمّة وعن إنسانيتها، وعن رغبتها الحارّة في أن تعيش متمتّعة بكافة حقوقها الإنسانيّة.

وتأتي ثورة الحسين عليه السلام في كربلاء على رأس هذا التأريخ؛ فهي رأس الحربة في التأريخ الثوري، هي الثورة الأولى التي عبّأت الناس

ودفعت بهم في الطريق الدامي الطويل، طريق النضال، بعد أن كادوا أن يفقدوا روحهم النضاليّة بفعل سياسة الأُمويِّين.

وهي أغنى ثورة بالعزم والتصميم على المضي في النضال الدامي إلى نهايته أو النصر؛ فقد عُرضت على الثائرين أمتع حياة، ولكنّهم أبوا هذه الحياة التي ١٩/٥ سيسكتون معها عن الظلم والعسف وإرهاب الأمّة.

وهي ثورة امتحن أبطالها بأقسى ما امتحن به الثائرون على مدى التاريخ. فلم يهنوا ولم ينكلوا بل ثبتوا - رغم كلّ شيء - ثائرين إلى اللحظة التي توّجوا فيها عملهم العظيم بسقوطهم صرعى في سبيل مبدئهم الحقّ.

وهي أنبل ثورة قام بها جماعة من الناس؛ فإنّ الثائرين لم يستهدفوا من ثورتهم مغنماً شخصياً لأنفسهم، وإنّما استهدفوا من ثورتهم تحرير مجتمعهم من الطغاة الذين كانوا يسومونه العذاب ويجرّعونه الصّاب؛ ومن هنا تأتي أهيمتها التأريخيّة والتطويرية، من أنّها النموذج المحتذى، النموذج الذي جاء كاملاً والذي يجب أن يُستوحى.

وحيث كانت بهذه المثابة وجب أن تنال عناية خاصّة من القيّمين على شأن الكلمة عندنا، فعلى هؤلاء - وهم القوّة المطوّرة والقائدة في الأمّة - أن يهتمّوا اهتماماً جدّياً بهذه الثورة بشرح الدور الذي أسهمت به تغذية روح النضال وإلهابها، وبالكشف عن أخلاقيتها التي بشّرت بها، وبإحلالها في محلّها اللائق بها تأريخنا الثوري.

وإنّ أدوات الأداء الحديثة لتتيح إمكانيات لا حدّ لها لاستخدام تأريخنا الثوري في تطوير مجتمعنا، وفي إبراز شخصيته التأريخيّة لعينيه؛ ليعمل على تركيز نضاله الحديث على الأسس التأريخيّة العقائديّة لحركته النضاليّة الكبرى عبر العصور.

الفهارس الفنيّة العامّة

١ - فهرس الآيات
٢ - فهرس الأحاديث
٣ - فهرس المصادر

فهرس الآيات

الآية	رقمها	الصفحة
البقرة		
(يؤتي الحكمة مَنْ يشاء ومَنْ يؤت الحكمة)	٢٦٩	٩
(ومن الناس مَنْ يعجبك قوله في الحياة الدنيا)	٢٠٤ - ٢٠٥	١١٣
(ومن الناس مَنْ يشري نفسه ابتغاء مرضات)	٢٠٧	١١٤
المائدة		
(وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم)	٢	٢٥١
التوبة		
(والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار)	١٠٠	١١٥
(لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار)	١١٧	١١٥
يوسف		
(ما هذا بشر إن هذا إلاّ ملك كريم)	٣١	٢٤

الآية	رقمها	الصحفة
النور		
(والذي تولّى كبره منهم له عذاب عظيم)	١١	١١٥
السجدة		
(أفمن كان مؤمناً كمَنْ كان فاسقاً لا يستوون)	١٨	٦٨
الحجرات		
(يا أيّها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى)	١٣	٩٢
(يا أيّها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ)	٦	٦٨
القلم		
(عُتل بعد ذلك زينم)	١٣	١٦٩

فهرس الأحاديث

طرف الحديث	الصفحة
مَنْ يُرد الله به خيراً يفقهه في الدين	٩
وإنّي لم أخرج بطراً ولا أشراً	١٠
ومنهم من يطلب الدنيا بعمل الآخرة	٢٣ و٢٢١
يا أخي، والله لو لم يكن في الدنيا ملجأ	٢٥
أبالموت تخوّفني؟ وهل يعدو بكم	٢٦ و٢٢٣
لا والله، لا أُعطيهم بيدي إعطاء الذليل	٢٦ و٢٠٦ و٢٢٤
لقد علمتم أنّي أحقّ الناس بها من غيري	٤١
أيّها الناس، إنّ لي عليكم حقّاً	٦١
دعوني والتمسوا غيري	٦٢
الذليل عندي عزيز حتّى آخذ الحقّ له	٦٥
أيّها الناس، إنّي رجل منكم	٦٥
ألا لا يقولن رجال منكم غداً	٦٦
ابدأ بالمهاجرين فنادهم، وأعط كلّ	٦٦
أمّا ما ذكرتم من وتري إيّاكم فالحقّ وتركم	٦٩
فأمّا هذا الفيء فليس لأحد على أحد فيه أثرة	٦٩

طرف الحديث	الصفحة
وقُتلت شيعتنا بكلّ بلدة، وقُطعت الأيدي	٧٩
المؤمنون إخوة تتكافأ دماؤهم	٩١
أيّها الناس، إنّ الله تعالى أذهب عنكم	٩١
مَنْ قاتل تحت عمية يغضب لعصبية	٩٢
أمّا إبليس فتعصّب على آدم بأصله	٩٣
ليس بلد بأحقّ بك من بلدٍ، خير البلاد	٩٣
نبلّوا سهلاً؛ فإنّه سهل	٩٤
لو أحبّني جبل لتهافت	٩٤
أمّا بعد، فقد بلغني أنّ رجالاً ممّن قبلك	٩٥
وإذا رأيتم الناس بينهم النائرة، وقد تداعوا	٩٧
أتأمروني أن أطلب النصر بالجور	١٠٦
أنا مدينة العلم، وعلي بابها	١١٦
تلقون من بعدي اختلافاً وفتنة	١١٦
إنّكم سترون بعدي أثرة وأموراً تُنكرونها	١١٧
مَنْ رأى من أميره شيئاً يكرهه فليصبر	١١٧
ستكون هنات وهنات، فمَنْ أراد أن	١١٧
وهيهات هيهات يا معاوية! فضح الصبح فحمة	١٣٧
أمّا بعد، فقد بلغني كتابك تذكر أنّه	١٣٧
الولد للفراش، وللعاهر الحجر	١٣٨

طرف الحديث	الصفحة
ما أردت بمُصالحتي معاوية إلاّ أن أدفع	١٥٠
صدق أبو محمّد، فليكن كلّ رجل منكم	١٥١ و١٦١
أمّا أخي فأرجو أن يكون الله قد وفّقه	١٥١
فليكن كلّ رجل منكم حلساً من إحلاس	١٥١ و١٦١
وفهمت ما ذكرت عن يزيد	١٦٥
مثلي لا يُبايع سرّاً، ولا يجتزئ بها منّي	١٦٨
ويلي عليك يابن الزرقاء! أنت تأمر	١٦٩
أيّها الأمير، إنّا أهل بيت النبوّة، ومعدن	١٦٩
فمَنْ قبلني بقبول الحقّ فالله أولى	١٧٤
أيّها الناس، إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: مَنْ رأى سلطاناً جائراً	١٧٤
فإنّي الحسين بن علي، وابن فاطمة	١٧٥
نفسي مع أنفسكم، وأهلي مع أهليكم	١٧٦
ويلكم! ما عليكم أن تنصتوا لي فتسمعوا	١٧٦
تباً لكم أيّها الجماعة وترحاً! حين	١٧٧
وأيم الله، لو كنت في جحر هامة من هذه	١٨٨
والله لا يدعوني حتّى يستخرجوا هذه	١٨٨
جزاك الله خيراً يابن عمّ، فقد والله علمت	١٨٩
يابن عمّ، إنّي والله لأعلم إنّك ناصح	١٨٩
لأن أقتل بمكان كذا أو كذا أحبّ إليّ من أن	١٨٩

طرف الحديث	الصفحة
يا أبا عبد الرحمن، أما علمت أن من هوان	١٨٩
صدقت، لله الأمر، والله يفعل ما يشاء	١٩٠
قد غسلت يدي من الحياة، وعزمت على تنفيذ أمر	١٩٠
أمّا بعد، فإنّه قد أتاني خبر فظيع قتل	١٩١ و٢٢٦
ويلك يابن سعد! أما تتقي الله الذي إليه	١٩٣
يا أهل الكوفة، الزموا طاعتكم	١٩٩
أيّها الناس، اسمعوا قولي، ولا تعجلوني	٢٠٤
أمّا بعد، فانسبوني وانظروا مَنْ أنا	٢٠٤
هذان سيدا شباب أهل الجنّة	٢٠٥
فإن كنتم في شك من هذا القول أفتشكون	٢٠٦
أمّا بعد يا أهل الكوفة، أتبكون؟	٢١٢
أمّا بعد يا أهل الكوفة، يا أهل المكر	٢١٣
أيّها الناس، ناشدتكم الله، هل تعلمون	٢١٤
موت في عزّ خير من حياة في ذلّ	٢٢٥
الناس عبيد الدنيا، والدين لعق على	٢٢٧
أمّا بعد، فقد نزل من الأمر بنا ما ترون	٢٢٤ و٢٢٧
أمّا بعد، فإنّي لا أعلم أصحاباً أوفى	٢٢٨
ألا تسلك بين هذين الجبلين في جوف	٢٣٠
لا تُقاتلوا الخوارج بعدي؛ فليس مَنْ	٢٣٦

فهرس المصادر المطبوعة والمخطوطة

١ - القرآن الكريم، كتاب الله تبارك وتعالى الحيّ القيوم.

حرف الألف

٢ - إبصار العين في أنصار الحسين، طبعة النجف الأشرف، « نظام الحكم والإدارة في الإسلام » للشيخ مُحَمَّد مهدي شمس الدين.

٣ - الآثار الباقية عن القرون الخالية، لمحمد بن أحمد البيروني، طبعة ليبك عام ١٩٢٣ م.

٤ - أحاديث عائشة أُمّ المؤمنين للعلامة العسكري، الطبعة الحيدرية في طهران، وطبعة ٥ مطبعة صدر نشر دار التوحيد.

٥ - الأخبار الطوال، لأحمد بن داود الدينوري (أبو حنيفة ت ٢٨٢ هـ) تحقيق عبد المنعم عامر، طبعة دار المسيرة - بيروت، طبعة دار إحياء الكتب العربيّة سن (١٩٦٠ م).

٦ - الاختصاص، المنسوب لمحمد بن مُحَمَّد بن النعمان العكبري المعروف بالشيخ المفيد، نشر جماعة المدرسين، قم - إيران.

٧ - إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، (المعروف بمعجم الأدباء) ياقوت الحموي، طبعة مرجليوت، مصر ١٩٠٧/١٩٢٥ م.

٨ - أسباب النزول، أبي الحسن علي بن أحمد بن مُحَّد الواحدي (ت ٤٦٨ هـ/١٠٧٦ م) وبهامشه الناسخ والمنسوخ لهبة الله سلامة، عالم الكتب، بيروت، لبنان.

٩ - الاستبصار في نسب الصحابة من الأنصار، عبد الله بن أحمد موفق الدين بن قدامة (ت ٦٢٠ هـ)، تحقيق: علي نويهض. طبعة بيروت.

١٠ - الاستيعاب في معرفة الأصحاب، يوسف بن عبد الله بن مُحَّد القرطبي أبو عمر المشهور بابن عبد البر النمري (ت ٤٦٣ هـ)، تحقيق: علي مُحَّد عوض، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان. وتحقيق علي البجاري، طبعة القاهرة وبهامش الإصابة.

١١ - الإسلام والحضارة العربيّة، مُحَّد كرد علي، طبعة مصر سنة (١٩٣٤ - ١٩٣٦ م).

١٢ - أُسد الغابة في معرفة الصحابة، لأبي الحسن عزّ الدين علي بن أبي الكرم مُحَّد بن مُحَّد بن عبد الكريم الشيباني المعروف بابن الأثير الجزري (ت ٦٣٠ هـ. ق)، تحقيق: مُحَّد إبراهيم، طبعة - القاهرة ١٣٩٠ هـ، وطبع بالأفست في المكتبة الإسلاميّة للحاج رياض، وطبع المطبعة الوهبية بمصر.

١٣ - الإصابة في تمييز الصحابة، مُحَّد بن حبيب البغدادي، طبعة مولاي عبد الحفيظ، القاهرة (١٣٢٨ هـ).

١٤ - الإصابة في تمييز الصحابة (بهامش الاستيعاب لابن عبد البر)، أحمد

ابن حجر العسقلاني (٧٧٣ - ٨٥٢ هـ)، دار العلوم الحديثة، وطبعات أُخرى لاحقة.

١٥ - الأعلام، قاموس تراجم لأشهر الرجال... خير الدين بن محمود بن مُحَمَّد بن علي بن فارس، أيلول سبتمبر ١٩٩٢ م دار العلم بيروت - لبنان.

١٦ - أعلام النساء، عمر رضا كحالة سنة (ت١٤١٣ هـ) مؤسسة الرسالة بيروت - لبنان.

١٧ - أعيان الشيعة، محسن بن عبد الكريم العاملي (ت ١٣٧١ هـ)، تحقيق وإخراج حسن الأمين، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، لبنان.

١٨ - الأغاني، لأبي الفرج الإصبهاني (ت ٣٥٦ هـ)، تحقيق: خليل محيي الدين، دار الكتب المصرية، الطبعة الأولى ١٣٥٨ هـ، وكذا طبعة دار الفكر بيروت عام (١٤١٢ هـ).

١٩ - الإمام زيد حياته وعصره وآراؤه وفقهه، مُحَمَّد أبو زهرة، المكتبة الإسلاميّة، بيروت - لبنان.

٢٠ - الأمالي الكبرى المسماة بالخميسة، وأخرى مسمّاة بالإثنينية؛ لأنّ مؤلفها كان يمليها يوم الخميس والأخرى يوم الإثنين وهو الإمام المرشد بالله يحيى بن الحسين بن إسماعيل الجرجاني الشجري (٤١٢ هـ).

٢١ - الأمالي الصغرى، للإمام أحمد بن الحسين الهاروني، ويليه معجم الرواة في أمالي المؤيد بالله، تحقيق: عبد السلام الوجيه، دار التراث الإسلامي صعدة.

٢٢ - أمالي المرتضى، علي بن الحسين العلوي، طبعة مصر عام ١٣٢٥ هـ/١٩٠٧ م، تحقيق: مُحَمَّد أبو الفضل إبراهيم، دار الكتاب العربي - بيروت - لبنان.

٢٣ - الإمامة والسياسة، لأبي مُحَمَّد عبد الله بن مسلم المعروف بابن قتيبة

الدينوري (ت ٢٧٦ هـ. ق)، مكتبة ومطبعة مصطفى بابي الحلبي، مصر ١٣٨٨ هـ.

٢٤ - السيرة الحلبية (إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون)، علي بن برهان الشافعي الحلبي، دار الفكر العربي، بيروت ١٤٠٠ هـ.

٢٥ - الأنساب، عبد الكريم مُحَمَّد السمعاني (ت ٥٦٢ هـ)، طبعة ليدن، وبتحقيق: عبد الرحمن المغلمي اليماني، طبعة بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ/١٩٨٨ م، دار الجنان بيروت - لبنان.

٢٦ - أنساب الأشراف، لأحمد بن يحيى بن جابر البلاذري (ت ٢٧٩ هـ.ق)، تحقيق: كمال الحارثي، طبعة مكتبة الخانجي - مصر ١١٢٥ هـ، طبعة مكتبة المثنى بغداد ١٣٩٦ هـ، وتحقيق المحمودي، مؤسسة الأعلمي بيروت.

حرف الباء

٢٧ - البداية والنهاية، لأبي الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي، تحقيق: علي شيري، دار الكتب العلمية، الطبعة الخامسة (١٤٠٩ هـ) مطبعة السعادة مصر عام ١٣٥١ هـ.

٢٨ - البداية والنهاية، مُحَمَّد بن عبد الحر الكناني (ت ١٣١٢ هـ)، طبعة القاهرة (١٣٥١ - ١٣٥٨ هـ).

٢٩ - البدء والتاريخ، المنسوب إلى أبي زيد أحمد بن سهل البلخي، وهو لمطهر بن طاهر المقدسي (ت ٥٠٧ هـ) مكتبة الثقافة الدينية، وتحقيق: كلمان هوّاز، طبعة باريس ١٩٠٣ ومطبعة السنّة المحمدية ١٤٠٦ هـ.

٣٠ - البدء والتاريخ، للمقدسي، طبعة (١٩٨٨ م).

٣١ - البحر الزخّار الجامع لعلماء الأمصار، لأحمد بن يحيى المرتضى، صنعاء دار الحكمة اليمانية.

٣٢ - البحار، للعلاّمة المجلسي، طبعة سنة (١٤١٢ هـ) مؤسسة الوفاء بيروت - لبنان، وأيضاً طبعة إيران، طبعة سنة (١٣٩٤ هـ) إيران.

٣٣ - بشارة المصطفى لشيعة المرتضى، عماد الدين أبو جعفر مُحَمَّد بن القاسم الطبري، المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف، الطبعة الثانية ١٣٨٣ هـ ونشر مطبعة الخانجي مصر ١٤٠٠ هـ.

٣٤ - بطلة كربلاء، الدكتورة عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ، موسوعة آل النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، الناشر دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى ١٩٦٧ م.

٣٥ - بُغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، جلال الدين السيوطي (ت ٩١١ هـ)، طبعة مصر سنة ١٣٢٦ هـ، طبعة أُخرى بتحقيق: مُحَمَّد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة (١٩٦٤ م).

٣٦ - البلدان، لأبي بكر أحمد بن مُحَمَّد الهمداني المعروف بابن الفقيه، طبعة النجف الأشرف، طبعة ليدن.

حرف التاء

٣٧ - تاريخ بغداد - لأحمد بن علي الخطيب البغدادي، طبعة دار السعادة، مصر.

٣٨ - التأريخ، يحيى بن معين (ت ٢٣٣ هـ)، رواية عبّاس الدوري، تحقيق: أحمد مُحَمَّد نور سيف، طبعة مكة المكرّمة ١٩٧٩ م.

٣٩ - التأريخ الكبير - لمحمد بن إسماعيل البخاري، طبعة حيدر آباد الدكن.

٤٠ - تأريخ جرجان، للسّهمي حمزة بن يوسف (ت ٤٢٧ هـ)، طبعة حيدر آباد الدكن ١٩٥٠/٣٦٩ م.

٤١ - تأريخ التمدّن الإسلامي، جرجي زيدان زيدان، الطبعة الثالثة.

٤٢ - تأريخ ابن خلدون، المسمّى التأريخ أو العبر وديوان المبدأ أو الخبر، عبد الرحمن بن مُحَمَّد المشهور بابن خلدون (ت٨٠٨ هـ)، طبعة دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٧١ م.

٤٣ - تأريخ الخلفاء لعبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت ٩١١ هـ)، تحقيق محيي الدين عبد الحميد، طبعة القاهرة، ١٩٥٩ م، طبعة دار السعادة، مصر عام ١٤١٦ هـ.

٤٤ - تأريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس، لحسين بن مُحَمَّد بن الحسن الدياربكري (ت ٩٦٦ هـ)، طبعة القاهرة ١٢٨٣ هـ.

٤٥ - تاريخ الأدب العربي، (بالألمانية)، لكارل بروكلمان، ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار، الأجزاء الثلاثة الأولى، الطبعة الرابعة دار المعارف، القاهرة، أمّا الأجزاء الثلاثة الأخر، ترجمها الدكتور يعقوب بكر، والدكتور رمضان نواب.

٤٦ - تأريخ مدينة دمشق، حمزة بن أسد الفلانسي (ت ٥٥٥ هـ)، طبعة بيروت عام ١٩٠٨ م.

٤٧ - تأريخ مدينة دمشق، علي بن الحرّ بن عساكر (ت ٥٧١ هـ)، طبعة دمشق ١٩٥١ - ١٩٥٤ م، طبعة ١٩٨٢ م.

٤٨ - تأريخ الإسلام، مُحَمَّد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت ٧٤٨ هـ)، مكتبة القدسي، القاهرة ١٣٦٨ هـ، تحقيق بشار عواد معروف، طبعة القاهرة (١٩٧٧ م).

٤٩ - تأريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، الدكتور حسن إبراهيم، طبعة دار الكتاب، بيروت ١٤٠١ هـ.

٥٠ - تأريخ الطبري تأريخ الرسل والأمم والملوك، لأبي جعفر مُحَمَّد بن جرير الطبري (... - ٣١٠ هـ)، تحقيق مُحَمَّد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة (١٩٦٠ م)، طبعة أوربا، طبعة الاستقامة، مصر.

٥١ - تاريخ ابن عساكر (تأريخ مدينة دمشق)، الأجزاء التي حقّقها المحمودي، ترجمة الإمام علي والإمام الحسن والإمام الحسين عليهم السلام.

٥٢ - تأريخ المدينة المنوّرة (أخبار المدينة)، لعمر بن شيبة، تحقيق: فهيم مُحَمَّد شلتون، دار التراث والدار الإسلاميّة ١٩٩٠ م، بيروت، لبنان.

٥٣ - تأريخ اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر العباسي المعروف باليعقوبي، طبعة النجف الأشرف ١٣٥٤ هـ.

٥٤ - تأريخ اليعقوبي، لابن واضح، طبعة دار صادر، بيروت، لبنان، وأيضاً النجف الأشرف، العراق.

٥٥ - تذكرة الحفاظ، مُحَمَّد أحمد بن عثمان الذهبي (ت ٧٤٨ هـ. ق)، تحقيق: أحمد السقا، طبعة القاهرة ١٤٠٠ هـ، طبعة حيدر آباد الدكن ١٣٨٧ هـ، طبعة دار إحياء التراث العربي، مكتبة الحرم المكي بمكة المكرّمة.

٥٦ - تذكرة الخواص (تذكرة خواص الأمّة)، ليوسف بن فرغلي بن عبد الله المعروف بسبط ابن الجوزي، الحنبلي ثمّ الحنفي، نزيل دمشق (ت ٦٥٤ هـ)، طبعة بيروت الثانية ١٤٠١ هـ، طبعة النجف الأشرف، طبعة مصر.

٥٧ - ترجمة الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام من تأريخ مدينة دمشق الكبير، لعلي

ابن هبة الله المعروف بابن عساكر، طبعة دمشق.
٥٨ - ترجمة الإمام الحسين عليه السلام من كتاب الطبقات الكبير القسم الغير المطبوع، لابن سعيد الزهري (٢٣٠ هـ)، تحقيق: السيد عبد العزيز الطباطبائي، نشر مؤسسة آل البيت لإحياء التراث ١٤١٥ هـ.
٥٩ - ترجمة الإمام الحسن عليه السلام من تأريخ مدينة دمشق الكبير (٥٧١ هـ)، تحقيق: مُحَمَّد باقر المحمودي، مؤسسة المحمودي (١٤٠٠ هـ).
٦٠ - التاج المذهب لأحكام المذهب شرح متن الأزهار في فقه الأئمة الأطهار، لأحمد بن قاسم العنسي (اليماني الصنعاني)، طبع القاهرة، دار إحياء التراث العربي الحلبي وشركاؤه.
٦١ - تفسير روح المعاني، لأبي الفضل شهاب الدين السيد مُحَمَّد الآلوسي، طبعة مكتبة المثنى - بغداد ١٣٩٦ هـ.
٦٢ - تفسير القرآن العظيم (تفسير ابن كثير)، لإسماعيل بن عمر بن كثير البصري الدمشقي، (ت ٧٧٤ هـ)، طبعة بيروت، دار المعرفة ١٤٠٧ هـ، طبعة دار إحياء التراث العربي، طبعة دار صادر.
٦٣ - تقريب التهذيب، مُحَمَّد بن حبيب البغدادي (ت ٢٤٥ هـ)، تحقيق: عبد الوهاب عبد اللطيف، طبعة القاهرة (١٣٨٠ هـ).
٦٤ - تهذيب تأريخ مدينة دمشق الكبير، لابن عساكر، الشيخ عبد القادر زيدان، دار المسيرة، بيروت، لبنان.
٦٥ - تهذيب الأحكام، لأبي جعفر مُحَمَّد بن الحسن الطوسي (المتوفى ٤٦٠ هـ)، تحقيق الحجّة السيد حسن الخرسان، الطبعة الثالثة، بيروت، دار

الأضواء عام (١٤٠٦ هـ).
٦٦ - تهذيب الأسماء واللّغات، يحيى بن شرف محيي الدين (ت ٦٧٦ هـ)، طبعة القاهرة (١٣٤٩ هـ).
٦٧ - تهذيب الكمال، يوسف بن عبد الرحمن المزي (ت ٧٤٢ هـ)، طبعة دار المأمون، دمشق، ومطبعة مؤسسة الرسالة.د
٦٨ - تهذيب المقال في تنقيح كتاب الرجال، للشيخ الجليل النجاشي، للسيد مُحَمَّد علي الأبطحي.

حرف الثاء

٦٩ - الثقات، لأبي حاتم مُحَمَّد بن حبّان بن أحمد التميمي البستي (٣٥٤ هـ)، الطبعة الأولى، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن، الهند، عام ١٣٦٩ هـ.
٧٠ - ثورة زيد بن علي، لناجي حسن، طبعة بغداد ١٣٦٦ هـ، مكتبة النهضة.

حرف الجيم

٧١ - جامع البيان عن تأويل آي القرآن، أبي جعفر مُحَمَّد بن جرير الطبري (المتوفى ٣١٠ هـ).
٧٢ - الجامع الصحيح (سنن الترمذي)، لأبي عيسى مُحَمَّد بن عيسى بن سورة الترمذي (ت ٢٩٧ هـ)، تحقيق: أحمد مُحَمَّد شارك، دار إحياء التراث، بيروت.
٧٣ - الجامع الصحيح (صحيح مسلم) بشرح النووي، لمسلم بن الحجّاج بن

مسلم القشيري النيشابوري (ت٢٦١ هـ)، تحقيق: مُحَمَّد فؤاد عبد الباقي، دار الحديث، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤١٢ هـ.
٧٤ - الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين السيوطي (ت ٩١١ هـ)، الطبعة الأولى، القاهرة ١٣٦٥ هـ.
٧٥ - الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبد الله مُحَمَّد بن أحمد القرطبي (ت ٦٧١ هـ)، طبعة الفجّالة القديمة، مصر، والطبعة الأولى، دار إحياء التراث العربي، تصحيح أحمد عبد العليم البردوني.
٧٦ - الجداول المرضية في تأريخ الدول الإسلاميّة (تأريخ الدول الإسلاميّة بالجداول المرضية) كما أثبت في آخره، أحمد زيني دحلان، مفتي الشافعية بمكة، طبعة مصر ١٣٠٦ هـ.
٧٧ - الجرح والتعديل، عبد الرحمن بن أبي حاتم مُحَمَّد بن إدريس المنذر (ت ٣٢٧ هـ)، تحقيق: عبد الرحمن المعلمي اليماني، حيدر آباد.
٧٨ - جواهر العقدين في فضل الشرفين شرف العلم الجلي والنسب العلي، لعلي بن عبد الله الحسني السمهودي (٨٤٤ - ٩١١ هـ)، تحقيق: الدكتور موسى بناي العليلي، مطبعة العاني، بغداد ١٤٠٥ هـ، نشر وزارة الأوقاف العراقية.
٧٩ - الجمل، للشيخ المفيد، طبعة الحيدرية، النجف الأشرف، العراق، سنة (١٣٨١ هـ. ق).
٨٠ - جمهرة أنساب العرب، علي بن أحمد بن حزم (ت ٦٥٥ هـ)، تحقيق: عبد السلام هارون، طبعة القاهرة (١٩٦٢ م).

حرف الحاء

٨١ - الأحكام السّلطانية، لأبي الحسن علي بن مُحَّد البصري البغدادي الماوردي، الطبعة الأولى، مصر ١٣١٩ هـ.

٨٢ - الإحكام لابن حزم، لعلي بن أحمد بن حزم الأندلسي، أبو مُحَّد، دار الحديث، القاهرة، ١٤٠٤ هـ، طبعة ١.

٨٣ - الإحكام للآمدي، لعلي بن مُحَّد الآمدي، أبو الحسن، دار الكتاب العربي، بيروت ١٤٠٤ هـ، تحقيق: الدكتور سيد الجميلي.

٨٤ - حاشية الباجوري علي شرح الغزي علي متن الشيخ أبي شجاع، منشورات المكتب العالمي للتأليف والترجمة، دار مكتبة الحياة، بيروت ١٣٨١ هـ.

٨٥ - حاشية البجيرمي على شرح النهج - لمحمد علي البجيرمي، المطبعة الهندية العربيّة، مصر ١٣١٣ هـ.

٨٦ - حاشية ردّ المحتار على الدّر المختار - لابن عابدين، المطبع المصطفائي، لكهنو.

٨٧ - الحاكم في معرفة علوم الحديث، لأبي عبد الله مُحَّد بن عبد الله بن الحاكم النيشابوري (ت ٤٠٥ هـ)، طبعة دار الكتاب العربي.

٨٨ - الحدائق الوردية في مناقب الأئمة الزيدية، لأبي عبد الله الشهيد حميد بن أحمد المحلي التميمي الوادعي، مطبوع ومخطوط في مكتبة آل كاشف الغطاء برقم ٧١٣، ومصوّرة عن مخطوطة نسخت سنة (١٣٧٥ هـ)، دار أُسامة، دمشق ١٤٠٥ هـ.

٨٩ - حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أحمد بن عبد الله أبو نعيم الإصفهاني

(المتوفى ٤٣٠ هـ).

٩٠ - الحور العين، سعيد نشوان الحميري (١١٧٧ م)، تحقيق: كمال مصطفى، دار آزال، بيروت، والمكتبة اليمنية، صنعاء ١٩٨٥ م.

٩١ - حياة الحيوان الكبرى، مُحَمَّد بن موسى الدميري (ت ٨٠٨ هـ)، طبعة المكتبة الإسلاميّة، بيروت.

٩٢ - الحيوان، للجاحظ، طبعة القاهرة ١٣٦٥ هـ، وكذا طبعة الحلبي من سنة (١٣٥٧ هـ).

حرف الخاء

٩٣ - الخرائج والجرائح، لأبي الحسين سعيد بن عبد الله الراوندي المعروف بقطب الدين الراوندي (ت ٥٧٣ هـ)، تحقيق ونشر: مؤسسة الإمام المهدي عليه السلام، قم ١٤٠٩ م.

٩٤ - خصائص أمير المؤمنين - ضمن السنن، الحافظ النسائي (٣٠٣ هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت.

٩٥ - خصائص أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، للحافظ أبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.

٩٦ - الخصائص الكبرى (كفاية الطالب اللبيب في خصائص الحبيب)، جلال الدين السيوطي، طبعة دار الكتاب العربي.

٩٧ - خلاصة الأقوال في معرفة الرجال (رجال العلامة الحلي)، لجمال الدين أبي منصور الحسن بن يوسف بن علي بن المطهر الحلي (ت٧٢٦ هـ)، تصحيح

محمّد صادق بحر العلوم، منشورات الشريف الرضي، الطبعة الأولى ١٤٠٢ هـ.

حرف الدال

٩٨ - دائرة معارف القرن العشرين، محمّد فريد وجدي، دار المعرفة، بيروت.
٩٩ - دائرة المعارف الإسلاميّة، نقلها إلى العربيّة محمّد ثابت الفندي وآخرون، دار المعرفة، بيروت، لبنان.
١٠٠ - الدرّ المنثور في طبقات ربّات الخدور، العاملي، زينب (ت ١٣٣٢ هـ)، طبعة القاهرة (١٣١٢ هـ).
١٠١ - الدرّ المنثور في التفسير بالمأثور، جلال الدين السيوطي (ت ٩١١ هـ)، دار الفكر، بيروت، لبنان.
١٠٢ - دراسات في نهج البلاغة، محمّد مهدي شمس الدين، طبعة النجف ١٩٥٦ م.
١٠٣ - دلائل النبوّة، أبو نعيم أحمد بن عبد الله الإصبهاني (ت ٤٣٠ هـ)، نشر دار الوعي، حلب (١٣٩٧ هـ).
١٠٤ - دلائل النبوّة، أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي (٤٥٨ هـ)، نشر دار الوعي، حلب ١٣٩٧ هـ.
١٠٥ - دول الإسلام، محمّد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت ٧٤٨ هـ)، تحقيق: فهيم محمّد شلتوت ومحمّد مصطفى إبراهيم، طبعة القاهرة (١٩٧٤ م).

حرف الذال

١٠٦ - ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى، لمحب الدين أحمد بن عبد الله الشهير بالمحب الطبري (ت ٦٩٤ هـ)، نشره حسام الدين القدسي بالقاهرة ١٣٥٦ هـ.

حرف الراء

١٠٧ - رجال النجاشي، لأبي العباس أحمد بن علي النجاشي، تحقيق مُحَمَّد جواد النائيني، طبعة دار الأضواء، بيروت.

١٠٨ - الروض الأنف، لعبد الرحمن بن عبد الله السهيلي (٥٨١ هـ) تحقيق طه عبد الرؤوف سعد، طبعة القاهرة.

١٠٩ - روضات الجنات في أحوال العلماء والسادات، مُحَمَّد باقر الموسوي الخوانساري الأصبهاني.

١١٠ - الرياض النضرة في فضائل العشرة، لمحبّ الدين الطبري الشافعي (ت ٦٩٤ هـ. ق)، طبعة بيروت ١٤٠٣ هـ، وطبعة ثانية في مصر، ودار الغرب الإسلامي، بيروت ١٩٩٦ م، تحقيق: عيسى عبد الله مُحَمَّد مانع الحميري.

حرف الزاي

١١١ - الزهد، الإمام أحمد بن مُحَمَّد بن حنبل (ت ٢٤١ هـ)، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت.

١١٢ - زينب الكبرى، جعفر النقدي، منشورات الرضي، قم المقدسة، الطبعة

الثانية، والطبعة الثالثة، منشورات الطبعة الحيدرية، النجف الأشرف.
١١٣ - النسابة العبيدلي في (أخبار الزينبات)، أخذ بالواسطة.

حرف السين

١١٤ - سُبل السلام شرح بلوغ المرام من جمع أدلة الأحكام، لمحمد بن إسماعيل الكحلاني ثم الصنعاني اليمني، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة الرابعة ١٣٧٩ هـ.
١١٥ - سُبل الهدى والرشاد، لصالح الشامي، طبعة مصر.
١١٦ - سرّ السلسلة العلوية (مخطوط)، حياة الإمام زيد.
١١٧ - سفينة البحار، المسمّى سفينة بحار الأنوار ومدينة الحكم والآثار، عباس بن مُحَمَّد رضا القمي، طبعة النجف سنة ١٣٥٥ هـ.
١١٨ - السقيفة (أو) أئمة الشيعة، سليم بن قيس الكوفي الهلالي العامري (المتوفى ٩٠ هـ)، طبعة مؤسسة الأعلمي، بيروت، لبنان.
١١٩ - السنن الكبرى، لأبي بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي (ت ٤٥٨ هـ ق)، تحقيق: مُحَمَّد محيي الدين عبد الحميد، دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٤٠٥ هـ، تحقيق مُحَمَّد عبد القادر عطا، طبعة دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت ١٤١٤ هـ مصوّرة من دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن ١٣٥٣ هـ.
١٢٠ - سنن ابن ماجة، لأبي عبد الله مُحَمَّد بن يزيد بن ماجه القزويني (ت ٢٧٥ هـ)، تحقيق: فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث، بيروت، الطبعة الأولى

١٣٩٥ هـ، ونشر دار الفكر، طبعة بيروت ١٣٧١ هـ.

١٢١ - سنن الترمذي، لأبي عيسى مُحَمَّد بن عيسى بن سورة الترمذي (ت ٢٩٧ هـ) تحقيق: أحمد مُحَمَّد شاكر، دار إحياء التراث، بيروت.

١٢٢ - سنن الدار قطني، لأبي الحسن علي بن عمر البغدادي المعروف بالدار قطني (ت ٢٨٥ هـ) تحقيق: أبو الطيب مُحَمَّد آبادي، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الرابعة ١٤٠٦ هـ، طبعة بولاق بالقاهرة.

١٢٣ - سنن النسائي، الحافظ المتوفى سنة (٣٠٣ هـ)، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

١٢٤ - سنن أبي داود، لأشعث السجستاني الأزدي (ت٢٧٥ هـ. ق)، إعداد وتعليق: عزّت عبد الدعاس، طبعة دار الحديث، الطبعة الأولى، حمص ١٣٨٨هـ، وطبعة مصطفى البابي - مصر ١٣٩١ هـ.

١٢٥ - سير أعلام النبلاء، مُحَمَّد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت ١٣٧٤ م)، تحقيق: مجموعة من الباحثين تحت إشراف: شعيب الأرناوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان.

١٢٦ - السيرة النبوية، لأبي مُحَمَّد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري (ت ٢١٣ أو ٢١٨ هـ. ق)، تحقيق: مصطفى السقا، وإبراهيم الأنباري، وعبد الحفيظ شلبي، مكتبة المصطفى، قم، الطبعة الأولى ١٣٥٥ هـ.

١٢٧ - السيرة النبوية بهامش السيرة الحلبية، لأحمد بن زيني بن أحمد دحلان (ت ١٣٠٤ هـ) طبعة دار الكتاب العربي، بيروت ١٤٠٨ هـ.

١٢٨ - الشافي - في الجواب على الرسالة الخارقة، للفقيه عبد الرحيم بن أبي

القبائل، تأليف الإمام عبد الله بن حمزة الحسني (٥٦١ - ٦١٤)، الطبعة الأولى ١٩٨٩ م، منشورات مكتبة اليمن الكبرى، اليمن، صنعاء ز

حرف الشين

١٢٩ - شذرات الذهب في أخبار مَنْ ذهب، لأبي الفلاح عبد الحي المعروف بابن العماد (ت١٠٨٩ هـ. ق)، تحقيق: الأرناوط، طبعة بيروت، ودمشق ١٤٠٩ هـ، ونشر مكتبة القدسي، القاهرة ١٣٥٠ هـ.

١٣٠ - شرح البحر الرائق، لزين الدين بن إبراهيم بن مُحَمَّد المعروف بابن نُجيم المصري الحنفي.

١٣١ - شرح نهج البلاغة، للشيخ مُحَمَّد عبده، طبعة دار الكتاب العربي ١٤٠٦ هـ، طبعة الفجّالة الجديدة، مصر ١٤٠٣ هـ.

١٣٢ - شرح نهج البلاغة، للخوئي، طبعة دار الفكر، بيروت ١٤٠٦ هـ.

١٣٣ - شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد المعتزلي (ت ٦٥٦ هـ. ق)، تحقيق: مُحَمَّد أبو الفضل، طبعة بيروت ١٤٠٩ هـ.

١٣٤ - شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، عبد الحميد بن هبة الله (ت ٦٥٥ هـ)، طبعة بيروت (١٣٧٤ هـ)، وتحقيق: مُحَمَّد أبو الفضل إبراهيم، طبعة دار إحياء الكتب العربيّة، مصر.

١٣٥ - الشعر والشعراء، عبد الله بن مسلم بن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ)، تحقيق: أحمد شاكر، طبعة القاهرة (١٩٦٦ م).

١٣٦ - الشفاء بمعرفة حقوق المصطفى، لقاضي أحمد بن عيّاض بن مُحَمَّد بن

عبد الله بن موسى بن عيّاض اليحصبي، أندلسي الأصل (٤٩٦ - ٥٤٤ هـ) طبعة بيروت.
١٣٧ - شواهد التنزيل لقواعد التفضيل، لأبي القاسم عبيد الله بن عبد الله النيسابوري المعروف بالحاكم الحسكاني (من أعلام القرن الخامس، والمتوفى بعد سنة ٤٧٠ هـ)، تحقيق: مُحَمَّد باقر المحمودي، مؤسسة الطبع والنشر، طهران، الطبعة الأولى - ١٤١١ هـ.

حرف الصاد

١٣٨ - صحيح البخاري، لأبي عبد الله مُحَمَّد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة الجعفي البخاري (ت ٢٥٦ هـ)، تحقيق: مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، بيروت، الطبعة الرابعة ١٤١٠ هـ، ومطبع المصطفائي ١٣٠٧ هـ.
١٣٩ - شرح صحيح البخاري، عبد الله بن إسماعيل، لمحمود بن أحمد العيني (ت ٨٥٥ هـ)، مطبعة الفجّالة الجديدة، مصر ١٣٧٦ هـ.
١٤٠ - صحيح الترمذي، لعيسى بن سورة الترمذي (ت ٢٩٧ هـ)، طبعة بيروت ١٤٠٥ هـ، مطبعة المكتبة السلفية بالمدينة المنوّرة.
١٤١ - الصحيح من سيرة النبي الأعظم ﷺ، السيد جعفر مرتضى العاملي، دار الهادي، دار السيرة، بيروت، لبنان.
١٤٢ - صحيح مسلم، لأبي الحسين مسلم بن الحجّاج القشيري النيسابوري، (ت ٢٦١ هـ. ق)، تحقيق: مُحَمَّد فؤاد عبد الباقي، طبعة بيروت ١٣٧٤ هـ، دار الحديث، القاهرة، الطبع الأولى ١٤١٢هـ، ودار إحياء التراث العربي، بيروت.

١٤٣ - صفوة الصفوة، لأبي الفرج عبد الرحمن بن علي الجوزي (٥٩٧ هـ)، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، لبنان، وتحقيق: ماخوري قلعجي.

١٤٤ - الصواعق المحرقة، لابن حجر الهيثمي (٩٧٤ هـ)، تحقيق: عبد الوهاب اللطيف، مكتبة القاهرة.

حرف الضاد

١٤٥ - ضحى الإسلام، الدكتور أحمد أمين المصري، الطبعة الخامسة.

حرف الطاء

١٤٦ - طبقات أعلام الشيعة، للشيخ آقا برزك الطهراني، مؤسسة إسماعيليان، قم، الطبعة الثانية.

١٤٧ - الطبقات الكبرى، لمحمد بن سعد الواقدي الزهري (ت ٢٣٠ هـ)، دار صادر، بيروت ١٤٠٥ هـ، طبعة أوربا، طبعة ليدن.

حرف العين

١٤٨ - العبر في خبر مَنْ غبر، الذهبي مُحَمَّد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨ هـ)، بتحقيق: الدكتور صلاح الدين المنجد، بتحقيق: فؤاد السيد، طبعة الكويت (١٩٦٠ - ١٩٦٩ م).

١٤٩ - العقد الثمين في تبيين أحكام الأئمة الهادين، الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة اليمني (٥٦٦ - ٦١٤ هـ)، تحقيق: عباس الوجيه، صدر عن

مؤسسة الإمام زيد بن علي عليه السلام الثقافية.
١٥٠ - العقيدة والشريعة في الإسلام، إجناس جواد تسيهر.
١٥١ - العقد الفريد، أحمد بن مُحَمَّد بن عبد ربّه الأندلسي (ت ٣٢٨ هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، وتحقيق: أحمد أمين وجماعة، طبعة القاهرة، وتحقيق: مُحَمَّد سعيد العريان.
١٥٢ - عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب، لابن عنبه أحمد بن علي جمال الدين الحسيني (ت ٨٢٨ هـ)، المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف عام ١٣٨٠ هـ.
١٥٣ - عيون الأثر، لأحمد بن عبد الله بن يحيى المشهور بابن سيد الناس (ت ٧٣٤ هـ. ق)، طبعة دار المعرفة، بيروت ١٤٠١ هـ، طبعة القدسي ١٣٥٦ هـ.
١٥٤ - عيون الأخبار وفنون الآثار، لابن قتيبة الدينوري (ت ٢٧٦ هـ)، طبع دار الكتاب العربي، وطبع قديم.
١٥٥ - عيون الأخبار، لابن قتيبة، طبعة المؤسسة المصرية العامة، سنة ١٣٩٢ هـ.

حرف الغين

١٥٦ - الغارات، لابن إسحاق إبراهيم بن مُحَمَّد بن سعيد المعروف بابن هلال الثقفي، منشورات أنجمن آثار ملّي، طهران.
١٥٧ - الغدير في الكتاب والسنّة والأدب، عبد الحسين أحمد الأميني النجفي، ١٣٩٧ هـ/١٩٧٧ م، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.
١٥٨ - غاية المرام، لهاشم البحراني، طبع دار القاموس.

حرف الفاء

١٥٩ - الإفادة في تاريخ الأئمّة السادة، للإمام الناطق بالحقّ أبي طالب يحيى بن الحسين بن هارون الهاروني الحسني، تحقيق: إبراهيم بن مجد الدين بن مُحَمَّد المؤيدي، وهادي بن حسن بن هادي الحمزاوي، منشورات مركز أهل البيت للدراسات الإسلاميّة، اليمن صعدة، الطبعة الأولى عام (١٤٢٢ هـ)، و(مخطوط).

١٦٠ - فجر الإسلام، الدكتور أحمد أمين، الطبعة الرابعة، الفجّالة الجديدة.

١٦١ - الفتنة الكبرى - ٢ - علي وبنوه، للدكتور طه حسين، طبع دار الهلال.

١٦٢ - فتح الباري شرح صحيح البخاري، مُحَمَّد بن حبيب البغدادي (ت ٢٤٥ هـ) طبعة بولاق (١٣٠١ هـ)، طبعة السلفية (١٣٩٠ هـ).

١٦٣ - فتح الباري شرح صحيح البخاري، لأحمد بن علي بن مُحَمَّد بن حجر العسقلاني، (ت ٨٥٢ هـ)، الناشر دار إحياء التراث العربي، بيروت، والمطبعة السلفية مصر ١٣٨٠ هـ، وتحقيق: عبد العزيز بن عبد الله بن باز، القاهرة ١٣٩٨ هـ.

١٦٤ - الفتح القدير (تفسير)، لمحمد بن علي الشوكاني، (ت ١٢٥٠ هـ)، دار إحياء التراث العربي، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٠٣ هـ.

١٦٥ - الفتوح، أحمد بن أعثم الكوفي، أجزاء دائرة المعارف الحيدرية، النجف ١٩٦٢ م - ١٣٨٢ هـ.

١٦٦ - فتوح البلدان، أحمد بن يحيى البلاذري، (ت ٢٧٩ هـ)، تحقيق: رضوان مُحَمَّد رضوان، السعادة، القاهرة (١٩٩؟ م) وكذا طبعة (١٣١٩ هـ).

١٦٧ - الفخري في أنساب الطالبيّين، للسيد عز الدين بن أبي طالب إسماعيل

ابن الحسين، تحقيق: السيد مهدي الرجائي، مكتبة آية الله العظمى المرعشي، قم (١٩٨٩ م - ١٤٠٩ هـ).

١٦٨ - فرائد السمطين في فضائل المرتضى والبتول والسبطين والأئمّة من ذريتهم، لإبراهيم بن مُحَّد بن المؤيد بن عبد الله الجويني الحمويني (ت ٧٢٢ أو ٧٣٠ هـ. ق)، تحقيق: مُحَّد باقر المحمودي، طبعة مؤسسة المحمودي، بيروت ١٣٩٨ هـ.

١٦٩ - الفقه المنسوب للإمام الرضا عليه السلام، مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، قم، نشر المؤتمر العالمي للإمام الرضا عليه السلام، مشهد المقدّس، طبعة ١٤٠٦).

١٧٠ - فيض القدير، لمحمد بن علي الشوكاني، (ت ١٢٥٠ هـ)، طبع دار الصحابة.

١٧١ - فيض القدير شرح الجامع الصغير، لأبي زكريا يحيى بن مُحَّد عبد الرؤوف المناوي (ت ١٠٣١ هـ. ق)، الطبعة الأولى، القاهرة ١٣٥٦ هـ.

١٧٢ - الفصول المهمة في معرفة الأئمة، علي بن مُحَّد الصباغ المالكي (٨٥٥ هـ)، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت (١٤٠٨ هـ)، وكذا طبعة الحيدرية، النجف، العراق عام (١٣٨١ هـ)، وكذا طبعة دار الحديث، قم.

١٧٣ - فضائل الصحابة، لأبي عبد الله أحمد بن مُحَّد حنبل الشيباني (٢٤١ هـ)، تحقيق: وصي الله بن مُحَّد عباس، دار العلم، الطبعة الأولى ١٤٠٣ هـ، وطبعة جامعة أم القرى السعودية.

١٧٤ - فضائل الخمسة من الصحاح الستة، لمرتضى الحسيني الفيروزآبادي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، الطبعة الثالثة ١٩٧٣ م.

١٧٥ - الفصل في الملل والأهواء والنحل، علي بن أحمد بن حزم (ت ٤٥٦ هـ).

طبعة القاهرة (١٣٢١ هـ).
١٧٦ - فوات الوفيات، مُحَمَّد بن شاكر الكتبي (ت ٧٦٤ هـ)، تحقيق: إحسان عباس، طبعة بيروت (١٩٧٣ م).
١٧٧ - الفهرست، لمحمد بن إسحاق بن النديم، تحقيق: ناهد عباس عثمان، نشر دار قطري بن الفجاءة، الطبعة الأولى، الدوحة، قطر ١٩٨٥ م.

حرف القاف

١٧٨ - قاموس الرجال في تحقيق رواة الشيعة ومحدثيهم، لمحمد تقي بن كاظم التستري (ت ١٣٢٠ هـ)، مؤسسة النشر الإسلامي، قم، الطبعة الثانية ١٤١٠ هـ.
١٧٩ - القاموس المحيط، لمحمد بن يعقوب الفيروزآبادي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، الطبعة الثانية ١٩٥٢ م.
١٨٠ - القاموس، لمحمد مرتضى الزبيدي (ت ١٢٠٥ هـ. ق)، طبعة دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٤٠٥ هـ.

حرف الكاف

١٨١ - الكافي (الأُصول)، الطبعة الإسلاميّة، عام (١٣٨٨ هـ. ق)، طهران، ثم طبع سنة (١٣٧٧ هـ. ق) الحيدري، طهران، إيران.
١٨٢ - الكامل في التاريخ، لأبي الحسن علي بن أبي الكرام مُحَمَّد مُحَمَّد بن عبد الكريم الشيباني المعروف بابن الأثير (ت ٦٣٠ هـ) عُني بمراجعة أُصوله: نخبة من العلماء، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.

١٨٣ - كنز العمّال في سنن الأقوال والأفعال، لعلاء الدين علي المتقي بن حسام الدين الهندي (ت ٩٧٥ هـ)، تصحيح صفوة السقا، مكتبة التراث الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى ١٣٩٧ هـ، وطبع دار الوعي، حلب ١٣٩٦ هـ.
١٨٤ - كشف الغمّة في معرفة الأئمّة، لعلي بن عيسى الإربلي (ت ٦٨٧ هـ)، تصحيح هاشم الرسولي المحلاتي، دار الكتاب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠١ هـ، طبعة تبريز بدون تأريخ.
١٨٥ - كشف المراد، لجمال الدين أبي منصور الحسن بن يوسف بن علي بن المطهر الحلي (ت ٧٢٦ هـ)، طبعة دار الفكر، ودار إحياء التراث، بيروت.

حرف اللام

١٨٦ - لسان العرب، لأبي الفضل جمال الدين مُحَمَّد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري (ت ٧١١ هـ. ق)، الطبعة الأولى، دار صادر، بيروت ١٤١٠ هـ.
١٨٧ - لسان الميزان، لأبي الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢ هـ. ق)، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، وعلي مُحَمَّد معوض، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٦ هـ.

حرف الميم

١٨٨ - مآثر الإنافة في معالم الخلافة، لأحمد بن عبد الله القلقشندي (ت ٨٢١ هـ)، تحقيق: عبد الستار فراج، طبعة عالم الكتب، بيروت.
١٨٩ - الإمام المجتهد يحيى بن حمزة وآراؤه الكلامية، الدكتور أحمد محمود

صبحي، منشورات العصر الحديث، الطبعة الأولى عام (١٤١٠ هـ).

١٩٠ - المختصر في أخبار البشر، (تأريخ أبي الفداء)، لعماد الدين إسماعيل أبو الفداء، (ت ٧٣٢ هـ. ق)، نشر مكتبة القدسي، طبعة القاهرة ١٤٠٨ هـ، طبعة إدارة ترحاب السنّة، باكستان، المكتبة الإعدادية.

١٩١ - مختصر تأريخ العرب، سيد أمير علي، أخذ بالواسطة.

١٩٢ - مجلّة الأضواء الإسلاميّة، النجف الأشرف، في العدد الثاني من السنة الأولى في ١ محرم ١٣٨٠ - ٢٦ حزيران ١٩٦٠ م.

١٩٣ - مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، لعلي بن أبي بكر الهيثمي، (ت ٨٠٧ هـ. ق)، تحقيق: عبد الله محمّد درويش، طبعة دار الفكر، الطبعة الأولى، بيروت (١٤١٢ هـ. ق)، مصوّرة عن طبعة القدسي ١٣٨٩ هـ. ق، طبعة القاهرة الثانية بدون تأريخ.

١٩٤ - مرآة الجنان، لعبد الله بن سعد اليافعي، طبعة دار صادر، بيروت ١٤٠٥ هـ.

١٩٥ - المراجعات، عبد الحسين شرف الدين الموسوي العاملي، طبعة بيروت.

١٩٦ - مروج الذهب ومعادن الجوهر، لأبي الحسن علي بن الحسين المسعودي (ت٣٤٦ هـ. ق)، تحقيق: محمّد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، الطبعة الرابعة، القاهرة ١٣٨٤ هـ.

١٩٧ - المستدرك على الصحيحين، لأبي عبد الله محمّد بن عبد الله الحاكم النيسابوري، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١١ هـ، طبعة حيدر آباد.

١٩٨ - مسند أحمد، لمحمد بن حنبل الشيباني (ت ٢٤١ هـ. ق)، تحقيق: عبد الله محمّد الدرويش، طبعة دار الفكر، الطبعة الثانية، بيروت ١٤١٤ هـ، طبعة جامعة أُمّ القرى السعودية، طبعة دار العلم ١٤٠٣ هـ.

١٩٩ - مسند ابن ماجه، لمحمد بن يزيد القزويني (ت ٢٧٥ هـ. ق)، تحقيق: فؤاد عبد الباقي، نشر دار الفكر، طبعة بيروت ١٣٧١ هـ، دار إحياء التراث، بيروت، الطبعة الأولى ١٣٩٥ هـ.

٢٠٠ - مسند الطيالسي، لسليمان بن داود الطيالسي (ت ٢٠٤ هـ. ق)، طبعة دار صادر، بيروت ١٤٠٢ هـ.

٢٠١ - المصابيح، لأحمد بن إبراهيم بن الحسن بن علي بن إبراهيم بن مُحَمَّد بن سليمان بن داود بن الحسن بن الحسن السبط بن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ٢٤٨، تحقيق: عبد الله بن أحمد الحوثي، طبع مؤسسة الإمام زيد بن علي الثقافية.

٢٠٢ - المصنف، عبد الرزاق بن همّام الصنعاني (٢١١هـ)، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، منشورات المجلس العلمي، طبعة بيروت سنة (١٣٩٠ هـ)، وما بعدها.

٢٠٣ - معوية بن أبي سفيان، محمود عباس العقاد، طبع بمطابع مؤسسة دار الهلال.

٢٠٤ - المعجم الصغير، لأبي القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي الطبراني (ت ٣٦٠ هـ)، تحقيق: مُحَمَّد عثمان، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠١ هـ.

٢٠٥ - المعجم الأوسط، أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبري (٣٦٠ هـ)، مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة الأولى (١٤٠٧ هـ)، قام بإخراجه إبراهيم مظفر وآخرون، تحت إشراف: مجمع اللغة العربيّة، مصر.

٢٠٦ - المعجم الكبير، لأبي القاسم سليمان بن أحمد اللخمي الطبراني (ت ٣٦٠ هـ)، تحقيق: حمدي عبد المجيد السلفي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٤ هـ.
٢٠٧ - المعجم الأوسط، لأبي القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي الطبراني (ت ٣٦٠ هـ)، تحقيق: طارق بن عوض الله، وعبد الحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين، القاهرة ١٤١٥ هـ.
٢٠٨ - معجم البلدان، لأبي عبد الله شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي (ت ٦٢٦ هـ)، طبعة دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى ١٣٩٩ هـ. ق.
٢٠٩ -، معجم رجال الحديث، السيد أبو القاسم بن علي أكبر الخوئي، طبعة دار إحياء التراث، بيروت ١٤٠٦ هـ، ومنشورات مدينة العلم، قم، الطبعة الثالثة ١٤٠٣ هـ.
٢١٠ - مجمع البيان في تفسير القرآن، لأبي علي الفضل بن الحسن الطبرسي، (ت ٥٤٨ هـ. ق)، طبعة دار المعرفة، بيروت ١٤١٩ هـ، طبعة دار إحياء التراث العربي.
٢١١ - المغني، لأبي محمَّد موفق الدين محمَّد بن عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي (ت ٦٢٠ هـ)، دار الكتاب العربي، بيروت ١٣٥٩ هـ، طبعة محمَّد علي صبيح وأولاده.
٢١٢ - المغني، لأبي محمَّد عبد الله بن أحمد بن محمَّد بن قدامة المقدسي، على مختصر لأبي القاسم عمر بن الحسين بن عبد الله بن أحمد الخرقي، مطبعة المنار، مصر ١٣٤٢ هـ.
٢١٣ - مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، الشرح للشيخ محمَّد الشربيني الهجري، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٢١٤ - الملل والنحل، لأبي منصور عبد القاهر بن طاهر بن مُحَمَّد التميمي البغدادي (ت ٤٢٩ هـ)، تحقيق: البير نصري نادر، طبعة دار المشرق، بيروت ١٩٧٠ م.

٢١٥ - الملل والنحل، لأبي الفتح مُحَمَّد بن عبد الكريم الشهرستاني (ت ٥٤٨ هـ) على هامش (الفصل)، لابن حزم الظاهري، الطبعة الثانية، أُفست، دار المعرفة، بيروت.

٢١٦ - مناقب آل أبي طالب، لأبي جعفر رشيد الدين مُحَمَّد بن علي بن شهر آشوب المازندراني (ت ٥٨٨ هـ)، المطبعة العلمية، قم، طبعة النجف الأشرف.

٢١٧ - مناقب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، لمحمد بن سليمان الكوفي القاضي (ت ٣٠٠ هـ)، تحقيق: مُحَمَّد باقر المحمودي، مجمع إحياء الثقافة الإسلامي، قم، الطبعة الأولى ١٤١٢ هـ.

٢١٨ - مقاتل الطالبيّين، أبو الفرج علي بن الحسين بن مُحَمَّد القرشي الإصبهاني الأموري (٢٨٤ - ٣٥٦ هـ)، شرح وتحقيق: السيد أحمد صقر، مؤسسة الأعلمي، بيروت، لبنان.

٢١٩ - مقتل الحسين عليه السلام ومصرع أهل بيته وأصحابه بكربلاء (المشهور: مقتل أبي مخنف)، أبو المخنف لوط بن يحيى، مكتبة العلوم العامة، البحرين، مكتبة الخبر، صنعاء - ج. ي. (مصور عن أصل مخطوط) يقع في (١٤٤) صفحة.

٢٢٠ - منتخب كنز العمال، علي بن حسام الدين بن عبد الملك (٨٨٥ - ٩٧٥ هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.

٢٢١ - موسوعة الملل والنحل، أبي الفتح الشهرستاني عام ١٩٨١ م، بدون ذكر لاسم الدار الناشر.

٢٢٢ - ميزان الاعتدال في نقد الرجال، لأبي عبد الله مُحَمَّد بن أحمد الذهبي، (ت ٧٤٨ هـ. ق)، تحقيق: مُحَمَّد البجاوي، طبعة دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت ١٩٦٣ م، وطبع القاهرة ١٣٢٥ هـ، دار الفكر، بيروت.

٢٢٣ - الميزان في تفسير القرآن، لمحمد حسين الطباطبائي، دار الكتب الإسلاميّة، طهران، الطبعة الثانية ١٣٩٧ هـ.

٢٢٤ - ميزان الاعتدال، مُحَمَّد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت ٧٤٨ هـ)، تحقيق: علي البجاوي، طبعة القاهرة (١٩٦٣ م).

حرف النون

٢٢٥ - نظام الحكم والإدارة في الإسلام، مُحَمَّد مهدي شمس الدين، الطبعة الأولى، منشورات حمد، بيروت ١٣٧٤ هـ.

٢٢٦ - النهاية في غريب الحديث والأثر، لأبي السعادات مبارك بن مبارك الجزري المعروف بابن الأثير الشيباني الشافعي (ت ٦٠٦ هـ)، تحقيق: ظاهر أحمد الزاوي، مؤسسة إسماعيليان، قم الطبعة الرابعة ١٣٦٧ هـ.

٢٢٧ - نهاية الإرب في فنون الأدب، لشهاب الدين النويري (ت ٧٣٢ هـ. ق)، تحقيق: كمال مروان، طبعة القاهرة ١٢٤٩ هـ.

٢٢٨ - نهاية الإرب في معرفة أنساب العرب، لأحمد بن عبد عبد الله القلقشندي (ت ٨٢١ هـ. ق)، نشر إدارة البحوث العلمية، طبعة بيروت ١٤٠٢ هـ.

٢٢٩ - نور الأبصار في مناقب آل بيت النبي المختار، لمؤمن بن حسن مؤمن الشبلنجي (ت ١٢٩٨ هـ)، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٣٩٨ هـ.

٢٣٠ - نهاية الإرب في معرفة أنساب العرب، للقلقشندي، طبعة بغداد.
٢٣١ - النزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم، تحقيق: حسين مؤنس، القاهرة، دار التعارف سنة ١٩٨٨ م.
٢٣٢ - نسب قريش، لأبي عبد الله المصعب بن عبد الله بن المصعب الزبيري (١٥٦ - ٢٣٦ هـ)، عُني بنشره إليفي بروفنسال، دار المعارف، القاهرة.

حرف الواو

٢٣٣ - وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، مُحَمَّد بن الحسن الحر العاملي، طبع مؤسسة آل البيت ١٤١٤ هـ.
٢٣٤ - الوافي، لمحمد محسن بن مرتضى الفيض الكاشاني، نشر مكتبة الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام ، أصفهان ١٤٠٦ هـ.
٢٣٥ - الوفاء بأخبار المصطفى، لابن الجوزي، طبعة ١٣٩٥ م، مطبعة السعادة، مصر.
٢٣٦ - الوافي، لمحمد محسن بن مرتضى الفيض الكاشاني، نشر مكتبة الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام ، أصفهان ١٤٠٦هـ.
٢٣٧ - الوافي بالوفيات، لصفي الدين خليل بن أبيك الصفدي، دار النشر فرائزشتانيز، فيسبادان.
٢٣٨ - وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، لشمس الدين أبي العباس أحمد بن مُحَمَّد البرمكي المعروف بابن خلكان (ت ٦٨١ هـ. ق) تحقيق: الدكتور إحسان عباس، طبعة دار صادر، بيروت ١٣٩٨ هـ.

٢٣٩ - وقعة صفّين، لنصر بن مزاحم المنقري، تحقيق وشرح عبد السلام هارون، القاهرة، الطبعة الثانية، ونشر مكتبة السيد المرعشي النجفي، قم ١٣٨٢ هـ.

حرف الياء

٢٤٠ - ينابيع المودة لذوي القربى، لسليمان بن إبراهيم القندوزي الحنفي (ت ١٢٩٤ هـ)، تحقيق: علي جمال أشرف الحسيني، طبعة أسوة، الطبعة الأولى ن قم ١٤١٦ هـ، والطبعة الحيدرية في النجف الأشرف.

والحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسّلام على محمّد وآله الطاهرين